كامل سليمان

الحسن بن علي (ع)

دراسة وتحليل

دار الفكر - بيروت





الحسن بن علي

تأليف

كامل سليمان

مدير مدرسة صور الرسمية

منشورات دار الفكر



في ربيع الاول سنة ١٣٧٣

وتشرين الثاني سنة ١٩٥٣

Hasan ibn Ali

❀

أتاحت لي الظروف درس حياة الحسن بن علي بن ابي طالب ، فرأيت شخصية لم تمر بدور تاريخي الا تكاثفت العوامل للقضاء عليها بشكل يظهر فيه التعمل والوضع اللذان يشوهان وجه الحق ويفسدان حرية البحث ، مما جعل احكام الناس عليه ، وعلى ما رافق ظروفه ولابسها ، أحكاماً اكتسبت الصفة القطعية !

وقد رأيت أن احداً لم ينبر لتمحيصها بعين العقل فتفرغت لذلك برهة ، وألزمت نفسي التنقيب عن حقيقة كادت تضيع بين استار من ظلمات التاريخ .. ورأيت واجباً عليّ ان أفسد تلك الخطة الجائرة ، وان أظهر هذا الكتاب مبيناً الحق ما وسعني الامكان ، ومتوخياً الصدق ابداً ، وممحصاً مسالك القدماء المتشعبة التي غيرت الواقع التاريخي وغمرت اكثر الابطال واكثر الأبدال .. فاعتزمت ذلك للحق ، ولوجه الله وحده ..

وأنبه القارىء الى ان العرض المسجل لحياة الحسن كان واضحاً في حين ، وغامضاً في حين آخر ، وصامتاً في كثير من الموارد ، لان عهده قد تناولته ضوضى في الروايات شوهت الصورة وطمست على بعض خطوطها وحقيقتها ، فصعب استيضاحها ودق فهمها كما

كانت بالضبط .. وليس اصعب من تمحيص الحق في تاريخ عهد رواياته مدخولة او معلولة ، والسن أهله بين مكبوتة ومطلقة ، وأيديهم بين مغلولة ومجازة على التزوير والشنآن . لذا كان انسان اليوم بعيداً عن فهم شخصية الامام العظيمة واستيعابها تماماً ، بالنظر الى ما يفصله عنه من زمان ومكان وشعور ولسؤولية .

وسأجهد ، على كل حال ، في اكتشاف الخطوط ، كبراها وصغراها ، كلها او جلها ، من الاخبار المتناقضة ومن الاقاويل التي أملتها الميول وغذتها الاهواء .. وأتخيل انني قد استفدت من اختلاف بعض الروايات واختلاق البعض الآخر ، لان التناقض جعلها تتساقط وتتمخض من الحق الصريح . وقد تعبت في فهم الاحاديث فهماً صحيحاً يستسيغه الذوق السليم ، متجاوزاً الالمام بالقشور ، والتشدق باصطلاحات القدماء ، ومتجنباً جمع عباراتهم التي غيرت صورة لألاءة ، في زمن كانت فيه القوة الفائزة تفضي الى تطويع الجماعة من الرواة بحسب ما تقتضيه أنظمتها ونزعاتها السياسية ..

وكل انسان لا بد ان يكون في بحثه افلاطون او أرسطو ، اي لا بد ان ينزع الى مبادىء الأول اذا غلبت عواطفه عقله ، او الى نزعة الثاني ان تغلب عقله على عواطفه . وقد يراني القارىء مرة هذا ومرة ذاك دون أن اتعمد ، وان كنت أميل الى ان اكون الثاني ميلاً كثيراً .

أما فهم الروايات لتحصيل المراد من الاخبار فقد اصبح فناً

قائماً بذاته . ولذا عملت ، ما اسعفني تسديد الله ، على اعتماد الروايات التي تدل على اكثر ما اراد صاحبها ، وعلى اختيار الاخبار التي تسمح بتفسير سهل لا يزيد عليه القاريء الا ما يدعم مذهبي ، ويقيم معتقدي ، وينهض بحجتي في الموضوع .

ولم أكلف نفسي عنت تشويه النصوص ، ولا عناء تحويرها ولا التحكم برقبة مدلولاتها ارضاء لشهوة او ارواء لغلة . نعم قد اكون موفقاً حين اجتهد فأصيب ، او أخطيء واكون قد اجتهدت ولم يتح لي التوفيق ، وهذا شأن الناس جميعاً . فالقضية قضية وسائل للبحث ومعالجة لها ، ومهما كانت الوسائل تامة ومتفقة فانها لا تبلغ معالجتها حد الكمال ..

والفت النظر الى ان الروايات التي يمر بها الانسان عند درس حياة الامام ، **في الاسفار الضخمة** ، قد وضع بعضها مكذوباً في عهده او بعد عهده ، ولكنه لن يستعصي على الباحث إدراك الغاية من وضعها اذ يتجلى فيها الاخفاق ، ويظهر الحق صارخاً مجلجلاً في أذن مرهف الحس ..

على ان ما يراه الانسان في ظاهر تواطؤ الاولين على تهمة الحسن لا يجعل نظريتهم حقاً الى الابد ! .. لان البحث الصحيح يثبت فساد ما اعتمدوه ، كما ان بحث الحقائق العلمية غيّر نظرية القائلين — قديماً — بان الشمس تدور حول الارض ، واثبت — حديثاً — أن الارض هي التي تدور .. فلا يصح ان تكون التهمة عقيدة مقدسة لا يجوز مسها ، وانما هي نظرية قابلة للجرح

والتعديل ..

.. وقد كان عهد الحسن بغيضاً اليه والى شيعته ، لان الحياة كانت قائمة على الظلم والاثرة . وهذا ما جعله ، وجعل شيعته ، لا يحب ، ولا يحبون معه الحياة ، لانها خير في ذاتها ، او لانها تتيح لهم نعيماً يفادونه بانفسهم ، ولا لأن مظاهرها حق كلها ، فآثر ، وآثروا معه ، دفع تلك الحياة ثمناً لمبادئهم وفداء لقضيتهم ..

هذا ما يجوز قوله في الخلصاء من اصحابه ، اما العامة فكانوا حولاً قلّباً ينقصهم الثبات والصدق ، ولا يعرفون مساءهم اين يستقر بهم صبحهم .. وقد علم الابدال منهم ان الحياة عبء ثقيل بغيض ، يجب ان يتقربوا الى الله باحتماله ، وان يفضلوا البقاء طلباً للأجر على البلاء ،وطمعاً في اذاعة كلمة حق بين الناس ، وانتظاراً لوثبة ربما خلقتها الايام .. ثم فكر وقدّر ، وقدّروا جميعاً وفكروا بازالة هذا العبء ، ولكنهم كانوا يصطدمون **بمسألة القدر الخالدة** ! .. فلم يروا مندوحاً عن الرضاء والقعود ، لا كلالاً وجبناً ، بل احتساباً وصبراً ، لانهم ، حين قبلوا هذه الحياة ، قبلوها مكرهين ، غير مطمئنين الى ما فرضته عليهم فيها ، اعتقاداً منهم بأن التمرد والسخط لا قيمة لهما بجانب حريتهم الملجمة التي لا تستطيع ان تختار فتقلب الاوضاع ..

فحياة الامام واصحابه ، بشكلها وصيغتها ، صفحة لها قيمتها وجلالها ، لانها حياة رجال عرفوا كيف يعيشون في طاعة الله ، وفهموا كيف يعملون ، بصمت ، ليزرعوا دعوتهم في الصدور ، الى ان

يقدّر لها الانبعاث .. وستظهر آية ذلك كله في المباحث التي تطويها دفتا هذا الكتاب .

ويجب ان لا يغرب عنا أن الحسن رجل لم يجد غير وحي الضمير الصادق الى قلبه سبيلاً ، لانه عاش بين خصمين قويين : معاوية والخوارج ، فنحّى عنه كل مشتّاه .. ولذا شعر بالواجب العياني المنحتم عليه نحو الأمة ، لما أحس بثقل المسؤولية المترتبة على تصرفاته ، فضحى بحقه وصالح غيره على الملك ليبرهن على كونه من أعظم العارفين بالبناء والانشاء .. وان كل بناء قام للهاشميين بعد أبيه وبعده له فيه شركة لها وزنها وحسبانها في عالم الاعتبار والتقدير ..

ولن يفوتني ، أخيراً ، التذكير بأنني حاولت جعل نفسي نكرة من حيث الدين ومذاهبه ، ومن حيث السياسة وغاياتها ، وما ابتغيت الا ايضاح مسألة تضاربت فيها الاقوال واختلفت فيها الآراء وتلاعبت بها الآراب ، فجربت تمحيص ذلك بقلم متواضع لا تشوبه الميول ولا تعترضه النزعات . لان الغرض من التاريخ اثبات الحقيقة بصراحة وامانة وتجرد ، ليكون تسجيل الوقائع تاماً كما تلتقط الآلة الصماء البكماء ، اذا ما كان الرائد الحق والصدق . اقول هذا بزهد وارجو أن يتوفر في كتابي ما يرتاح اليه ضمير الناس ، كما ارتاح اليه ضميري ، بعد ان فتلت الموضوع بحثاً واستقصاء ، والله تعالى من وراء القصد .

ربيع الاول سنة ١٣٧٣ كامل سليمان

الفصل الاول

- ١ -

بين عبث أهل الجزيرة وعيشهم ، وفي فترة كان يتصارع فيها الحق والباطل ، تلألا نور والنسيم ضياء ، وانبعثت نفحة تضوع شذاها في أرجاء يثرب فانتشت بأريجها افئدة محمد وأهل بيته ..

يومها ، تألقت طلعة كقطرة الندى في عين الفجر ارتاحت لها نفوسهم ، وزها لها وجودهم ، اذ تفتق البرعم عن زهرة تفتحت لها قلوب الاهل جذلاً بعد ان افاضت في البيت وضاءة ورجاء ..

يومها خلق أول مولود ذكر في أشرف بيت عربي ، عريق في النسب والعزة ، فألقته الزهراء الى الحياة في منتصف رمضان لثلاث انقضت من الهجرة ، فاشرقت الوجوه استبشاراً ، وانطلقت الحناجر حمداً وشكراً ..

والسنوات الثلاث الاولى للهجرة قد ألفت فيما رافقها وسبقها ، عهداً خطيراً كان ذا أثر في حياة الأم وتكوين المولود . اذ كانت نفس الأم تزدحم فيها الآلام والهموم مرة ، ويطفح فيهـا البشر والسرور مرة ثانية ، لان والدها وبعلها كانا لا ينتهيان من حرب

الا لينهضا الى حرب ، ولا يفوزان بنصر الا ليظفرا بنصر ، ولأن الدين كان لا ينكمش على نفسه بنسبة الا ليشع وينشر هيبته بمناسبة اخرى .. وهي ترافق الانكماش برعب وترافق الفتوح عن كثب فتبيت بين سورتين تقيمانها نصباً ووصباً أو تقعدانها غبطة وانشراحاً ..

والحسن ، يومها ، جنين ينجبل بجبلتها ، ويتبلور من طينتها ، ويتأثر بخلجات نفسها فتترسب عواطفه من عواطفها المنصهرة لتستقر في بوتقة مختصرة هي نفسه بجميع ميزاتها ..

وهذا ما جعله - فيما بعد - قليل العبث والمرح ، كثير التأمل والتفكير : هادئاً ، منكمشاً على ذاته ، لانه ترجمة صادقة وصورة ناطقة عما كان يدور في خلد أمه حين حملها به .

وُلد .. فتناوله ابوه من يد القابلة - ولفاعه خرقة صفراء - وقدمه الى جده ، فتلقفه بشغف وأذّن في أذنيه وحنكه بريقه وباركه ..

أذّن النبي .. فهز صوته نفس الحفيد ، وتفرعت نبراته في خلايا جسمه لتكيفه وفق إرادة الله ورغبة رسوله .. وكانت كلمة التكبير أول صرخة جلجلت في أذنيه ، وحركت مشاعره ، وبقيت مدوية يترجع صداها في اعماقه منذ ان دخل الدنيا عليها الى ان لحق بجده بعد نيف واربعين سنة .. فقد وجهت ذاته الى الله يوم نفخ فيه محمد الروح الطيب فحاكت نفسه نفسه وجعلتها ١
كما شاءت وشاء لها بارئها .. وكمنت تلك الروح في قرارة ذاته

وليداً فطفلاً ، وغلاماً فيافعاً ، وشاباً فكهلاً ! .. بل هيمنت عليه مدة حياته وسيّرته وفق خطة مرسومة كان الله والخير المطلق في أساسها مهما تحرج الظرف وأحدق الخطر واشتدت الضرورة ..

وتاه عليٌّ فرحاً اذ صار لرسول الله ذرية منه ، يفخر بنسبتها اليه على كافة الناس ، فأخذ يجيل بذهنه أجمل الاسماء ليجعل خيرها لابنه فغلب عليه ميله للحرب فانتقى له اسم حرب او حمزة. ولكنها تسمية لم يتح لها التحقيق ، لان علياً لا يتقدم النبي بقول او فعل . فقد قال له لما اخذ اليه الطفل من يد أمه : ما كنت لأسبقك باسمه يا رسول الله ، وان كنت أحب ان اسميه حرباً . فسماه النبي حسناً وقال : ان هذا الاسم مشتق من الاحسان ، والحسن وعلي اسمان من اسماء الله تعالى .. وحلق شعره يوم سابعه ، وأمر ان يتصدق بزنته فضة وعق عنه كبشاً .. أما اسما حسن فمشتقان ما سمت العرب بهما في الجاهلية ، مما اتاح لمحبيهما فرصة القول بأن الله قد حجبهما حتى سمى النبي بهما ابنيه .

وانا لا آخذ ولا أرفض ، بل اظن المبالغة قد جاءت من الغلاة لتقف في وجه ما وضعه الاعداء ليدحض كل منهم مزاعم الآخرين . وأزعم ، غير متحيز ، أن محبي الحسن قد جعلوا لمولده ولتسميته معجزات وخصوصيات فيها غرابة ليجعلوا فيه شيئاً مستهجناً ممتازاً .. وما أنا في مقام التصديق ولا في مقام التكذيب لهذا الامر ، لان منازع الاولياء النفسية جعلتهم يقولون ذلك

لاعتقادهم بانه يؤثر في تدعيم شخصيته .

وزبـدة القول : انه ولد وسماه الله او رسوله او الأب او الأم : حسناً . وكان من كناه : أبو محمد ، وابو القاسم ٠، ومن القابه : السيد والسبط والاثير والامين والحجة ، والبر والتقي والزكي والمجتبى والسبط الاول والزاهد ..

اما طفولته فكانت في بيت يهبط فية الوحي ، وتهوي اليه القلوب . وكان ينمو ويشعر ، فتتسرب الى قلبه عظمة جده ، وينفذ اليه مجد أسرته ، فيترعرع مغموراً بشرف الرسالة ، ونور الدعوة ، ويسمع ذكر الله ومبادىء الدين ، فيغدو كبيراً في طفولته ، وعظيماً في حداثتـه ، وإماماً في صغره . ذاك ان انشغال جده بنشر الدين وتأثيل العقيـــدة التي تنذر باجتياح الارض ، وتعمد الى اخضاع مردتها ، لم يؤخره عن مناغاته ومناجاة روحه ليغرس فيها الايمان طريئة ، وليجعلها منيعة امام أباطيل الجاهلية واضاليلها .

وقد علم الجد والاب والام أن عبد المطلب ولد الحسن مرتين كما ولد هاشم علياً مرتـين ، فكان له ذلك الشرف العظيم الذى يتيه به على الامثال ، فلم يغفلوا عن استعداده وامكانياته فصقلوا نفسه وأمدوه بالتعاليم الفضلى ، واهتموا باعطائه اكبر قسط ممكن من معاني البر والاخلاق ليدخل الدنيا وليفارقها على كلمة : الله اكبر .

أجل ، لقد دأب هؤلاء الثلاثة على تكوينه وجعـله بريئاً

طاهراً لا تناله رعونة ولا تدنسه همجية ، فلاقت تعاليمهم المنبت المخصب الذي حباه الله طيب الوراثة عن اهل انقطعوا ، منذ وجودهم على الارض ، الى عبادة الله وتأدية الطقوس الدينية وإقامة المظاهر التعبدية ، لانهم ولوا تلك الاعمال من دون الناس قبل الاسلام بمدى بعيد ، فضاعف وجود القابلية وتيسر الاستعداد أثر التربية البيتية فتمرس الحسن بعقائد اهله واحتبى بانسانية رفيعة وتقمص بمجد سابق وكان خليقاً بأن يحفظ دين الله بعد جده وابيه ، كيف لا وقد خلعت عليه عنايتهما به رداء يطوي جميع مكنونات نفسيهما الزكيتين فاصبح ذا شخصية فذة في عالم الاطفال ، نبيلا أبياً ، قوياً في مؤهلاته وجسده .

فاذا لاحظنا ما رافق طفولته من عوامل ومؤثرات نتمكن من تفسير كل ما أتاه في مختلف ادوار حياته للماسة الشديدة بينه وبين تلك العوامل والمؤثرات ، وللتفاعل العملي الذي رافق مماستها معه . وسنرى ذلك مع الشواهد التي سمحت لنا بأن نلصق به هذه الصفات ، عند ما نأتي على الفترات التي قضاها مع جده وأمه وأبيه والخلفاء الراشدين ، وعند ما ندرس احواله مع الذين تعادمت حياته بهم فيما بعد .

وكأن بعض حفدة جده ابي طالب قد نطق بلسانه حين قال :

إنا وان أحسابنا كرمت لسنا على الاحساب نتكل
نبني كما كانت اوائلنا تبني ، ونفعل مثلما فعلوا

- ٢ -

قد جاء في الحديث المرفوع : من كان له صبي فليستصب له ..

ذاك ان ملاعبة الصغير تفيده بجانب البهجة وبما تهذب من طباعه وتقوّم من ميوله ، وبما ترهف من حسه وتحدّث من خلقه . وهي تسلية يقصد منها تأليف الفرد وتقريبه من حياة جسمية وعقلية سليمة ، ويراد منها إعداده لقوى ذهنية يتسع فيها التعليل والاستنتاج بشكل يؤهله ، تدريجاً ، للاندماج في جسم المجتمع اندماجاً فيه تطبّع مستقيم ..

وقد تصفحنا كتب التاريخ ، والسير ، وتتبعنا الاحاديث المعبرة عن عواطف النبي الجمة التي كان يفيضها على سبطيه في كل مناسبة ، فوجدناها عواطف تثير الدهشة لوفرتها وفرط هيجانها .. فرسول الله الذي طهر القلوب من الادران ، وجلا النفوس من الغل ، وعمر الارواح بالايمان ، ورفع الاعراب من رق الهوى وظلمة الجهل الى نور المعرفة ، والذي استهدفت مبادئه قلب نظم العالم والوقوف في وجه الجبابرة والطغاة ، كان يحمل سبطيه على ظهره وتفتر شفتاه عن قول له صدى خالد :

نعم الجمل جملكما ، ونعم الراكبان انتما !.. دون أن يرى

مغبة في هذا التصريح امام الجمهرة من اصحابه ..

لقد قالها امام اصحابه ، وهو ينتظر لهما مستقبلا مرموقاً . لذا كان يومي الى نشر فضلهما ويتعمد التنويه بذكرهما مع قلق لمصيرهما ! . فقد كانت تنتابه الخواطر احياناً ، وينكشف له المستقبل بضجيجه وعجيجه اذا ما خلا بنفسه او انصرف عن مشاكل الحياة وشواغلها ، فيتطلع في سجل الوجود ببصيرته النفاذة فيزول الستر امام الفكر الثاقب والحدس القوي ، ومن ثم تعترض ناظريه المداوات المضطرمة والاحقادالمصطرعة فيتصور جلبة من يقف لهما بالمرصاد ، فيرف قلبه رفيفاً رفيقاً فيه رحمة وفيه حنان ،لانه يطلع على الغدر الذي يحمله المستقبل البعيد . ثم ينظر اليهما وتغرورق عيناه بالدموع اذ يرى الحق في شخصيهما لا يطاع ، والباطل في شخص عدوهما لا يعصى ، فيشيح ببصره لفرط ما يجيش بخاطره ، ويلتفت الى جلسائه متنفساً الصعداء ويقول عانياً الحسن : ابني هذا سيد ، ويصلح الله به بين فئتين عظيمتين من المسلمين .. ثم يحتضنه مشفقاً ، وهو بضعة منه ، ليطفيء حرقة وليبرد غلة ، ويحتويه بين ذراعيه ويتخيله في موقفه الرهيب امام العدوان بعد نيف وثلاثين سنة يصرّف القضايا بتعقل ورزانة مصعراً وجهه عن الدنيا ومغرياتها ومختاراً صلاح ذات البين ليدفع الله به سخطه عن الأمة الناشئة ، فتصدق من ثم نبوءة جده ويصلح الله به بين فرقتين كبيرتين من المسلمين . نعم انه يحتويه بشدة ويقول بعد ان يبرد أوام نفسه : انكم لمن روح الله!.

وانكم لتبجلون وتحببون ! . ويجيل طرفيه بعلي وبفاطمة وبه وبأخيه فتترقرق دمعتان على وجنتيه يذهل لشاهدتهما أبو الحسن ويقول : ما يبكيك يا رسول الله ؟ ! فيجيبه بصوت متهدج : أبكي من ضربتك على القرن ومن .. ومن طعنة الحسن في الفخذ، والسم الذي يسقى ، وقتل الحسين ! . ويكون مشهد رهيب ، وجلسة صارخة تغص فيها الاسرة بالبكاء ، والنبي مستغرق مع مغيبات يقطعها علي بقوله : يا رسول الله ، ما خلقنا ربنا الا للبلاء ؟ . ثم يسكتون .. ويطفح وجه النبي بالبشر ويجلله نور الرسالة والوحي ، ويتوّجه الايمان بهالته القدسية المتلألئة فيجيب : أبشر يا علي ، فان الله تعالى قد عهد اليّ انه لا يحبك الا مؤمن ولا يبغضك الا منافق ..

وكيف لا تغمر الدموع موقيه وهو ينتظر مستقبلاً غاشماً يفتك بآله الذين كان يجمعهم ويجعل عليهم خميصة سوداء ويقول : هؤلاء هم اهل بيتي ، أللهم اليك لا الى النار ؟ .

ومن آله ، بل من هم عترته وأهل بيته يا ترى ؟

لقد اجاب هو نفسه على هذا السؤال وفسر عترته بالحسن والحسين وأبيهما وأمهما وزاد قائلاً : لكل بني أم عصبة ينتمون اليهم الا ابني فاطمة فانا وليهما وعصبتهما .. فهما ابناه بشاهد مماثل من نص القرآن الكريم اذ جاء في بعض آياته المحكمات : ومن ذريته (اي آدم) داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى . الى قوله : وزكريا ويحيى وعيسى . فأخبر ان عيسى من ذرية

آدم بأمه فقط. أفلا يتضح انهما ابناه ومن ذريته بابنته الزهراء؟.
وقد كان يقول فيهما وبأبويهما : اللهم أذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً . ويخاطبهم فيقول : أنا حرب لمن حاربتم ، وسلم لمن سالمتم . ويبتهل قائلا : اللهم أحب من أحبهم ، وأبغض من أبغضهم ، ووالِ من والاهم ، وعادِ من عاداهم ، وأعن من أعانهم ، ، واجعلهم مطهرين من كل دنس ، معصومين من كل ذنب ، وأيدهم بروح القدس منك ..

ويحق لمحمد ان يتأثر بما يعرفه عن الطوايا والنوايا نحو آله فيبكيهم احياء ، لانه بصفاء نفسه ، قد انكشف له الغطاء عن امور صدّقها الوحي فأجاز لنفسه أن يبكي وقد اقبل عليه الحسن ، وان يقول : اليّ اليّ يا بني .. ثم يدنيه ويجلسه على فخذه ويعدد ما ينزل بآله من البلاء والتقتيل والتشريد والتنكيل، فيذكرهم واحداً واحداً الى ان يقول : وأما الحسن فانه ابني وولدي ومني وقرة عيني وضياء قلبي وثمرة فؤادي ، وهو سيد شباب اهل الجنة ، وحجة الله على الأمة . أمره أمري وقوله قولي، فمن تبعه فانه مني ، ومن عصاه فليس مني ! . واني لما نظرت اليه تذكرت ما يجري عليه من الذل بعدي فلا يزال الامر به حتى يقتل بالسم ظلماً وعدواناً ! . فعند ذلك تبكي الملائكة والسبع الشداد لموته ، ويبكيه كل شيء حتى الطير في كبد السماء والحيتان في جوف الماء . فمن بكاه لم تعمَ عينه يوم تعمى العيون ، ومن حزن عليه لم يحزن قلبه يوم تحزن القلوب ، ومن زاره في

بقيعه ثبتت قدمه على الصراط يوم تزل فيه الاقدام ... ثم يرفعه على عاتقه ويبعثها صرخة تتردد على الزمن : ان فاطمة سيدة نساء اهل الجنـة ، والحسن والحسين ريحانتاي من الدنيا وهما سيدا شباب أهل الجنة ..

هذا قليـل من كثير من الاقوال التي سمعها كل من شملته عناية الله وناله لطفه بمجالسة النبي من الصحابة ، فقد أحسوا جميعاً بتعطفه على اهل بيته ، لانه كان يذكرهم جميعاً وافراداً ، وينشر ذكرهم ويذيـع فضلهم ، بل لقد شعر اصحابه بأن ذكرهم يدخل على نفسه الغبطـة ، فسأله بعض الجلساء يوماً : أي اهلك أحب اليك ؟ . فاجابه : الحسن والحسين . من احبني واحبهما واباهما وأمهما كان معي في الجنة .. وقال مرة لواحد : أدعُ ابني . فأتي له بالحسن وهو يشتد حتى وقع في حجره فاحتضنه شغفاً وفتح فمه فأدخل فمه فيه وقال : اللهم اني احبـه فأحبه وأحب من يحبه ، وليبلغ الشاهـد الغائب . وعلق رجل على هذا الحديث بقوله : لولا كرامة رسول الله ما حدثت به احـداً . وعقب عليه آخر قائلاً : ما رأيت الحسن الا فاضت عيني ! .

ودخل رسول الله يوماً الى دار فاطمـة وناداه ثلاثاً فلم يجبه احد ، فانصرف الى فناء فقعد في جماعة من اصحابه . ثم جاء الحسن ووثب في حبوة جده فالتزمه جده والتزم هو جده لتلتقي الروحان وتتماثلا ثم قبله في فيـه ! . فلله كيف يمتص شفتيه الطريتين ليسبل عليهما من روحه ستراً ، وليهز مشاعره هزة ايمان بعد ان

يمكث مطمئناً راضياً يستمع الى جده وهو يقول لمن في حضرته : الحسن مني والحسين من علي ..

نعم انه مني بمعنى الشبه في الخلق والخلق وحسن السمت والهدي ، والحسين من علي لشبه له فيه بالخلق والخلق والشجاعة في وجه اهل الكيد والمكر السيء .. ! انه منه ، ولم يزل يذكي فيه روح الايمان بالله ، وينمي فيه استعداده لحماية الدعوة ، ويغذوه من علمه حتى تهيمن عليه روح مبادئه ، ويشيع روح النبوة في نفسه فتصبح صدى لنفس جده اذ ان وظيفته كوصي ستكون امتداداً لرسالة جده كنبي . ولا يقف ولعه به عند حد ، فينزله وأخاه منزلته من نفسه اذ يقول : من احب الحسن والحسين فقد أحبني ، ومن أبغضهما فقد أبغضني ! . فيعرف السبط مكانته من نفس جده فلا تقعده هيبته عن التدلل والانطلاق معه . فقد يجيء اليه وهو ساجد فيعلو ظهره فما ينزله حتى يكون هو الذي ينزل ! . وقد يفرج له بين رجليه اذا ركع ليدخل ويخرج من الجانب الآخر ، واذا هوى وثب على عاتقه فان ارادوا ان يمنعوه أشار اليهم ألا يمنعوه ! ! !

وقد شاهده انصاري يقبله ويضمه ويشمه فقال : ان لي ابناً ما قبلته قط . فقال رسول الله : أرأيت ان كان الله نزع الرحمة من قلبك ، فما ذنبي ؟ ! الحسن والحسين ابناي ، من احبهما احبني ، ومن احبني احبه الله ، ومن احبه الله أدخله الجنة ، ومن ابغضهما ابغضني ومن ابغضني ابغضه الله ، ومن أبغضه الله ادخله النار ! . ثم

اخذهما على عاتقه هذا على اليمين وذاك على الشمال يقبلهما تباعاً بشغف ليعطي امثولة كنّسة في الرحمة والحنان لذلك الانصاري القاسي .

هذه بوادر تعطي صورة ناطقة عن مدى تعلقه صلى الله عليه وعلى آله ، بولديه ، وتدل على ان حبه لهما لا يخضع للتقدير . وهذه تصاريح تبرهن على ان تربيته لهما على هذا النحو من الحرية والانطلاق كانت وفق أحدث اساليب التربية الحرة ووسائلها الناجعة ..

فهو في تسليته للحسن ، يزقه العلم ، ويزينه بالخلق السمح ، فيعل من المنهل العذب الى ان يراهق الثامنة من عمره (١) ، فيبلغ درجة الكمال وهو دون الحلم . وتصفو نفسه ، وتنقى سريرته ، وتطهر ذاته فيصل بالله تعالى قلبه بعد ان صاغ منه جده ذاتاً قدسية وانسانية رفيعة تخولان رسول الله ان يقول براحة ضمير : من سره ان ينظر الى سيد شباب اهل الجنة فلينظر الى الحسن ..

واذا نحن ادركنا ان النبي لا يرمي الكلام على عواهنه ، وانه لا يلهو ولا يعبث ولا يسترسل مع رغباته ، وفهمنا انه بايع سبطه وهو دون الحلم ، نعلم جيداً مقدار ما كان في ذلك السبط من مؤهلات للصلاح والحق والخير المطلق .. من اجل ذلك

---

(١) لحق النبي بالرفيق الاعلى في ربيع الاول سنة ١١ للهجرة . وكان الحسن قد ولد في منتصف شهر رمضان سنة ٣ للهجرة . فيكون عمره يوم وفاة جده سبع سنوات ونصف .

ما فتيء النبي ينشر فضيلة حفيده فوق منبره العتيد الذي تألق منه سناء الرسالة وانبعثت عنه مبادئها .. فاهل البيت بما هم، وكما هم ، جزء من الرسالة منسيّ لم ينس النبي تدعيمه بل دأب على تركيزه بشتى الوسائل .. فتصوره فوق منبره الرفيع مغموراً بفيض بيانه وسحر قرآنه ، يطلق لمدائه العنان ، ويرخي لبلاغته الزمام ، ويزود الناس بالفرقان ويبين لهم معجز الآيات ، ثم ينظر الحسن والحسين يمشيان ويتعثران بثوبيهما وهما يتخطيان الناس اليه ، فينحدر ويحملهما على وركيه ويقول : صدق الله ورسوله ، انما اموالكم واولادكم فتنة . نظرت الى هذين الصبيين يمشيان ويعثران فلم اصبر حتى قطعت حديثي ورفعتهما ..

فهل نتخيل بعد هذا المشهد جداً يغدق على حفدائه مثل هذا النوع من المحبة ؟ ! ان الحرف ليضيق بالتعبير ، والقلم ليعجز عن شرح هذا النوع من الهيام ، والاداة تقصر عن تصوير ذلك على القرطاس بما في الحرف من سعة وما في الاداة من مدى وما في اليراع من قوة ! ! ! اما نحن فلن نصل الى معرفة ذلك وتحديده بالضبط الا بالتخيل الذي لا تترجمه اللغة ولا يحتويه الحرف ! .

فتربية النبي لولديه ذات طرائق خاصة . اذ له افتنان في اعطاء الحقائق لدى المرح ، وفي بث التعاليم لدى ملاعبة الطفل ، وفي تلقين المبادىء لدى التسلية والتحرر من قسر الطاعة وهيبة النبوة ! .

لقد كان يسابق بينهما مرة فسبق الحسن اخاه وعاد مسرعاً

حتى ارتمى في حجره ، فأخذه وقبله قبلة فيها حنان وتقدير يخالطهما حذر ومرارة ، ثم اجلسه على ركبته اليمنى . وفعل ذلك مع اخيه واجلسه على اليسرى . وسئل حينئذ : يا رسول الله أيهما أحب اليك ؟ فاجاب : اقول كما قال ابونا ابرهيم وقد قيل له : أي ابنيك أحب اليك فقال اكبرهما . وهو يلد ابني محمداً .

وكان يشهد مصطرعاً لهما ويبتسم ويتمتم : ايه حسن ! ايه حسين ! مشجعاً كلاً منهما على الآخر ، وفاطمة تشهد ذلك وقلبها يرقصه السرور ، فتطلب الى ابيها ان لا يستنهض الكبير على الصغير رغم غبطتها بمشهد راق لابيها ولفلذتي كبدها ، لانها كانت تبتسم بمرارة وبحذر كأبيها الذي لقنها وبعلها كل ما يجري على الطفلين في مستقبل عمرهما ! .

وكان يصطحبهما في بعض اسفاره القريبة ويردفهما على بغلته من قدامه ومن خلفه لئلا يشتاق اليهما او لئلا يشتاقا اليه فلا يجدهما ولا يجدانه .. وكان يشيد بذكرهما في كل مناسبة ويظهر كرامتهما اعلاناً او تنويهاً . فقد اخذهما معه يوم المباهلة واخذ أباهما وامهما فظهر من ساطع برهانهم ، جميعاً ، ما ذعر الحضور وأذهل الاساقفة الذين هرعوا بعد ان استطير بهم روعاً وهلعاً ، وطلبوا من النبي ان يقيلهم ويعفيهم ورفضوا كل مباهلة ولعان ! .

ولنفسح المجال لابي هريرة ليدلي ببعض ما عنده فيقول ، وقد التقى بالحسن بعد وفاة جده : أرني أقبل منك حيث رأيت رسول الله يقبل . ثم قبل سرته . فقد كان النبي يفعل ذلك على

دعوى ابي هريرة وكان ينيم الحسن على عضده ويرقصه ويداعبه ويناغيه . مما دفع ابا هريرة الى القول : سمعت اذناي هاتان ، وابصرت عيناي هاتان رسول الله ، والحسن آخذ بكفيه جميعاً وقدماه على قدم رسول الله وهو يقول له :

حزقة حزقة (١) ترقّ عين بقه

فيرقى الغلام حتى يضع قدميه على صدر جده فيقبله في فيه .

هذا ما كان يفعله معه ، فضلاً عما كان يسليه به من ألاعيب الاطفال وألهياتهم ، واساليب الصغار ومغرياتهم ، كأنْ يدلع له لسانه مثلاً فاذا رأى الصبي حمرته هش وضحك او ركض متدللاً امام جده الذي يقول بجذل : أعيذك بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامّة ومن كل عين لامة ! . وهو في ذلك كله يرقب حركاته وسكناته ليؤهله الى الاضطلاع بواجب خطير يواجهه يوماً ما .. وليصوغ منه شخصية تخوله ان يكون في حوادث عصره قطب الرحى ، وبخاصة عند ما يستحكم جشع الطامعين بالملك ويتحكم كيد الكائدين ، وتندرس معالم الاسلام التي لما تزل في طور النشوء والانتشار ! . فهو يعدّه لرتبة اختصه الله بها ، ويخشى عليه ، ان هو تركه ، رعونة الجاهلية ويخاف ان يتأثر بشيء قلّت فعاليته او كثرت .. لذا كان يطلعه على كل خافية ليعرف خطر مهمته وجلالها ..

وانه ليصعب تحديد النتيجة التي استخلصها من جده في حساب

---

(١) الحزقة : القصير الذي يقارب الخطو

الارقام ، لانه من العجب العجاب أن ينال من هو في سنه قسطاً كقسطه من المعرفة ، وان يستوعب ويعي ما استوعب ووعى ، لانه كثيراً ما كان يحدث فيقول : قال جدي او سمعت جدي يقول ! . وقد عرفنا مدة صحبته والنتائج التي انبثقت عنها والآثار التي ترتبت عليها. فهو يذكر - وهذا في طفولته الاولى - انه أخذ تمرة من تمر الصدقة فتركها في فمه ، فنزعها جده بلبابها لينبهه الى انها ليست من حقه .وقال : انها لا تحل لمحمد ولا لآل محمد. انها اوساخ الناس .. وليس معنى ذلك ان محمداً او آله من طبقة ارستقراطية تستنكف عن اوساخ الناس وتبيحها لعامة الشعب ، ولكنه مثل رائع ضربه النبي في اسرته الكريمة لأمته الكبيرة ليقرز الشعب من التسول ويدعوه الى العمل والأنفة عن قبول الاوساخ ...

وبالنهاية ، لقد كان للبيئة والوراثة ، ولطرق التربية أثر فعال في تكوين الحسن ، لانه كان ، هو ذاته ، نتيجة لهذه العوامل في حين انه حافظ على صفة نوعه وخواصها ..



٣

نفس دفاقة بالايمان ومغمورة بمظاهر السؤدد البعيد الاصول ، مطمئنة راضية .. هي نفس فاطمة عليها السلام .

وحياة تفيض بشراً وهناء في ظل عظيم بلغ الغاية من الرفعة ، تجللها الدعة مرة والقلق مرة اخرى .. هي حياة الزهراء .

فالبتول ، هـذه السيدة النبيلة ، التي لم تتجاوز اواسط العقد الثاني من عمرها ، ان تسبت فالى احمى عنصر ، وان تحدرت فمن أطهر صلب ، تعيش في اكرم بيت بعيـد عن الارجاس ، تشملها عناية رجل يهبها من وقتـه ما يكفل تربيتها كما يريد لها لا كما تريد البيئة الضالة ! .

انها قرة عين محمد وبضعته . تتطلع الى ما يجتاح الجزيرة بحذر ، وتلاحظ ما يدور حول رسالة ابيها وما يعتورها من مصاعب بيقظة ، فترى تمرد المتمردين وتعنت المتعنتين . ثم تختزن ذلك كله في حشا متأثر يتسع للاحساس . وبينما تكون نفسها ثملة بنشوة الدين الجديد ، او متألمة لما يلقاه حماته بسبيله ، مسلمة الى الله ، تجتـاز هي هذه المراحل فتترسب آثارها في اعماقهـا وتستقر متبلورة في حشاها الذي يحتفظ بالحسن جنيناً .. فتحمل في قرارة نفسها توأمين اثنين :

الجنين والأحاسيس ، فيتفاعلان بحكم الطبيعة ، وينصهران في بوتقة واحدة ، فيتأثر الجنين كما تتأثر الزجاجة في آلة التصوير ، وينمو منكمشاً على نفسه ، الى ان يخرج الى هذه الدنيا بعد وقعة بدر ، وفي نفسه كل ما في نفس أمه الجائشة لما يلقاه أبوها وبعلها والانصار من ألوان العنت وويلات الحرب الدائمة .. فهو اذن ، ينفعل بحكم طفولته الطرية ومرونة عقله ولين طباعه بصورة مستمرة ..

وقد كانت حياة الزهراء يكتنفها التأمل العميق لانها في تماس دائم مع حوادث تغير توجيهها من اللامبالاة والبشر الى التفكر والكمد ، ومن الغبطة والانشراح الى التبتل والتسليم ، فتضع وليدها على هذا الشكل وفي هذا الجو ، فاذا هو لا يقل عنها اتزاناً لما مازج تكوينه من حياة أمه ، فجاء مؤمناً وادعاً ، طلقاً قلقاً ، تتردد حالاته بين طرفي هذه الاضداد وفي مداها دون ان يتجاوز احدها .

.. وتبدأ بغرس التعاليم فيه لتجعله صافي النفس ، ولتصرفه بكليته الى السماء فينشأ مجبولاً على طبائعها ، فضلاً عما أوتيه من شبه بها في الخلق ، لانها – كما روي – صورة عن النبي ناطقة القسمات والملامح ، فيبدو مفطوراً على ما نسجته أمه وظروفه ومحيطه في نفسه .. فقد اخذت الأم بتلابيبه وما فترت عن رعايته وتوجيهه توجيهاً دينياً خلقياً ، بل اعطته جل وقتها – وهو الولد الاول – وعملت على ترقية عقله وتقوية جهاته المعنوية والفكرية .

ولا يتصور الولد الآله ، في مثل هذا العمر الا روحاً مجسدة ينسب اليها بعض الخوارق من القوة والجبروت فتخضع لها جميع النواميس مرغمة .. لذا اخذت فاطمة تهذب هذه الناحية الروحانية لتقوّم عقيدة ابنها وتبنيها بناء صحيحاً فتنشأ عنده عقيدة الوحدانية الحقة .

وقد يكثر عند الولد التشبه والاقتباس ، فيحدث التسلسل في العادات والتقاليد في الاسرة الواحدة . وتبعاً لهذه الحقيقة كان الحسن يتزود من صفات أمه بأفضلها ومن سماتها بارفعها عن عمد وعن غير عمد .. فالعيلة توجب ان يكرر الولد خواص سلالته غالباً ..

وقد كانت الأم ، في أويقات فراغها تسرّي الهم عن نفسها وترقص وتغني له :

يا بأبي شبه النبي ليس شبيها بعلي

وكان يرتع في ظلها ناعم البال ، اذ تسبل عليه من ايناسها ستراً ، وتشبعه ضماً ، وتوسعه رأفة ، وتضعه في مهده وتوقظه على اسم الله وذكر رسوله لتبني منه السيد الذي ينوّه به جده ، ولتحمله على ان يشعر دائماً بأن قدرة الله تسيطر عليه ، ولتلجئه الى ان يتولى ذلك الله وينقطع اليه انقطاعاً كلياً .

والتربية الاجتماعية الحقة تبدأ في عهد الأمومة ، اذ يمارس الولد فيها المحبة والطاعة والمحافظة على الواجبات والحقوق ، ويفهم تفاوت الدرجات بين افراد الجنس ، ويغتذي بالمبادىء الاولية

للعقيدة . لذا كانت الزهراء تعنى به كثيراً لانها تخاف عليه من مستقبل جائر يصفه جده ، وجده لا ينطق عن الهوى ! .

وكانت تعلق به وبأخيه الى حد تضطرب معه اذا ما فارقاها أو انصرفا عن البيت الى غير جدهما او ابيهما .. فهي تلازمهما لتنشيء فيهما المعرفة والآداب ولتحليهما بالعادات الحسنة . فقد أقبلت مرة على ابيها وهي تبكي . فقال لها : ما يبكيك يا فاطمة ؟ فأجابت : أبتاه : ان الحسن والحسين قد غابا عني هذا اليوم ،وقد طلبتهما في بيوتك فلم اجدهما ،ولا ادري اين هما . وان علياً ذهب الى الدالية منذخمسة ايام يسقي بستاناً له . فأحصي على النبي انه انفذ سبعين رجلاً بطلبهما ، فيهم ابو بكر وعمر وسلمان وابو ذر وغيرهم.

وبالحقيقة ان النوع لا يستمر لولا الحب الأمومي المغروس في طبيعة المرأة ، لانها تحس ان الولد قد فاض عنها وكان جزءاً منها، فترعاه وتحافظ عليه وتمنحه قسطاً وافراً من معارفها وتهبه كل وقتها لتنشئه انشاء صالحاً للاستمرار والبقاء .

فيا لقلب فاطمة الواجد ! بل يا لقلب محمد الساهر على حفيديه!. ويا للقلبين اللذين لا يسهوان عن فلذتي كبديهما ولا يدعانها عرضة لمظاهر الطبيعة المتقلبة ! .

ويا لايثار الأم ! . وما كل أم مؤثرة ، ولا كل أم راعية . اما الزهراء التي تحار بأمر ولديها عام العطش ، وتحملهما الى جدهما يتململان من الظمأ فمؤثرة وراعية ! . والنبي الذي يأخذ كلاً منهما ويعطيه لسانه ليلهو بامتصاصه ويرتوي من ريقه العذب — لتقر

عينا الام ويهدأ روعها بعد ان تراها قد هدآ وارتويا – هو مؤثر وراع غيور !.

فيا لعطفه ورأفته ؟. انه يمد لسانه لسبطيه ينهلان منه بقية من ريق ، ويمتصان من قلبه دفقة من ايمان ، والام تنظر كيف تزدوج الارواح ويتم التقاء نبي بوصي..

فالعيلة ، هذه الخلية الاجتماعية ، يتسلح الولد منها بوراثات بيولوجية واجتماعية ، قد يعدّلها نوعاً ما بعد استوائه ونضوج تفكيره وتعقله ، أو قد تتمكن الوراثات من نفسه فيتمرس بها وتصبح جزءاً متمماً لمظاهر حياته..

وعليه ، فان السبطين قد عاش فيهما محمد وعلي وفاطمة وسائر افراد الاسرة الهاشمية . وقد كانا عزيزين على الأم وعزيزين على الجد الى حد لا يفسره نطاق الكلمات والانشاء ، فقد جاء ابوسفيان ليزيد في المدة بعد وقعة الخندق واستجار بأبي بكر وبعمر وبعليّ ليجيروه عند رسول الله بالتمديد فردوه جميعاً..

واذ كان في دار علي رأى الحسن طفلاً تلاطفه أمه ففكر بأن يحرك في نفسها عوامل الحنان والفخر بولدها ، وحاول التوصل الى مأربه بهذه الوسيلة فقال : يا بنت محمد ، هل لك بان تجعلي بنيّك هذا سيد العرب الى آخر الدهر ؟ فقالت : وكيف يا أبا سفيان ؟ فاجاب: مُريه فيجير بين الناس .. انها دماء قريش يحقنها عليها ان أجار ، فمريه تذكرها له العرب . فقاطعته بحزم : لا يجير أحد على رسول الله .. فأوصد في وجهه السبيل الى قلب

محمد ما دام قد اوصد من جهة علي وفاطمة وطفليهما . فلو قد فعلت الزهراء لكان للحسن إجارة لها ما بعدها في التاريخ ! إجارة تسلم بها رؤوس من قريش وغيرها ، أطاحت بها السيوف ورفستها سنابك الخيل ..

●

ومضت السنوات الثماني ، والأم لم تشبع من ولديها ولما ترتو . ويشاء الله امراً ، فتبيت في شكوها الاخير ولا يهمها من الدنيا الا ولداها . وتزور عن كل شيء الا عن التفكير بالتي تأمنها عليهما بعد فراق الحياة الدنيا .. وتفكر .. ثم تقترح على أبيهما ، بشيء من الحزم ، بل بالحزم والجزم ، ان يتزوج بعدها من ابنة حمامة (او أمامة) لاعتقاد منها حسن بهذه المرأة المخلصة التي تهب ولديها كل قلبها وتعطيهما كل وقتها ..

ثم كان أمر ! . وكان لحوق البتول بأبيها فاجعة ثقيلة الوقع على الطفلين . لان عهدهما معها كان فترة من الزمن قصيرة ، ولكنها ، هي ، بله ذلك كله تمكنت ان تجعل الحسن ، كما جعلت اخاه ، طفلاً مهذباً ، متمرساً بفكرة الله والدين ، كيف لا وقد ربيا ونشآ في ظل رجلين وامرأة : هم اعظم من أظلت السماء واشرف من أقلت الغبراء ؟ ! .

وقد تمكنت من ذلك ، اذ تجاوبت في نفسه المرنة أصداء التعاليم ، واستجابت لها ، فصقلتها وجعلتها **مثالا** ناطقاً عن الثلاثة ،

يؤيد ذلك كل حركة قام بها بعد مراهقته لانه كان عيناً ناظرة تلتقط الصور ، وأذناً واعيـة ترجّع الاصوات ، وقلباً باصراً يتلقى الانطباعات .. بـل كان ، بمجموعه ، جوارح حساسة تأثرت بما شحنوها جميعاً من الوصايا القيمة ، حتى اذا جاء يوم العرض كان الحسن شريطاً يعطي عنهم صوراً صادقة لا تقبل التوهم ولا ترتضي ختل الظنون ..

وقد قال بمناسبة : رأيت امي فاطمة قامت في محرابها ليلة جمعتها فلم تزل راكعة ساجدة حتى انفتح عمود الصبح ، وسمعتها تدعو للمؤمنـين والمؤمنات وتسميهم وتكثر الدعاء لهم ولا تدعو لنفسها بشيء. فقلت لها يا أماه ،ألا تدعين لنفسك كما تدعين لغيرك؟ فقالت : يا بني الجار ثم الدار .

على مثل هذا المشهد كانت تتفتـح عينا الطفل للنور ، وعلى مثل هذه الغيرية كان يُنشّأ، وبهذه القواعد السليمة كان يزق ! . وسنرى تأويل ذلك كله في سلسلة حركاته ،منذ ان فارق امه الى ان فارق دنياه ..

ولم يكن هذا التوجيه الوحيد من نوعه ، بـل كانت تفتنّ لتكوّن شخصية الولد الفذة ، حتى بسقت في عهدها دوحة الحسن الفكرية واستتم نموها وظهر ثمرها عاجلاً .. وذلك يوم كان طفلاً يرود الطريق بـين البيت والمسجد ليسمع الوحي وينقله الى أمه حرفاً حرفاً ، وهو من هو في حداثته وصغر سنه .

●

دخل عليهما رسول الله مرة فقالت له يا أبه ، ان لنا ثلاثاً ما طعمنا طعاماً ، وان الحسن والحسين قد اضطربا عليّ من شدة الجوع ثم رقدا كأنهما فرخان ! . فايقظهما النبي وأجلسهما على فخذيه وحمل امهما بين يديه وعلياً بجانبيهما واعتنقهم جميعاً ورفع رأسه نحو السماء وقال: هؤلاء أهل بيتي . ألهم أذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً .. فطابت النفوس لهذا الدعاء ، وأحست ببرده وسلامه .. وانحدرت دموع التسليم على الوجوه النضيرة .. ولامست بركة الجد الولدين فأحسا بلطف خفي يروض نفسيهما ويروّح قلبيهما ، فنظرا الى ثلاثة من حولهما وقد عمر قلوبهم الايمان فانطلق من وجوههم نور شكّل هالة متلألئة ، فارتعشا للمنظر المدهش واهتزا له ، ثم قرّا وسكنا .. وخيمت عليهم جميعاً الرحمة فوجموا وجوم التهيب والهلع من رب عظيم يخاطبه نبي كريم .

ونظر الحسن بعين بصيرته — وعلى قدر امكانياته — فرأى نفوساً نقية من كل شرك ، مطهرة من كل دنس ، ففرق كما فرقت وهدأ كما هدأت ، وأسلم وبايع جده وعاهد الله على ذلك في تلك الخلوة الرائعة ..

وراح هذا المشهد مع من راح .. وبقي الحسن يميزه من جميع

مفارقاته . لانه ، وان فارق الجد والام وهو في الثامنة من عمره ، فقد كان في مرتبة من التعقل والتفهم لا يشاركه فيها كثيرون من ابناء هذه السن ، اذ اكتملت فيه جميع عناصر الاستعداد الصحيح ومقومات الفكر الراجح . كيف لا وخصوصيته في التفوق قد نتجت بفعل الوراثة وتأثير التربية وبتفاعلات الائتلاف الاجتماعي . وقد كان تأثره يقاس بقوة شخصية مربيه وبمقدار ما كان فيه من قابلية واستجابة . وقد فهم بحدسه الخطر الذي سيواجهه بعدهم ، وعلم الى اي مركز كانوا قد هيأوه ! .

وخرج مرة وعاد .. فوجد أمه قد فارقت الحياة ! فوقع عليها يقبلها ويبكي ..

.. وما هي الا لحظات ، حتى رأى نفسه قد ذهب في من ذهب يشيع الشخصية الثانية التي عملت على تخريجه الى الحياة ، ويودعها مقرها الاخير ، ويطوي صفحة ثانية من الصفحات على شيء غال وغال ، بل عزيز جداً ! ..

وكأني به وعى اباه حينئذ يقول :

لكل اجتماع من خليلين فرقة　　وكل الذي دون الفراق قليل
وان افتقادي فاطماً بعد أحمد　　دليل على ان لا يدوم خليل

وعاد من هذا التشييع يتيماً من جده وأمه ، محروماً الا من رحمة ربه ، واجداً فاقداً مهدداً بذل اليتم لولا تلطف الاب بنضارة عوده وطراوة نفسه ..

ورجـع .. ليستظل بيتاً ليس فيه جد رحيم ولا أم رؤوم ، ولينطوي على نفسه ويكظم من غيظه ! ولكن أباه لم يجعل لليأس الى قلبـه سبيلا ، بل احتوشه بكلتا يديه وانتشله من ذل المصيبة واليتم ..

●

٤

●

يا أبا الحسين ! .

ما أسمى هذا الخلق وأرفع هذا التهذيب ! .

فالحسن طفل .. ويخجل ان يقول لابيـه : يا أبي ، بحضرة جده . فيدعو جـده : يا أبي ، وينادي اباه : يا أبا الحسين ، تأدباً مع هـذا وتهيباً لذاك ! . وقد بقي على هذا الى ان فارق المربي الاول والتجأ الى كنف ابيـه الذي انصرف الى إتمام المنهج ، واستمر في توجيهه الى ان ابتعد عن الثلاثين من عمره (١) ، وظل يكمل فيه شخصية إمام يسع الانسانية براً ويعمر الارض قسطاً.

(١) توفي ابوه سنة اربعين . فيكون قد رافقه ٣٧ سنة

بل دأب على تثقيفه وتهيئته لحل مشاكل متأزمة كان ينتظر انبثاقها فيتعذر تلافي نتائجها المرذولة على غير من تمرس بالحكمة ، كيف لا وهو يرى حوله اوضاعاً مزعزعة ونفوساً خارجة عن امر ربها وسيدها ، واحقاداً مستعرة ، ويخشى ان يكون بطل الرواية المنتظرة غيره ، فيعمد الى إعداد الحسنين لتمثيل الدور اللائق اذا ما جاء يوم الناس المقبوح ؟. فهو يعظ ، ويوصي ويجهد ليجعلهما خليفتي أمة لما تزل في بداءة عهدها التقدمي . ولذلك اخذهما اليه وراح ينصح الحسن اذا حضر ويكتب له اذا غاب فيحقّر له الدنيا ويعظم له الآخرة ، ويتعهد في نفسه العقيدة دون ان ينسى مرافقة نمو مداركه ، وتقوية ملكة التبصر فيه ليجعله صمداً منيعاً .. الى ان اخذت معاني السمو بالاكتمال في الغلام ، وتلاقت في نفسه انواع الارشادات فاختمرت وقذفت به نحو النضج شوطاً بعيداً . فصرنا نرى له **الرأي الشخصي** ، والقوة الذاتية التي تخوله ان يتكلم في مجلس الخليفة الثالث يوم حد الوليد بن عقبة الفاسق ، وتجيز له ان يقول لأبيه وقد امره باقامة الحد وتنفيذ الحكم : ما لك ولهذا ؟ ..

لقد قالها لابيه وهو يعني ما يقول ويعلم ما تعني .. قالها بعد محاكمة ذهنية ، وبعد وزنها بميزان العقل الراجح ، وامتنع فعلاً عن إقامة الحد ، لمعرفته بمكان الوالي الفاسق من قلب الخليفة .

ها انه يماشي سنن التطور . فله رأي تدعمه الحجة الدامغة ، يدعو والده الى القعود عن الحرب او يحفزه اذا ما قعد عنها .

وهو في هذا وذاك فذّ له اجتهاد صائب عليه برهان ودليل . فمن ذلك انه رافق اباه الى الجمل ، واذ هما في الربذة اعتملت في نفسه فكرٌ مختلفة فضاربها ووازنها ثم استنتج .. وقال لابيه اثناء احتدام الجدل : ستقتل بضيعة لا ناصر لك ! . فاجابه والده بشيء من الأناة والرفق : انك لا تزال تحن عليّ حنين الجارية . وما الذي رأيته واستصوبته ؟ . فيندفع الحسن الى تفنيد رأي تبنّاه ويقول : لقد رأيت لك يوم أحيط بعثمان ان تخرج من المدينة فيقتل ولست بها . ثم رأيت لك يوم قتله ان لا تبايع حتى تأتيك وفود العرب وبيعة أهل كل مصر ، فانهم لن يقطعوا امراً دونك ، فأبيت عليّ ، ورأيت لك حين خرجت هذه المرأة وهذان الرجلان ان تجلس في بيتك حتى يصطلحوا ، فان كان الفساد كان على يد غيرك ، فلم تقتنع مني بذلك كله ..

وضاق صدر الوالد بقوة كلام ابنه الذي اضطره الى البوح : أي بُني ! اما قولك : لو خرجت من المدينة حين أحيط بعثمان ، فوالله لقد أحيط بنا كما أحيط به واما قولك لا تبايع حتى يبايع اهل الامصار فان الامر أمر اهل المدينة ، وكرهنا ان يضيع هذا الامر .. ولقد مات رسول الله وما ارى احداً أحق بهذا الامر مني ، فبايع الناس أبا بكر فبايعته . ثم توفي وما ارى احداً أحق بهذا الامر مني فبايع الناس عمر فبايعته . ثم توفي وما ارى احداً أحق بهذا الامر مني ، فجعلني سهماً من ستة اسهم ! . فبايع الناس عثمان فبايعته .. ثم سار الناس الى عثمان فقتلوه وبايعوني طائعين

غير مكرهين . واما قولك ان أجلس في بيتي حين خرج طلحة والزبير ، فكيف لي بما قد لزمني ! ؟

وبتداعي الافكار مرّ في ذهن الوالد ما كان يواكب تلك الاحداث ، فأكمل غاضباً : أو من تريدني ؟ أتريدني ان اكون كالضبع التي يحاط بها ويقال : ليست ها هنا حتى تحل عرقوباها ؟! واذا لم انظر في ما يلزمني من هذا الامر ويعنيني فمن ينظر فيه ؟ فكفّ عني يا بنيّ » .

وقد اصبح الابن يناقش الاب حساب كل شيء ويحاجه ليقف على حقيقة البواعث التي تلزمه بجميع حركاته . ولكن مسألة تمسّك الاب برأيه في مقابل رأي ابنه راجعة الى سبب فسيولوجي تفسره قساوة الدماغ وقلة فعل المؤثرات العاطفية فيه ، وسبب عقلي ، يفسره رفض الكبير مناقشة الصغير في امر مارسه واختبره .

وقد قال له يوم النهروان يا أمير المؤمنين ، أكان رسول الله تقدم اليك في امر هؤلاء بشيء ؟ فاجابه : ان رسول الله أمرني بكل حق ، ومن الحق ان اقاتل الناكثين والقاسطين والمارقين .

فها نحن نرى الرأي ونرى الرد ، ونحس الحق بجانب الرأي ، ونلمس الحق بجانب الرد فما نملك التمييز .. وما ذلك الا لقوة تشيع في قلبين كبيرين ، وحقيقة تشع من دماغين أوتيا من العلم نزراً غير يسير .. فإخال أياً كان – وقد فرغ من المحاجّة وخلص الى الرأيين – لا يستجيز لنفسه الا ان يقول : الحق مع هذا ،

والحق مع ذاك ! فليت شعري أية رجاحة صار يتمتع بها الحسن الشاب ! بل أية ثقة بالغة بوليه اياها من يقول : الحسن مصيب وابوه مصيب ؟!

وكيف لا يكون كذلك وأبوه دائب على تنسيق افكاره وتهذيب اخلاقه وتركيز كافة معلوماته ؟ فهو يوصيه دائماً ، ويطلعه على ما طوى صدره من العلم الثرار ، فمن ذلك قوله له : يا بني ، احفظ عني اربعاً واربعاً لا يضرك ما عملت معهن : ان اغنى الغنى العقل واكبر الفقر الحمق ، وأوحش الوحشة العجب واكرم الحسب حسن الخلق . يا بني اياك ومصادقة الاحمق فانه يريد ان ينفعك فيضرك ، واياك ومصادقة البخيل فانه يقعد عنك أحوج ما تكون اليه ، واياك ومصادقة الفاجر فانه يبيعك بالتافه ، واياك ومصادقة الكذاب فانه كالسراب يقرب عليك البعيد ويبعد عليك القريب ..

فعليٌ دائم السهر على ولده يشرح له بفصاحته المعهودة ، ويزوده من معارفه بما لا تسع عرضه هذه العجالة ..

لقد كان معه في الجمل ، آخر ربيع الثاني عام ست وثلاثين ، في ميمنة الجيش واخوه في الميسرة ، والراية بيد الاخ الثالث ، محمد بن الحنفية . وكان الوالد يقذف بمحمد ويكف الحسن والحسين ، فقيل لمحمد : لمَ يغرر بك ابوك في الحرب ولا يغرر بأخويك ؟ فأجاب : انهما عيناه وانا يمينه ، فهو يدفع عن عينيه بيمينه ..

فهو من اركان الحرب عند ابيه ومن امراء جيشه . وهو منه

ساعدٌ قوي ومعوانٌ عظيم . فأبو تراب يزحف واولاده من حوله يشدون أزره ويسندون ظهره ، وكلهم ليث قاصم الضربة ..

وقد اكتشف الامير ان ابنه شاب يحمل سداد الكهل وعقل الشيخ فوقف يشاكيه وقد وقعت الواقعة ويقول : يا بني ، ليت أباك مات قبل هـذا اليوم بعشرين عاماً ! . وهو من وراء ذلك يستنطق ابنه ليعرف مبلغ نضجه ، ونصيب آرائه من المتانة ، فيرد الحسن ببداهة : يا أبت لقد كنت اكره هذا .. ثم يحولان النظر الى الجزرة . ويقلبان الطرف بينها وبين ماسبقها ويلحقها فتنحدر من عيني علي دمعة لاهبة ، ويحتضن ولده ويقول : أي خير يرجى بعد هذا ! ؟ تلك كلمة تطوي اشياء واشياء وترمي الى هنات وهنات! فهمها السامع كما فهمها القائل ، مع جميع ملابساتها .. فالحسن شريك والده (وسنه كفيلة بذلك لانه في العقد الرابع) ، يدعو ويثبط ، وينقض ويبرم ، وكعبه على كعبه الى الجمل فصفين فالخوارج فالنهروان ، لانه موضع ثقة الوالد .

وقد بعثه قبل الوقائع الى العراق ، يستنفر الناس ، على رأس وفد فيـه عبدالله بن عباس وعمار بن ياسر وقيس بن سعد بعد ان سبقته وفود وتلته وفود فيها زيد بن صوحان ومحمـد بن جعفر بن ابي طالب ومحمـد بن ابي بكر وهاشم بن عتبـه وغيرهم ، فقصدوا الكوفة — وفيهـا ابو موسى الاشعري ، الوالي من قبل علي — لحث الناس على ملاقاة الامام .

والعادة تقضي بأن لا يرسل في هـذه المناسبات الا الشجاع

الفطن القوي الحجة الاستصراخ ، او الذي يتمتع بقسط وافر من المعـاني التي تخضع المتهوسين والمهوشين وتجلب المتحمسين ، وتقنع اهل الفكر لتكتل منهم جميعاً قوة محكمة الاواصر .

وكان الحسن يحمل كتاب الامام الذي رسم فيـه قصة مقتل عثمان ، ودور كل من دعاة الانتقام فيـه ، ونقل به الى أذعانهم صورة حقيقية لأمر الخليفة المقتول جعلت السامع كالمعاين . فهدأت عند تلاوته خواطرهم ، ووسعهم تبين السبيل الذي يجدر بهم ان يلتزموه .

واذ وصلوا خرج ابو موسى فقال له الحسن ، وكان قـد سمع عنـه شيئاً : لم َثبط الناس عنا ؟ فوالله ما اردنا الا الاصلاح . ولا مثل أمير المؤمنين يخاف على شيء ! فيجيب المتباله الجبان : صدقت بأبي أنت وامي ولكن المستشار مؤتمن . سمعت رسول الله يقول : انها ستكون فتنة القاعد فيها خير من القائم والقائم خير من الماشي والماشي خـير من الراكب . وقد جعلنا الله اخواناً وحرم علينا دماءنا واموالنا ..

وابو موسى شيطان مريـد ، ظاهر الغل والشنآن ، مائق كما يبدو من اختراعاته السريعة لهذا الحديث وامثاله ..

لقد سمع عمار الحديث فتصدى لابي موسى وسبّه وقام فجذبه عن المنبر وقال : أيها الناس ، انما قال له وحده انت فيها قاعد خير منـك قائماً . ثم قام الحسن فخطبهم وألهبهم ، وحثهم وألّبهم ، وبذل جهيداه في الاستفزاز والتحكم بالعواطف ..

ومن الكتاب الذي حمله من أبيه الى الناس قوله :

اني خرجت مخرجي هذا إما ظالماً وإما مظلوماً وإما باغياً وإما مبغياً عليّ ، فأنشد الله رجلاً بلغه كتابي هذا ، الا نفر اليّ ، فان كنت مظلوماً أعانني وان كنت ظالماً استعتبني ..

قرأه الحسن عليهم ثم قال بعد الحمد والثناء : ايها الناس ، انا جئنا ندعوكم الى الله والى كتابه وسنة رسوله ، والى أفقه من تفقه من المسلمين وأعدل من تعدلون وأفضل من تفضلون وأوفى من تبايعون ، من لم يعبه القرآن ، ولم تجهله السنة ، ولم تقعد به السابقة ، الى من قربه الله تعالى ورسوله قرابتين : قرابة الدين وقرابة الرحم ، الى من سبق الناس الى كل مأثرة ، الى من كفى الله به رسوله والناس متخاذلون ، فقرب منه وهم متباعدون وصلى معه وهم مشركون ، وقاتل معه وهم منهزمون ، وبارز معه وهم محجمون ، وصدقه وهم يكذبون ، الى من لم ترد له ولا تكافأ له سابقة ! . وهو يسألكم النصر ، ويدعوكم الى الحق ويأمركم بالمسير اليه لتؤازروه وتنصروه على قوم نكثوا راية بيعته وقتلوا اهل الصلاح من اصحابه ، ومثلوا بعماله ، وانتهبوا بيت ماله ! .. فاشخصوا اليه رحمكم الله فأمروا بالمعروف وانهوا عن المنكر ، واحضروا بما يحضر به الصالحون ..

وكان آنذاك علياً ، يسند ظهره الى عمود وهم يرمونه بأبصارهم ويدعون له بتسديد المنطق ، كيف لا وهم يرون علياً ثانياً بفصاحته ، فالكلام طوع لسانه والقول رهن اشارته . ولم

يقعده الشكو والألم عن الوقوف مراراً ، اذ كانت الحماسة تقيمه، والدعوة الى الحق تبعث به روح الشباب المتوثب . وقد وقف ثانية وذكر حياة علي مع محمد من بدئها الى منتهاها وأردف :

كل ذلك والله من منّ الله على علي . ثم والله ما دعا الى نفسه . ولقد تداكّ الناس عليه تداكّ الابل الهيم عند ورودها ، فبايعوه طائعين . ونكث منهم ناكثون بلا حدث أحدث ولا خلاف أتاه، حسداً له وبغياً عليه ! فعليكم عباد الله بتقوى الله وطاعته والجد والصبر والاستعانة بالله والخفوف الى ما دعاكم اليه امير المؤمنين . عصمنا الله واياكم بما عصم به اولياءه وأهل طاعته ، وألهمنا واياكم تقواه ؛ وأعاننا واياكم على جهاد اعدائه وأستغفر الله لي ولكم .. ثم مضى الى الرحبة فهيأ منزلاً لابيه واستعد للقائه .

وقد قام في الناس مراراً يعظهم ويدعوهم لنصرة الحق ويخوفهم عاقبة التقاعس والنكول عن داعي الله .. ومما قاله في بعض مواقفه : أيها الناس ، انه قد كان من مسير امير المؤمنين ما قد بلغكم . وقد أتيناكم مستنفرين لانكم جبهة الانصار ورؤوس العرب .. وأيم الله لو لم ينصره احد منكم لرجوت ان يكون في من أقبل معه من المهاجرين والانصار كفاية .. فأجيبوا دعوة اميركم ، وسيروا الى اخوانكم ، سيوجد لهذا الامر من ينفر اليه . ووالله لئن يليه أولو النهى أمثل في العاجل والآجل ، وخير في العافية . فاعينونا على ما ابتلينا به وابتليتم . وان امير المؤمنين يقول : قد خرجت مخرجي هذا ظالماً او مظلوماً . فاذكّر الله

رجلاً رعى حق الله الا نفر ، فان كنت مظلوماً أعانني وان كنت ظالماً اخذ مني .. والله ان طلحة والزبير لأول من بايعني وأول من غدر ! .. فهل استأثرت او بدلت حكماً ؟ !.

وقال في مناسبة اخرى بعد الثناء والتمجيد : ان مما عظم الله عليكم من حقه واسبغ عليكم من نعمه ما لا يحصى ذكره ولا يؤدى شكره ولا يبلغه قول ولا صفة . ونحن انما غضبنا لله ولكم . ولم يجتمع قوم قط على امر واحد الا اشتد أمرهم واستحكمت عقدتهم فاحتشدوا في قتال عدوكم وجنوده ولا تخاذلوا فان الخذلان يقطع نياط القلوب . وان الاقدام على الأسنة نخوة وعصمة ، ولم يمتنع قوم قط الا رفع الله عنهم العلة وكفاهم حوائج الذلة وهداهم الى معالم الملة ..

وكان أبو موسى قـد خرج – كما قلنا – ليحوّل الناس عن الامام وتكلم في المسجد فتلاه كثيرون وثارت غوغاء صبر عليها الحسن عليه السلام كما هي عادته ، ولم يبطش بها ، ولو بطش بها لما لامه احد . ولكنه رفيق رقيق الطبع يتحرج من ركوب العنف ولا يتوسل به الى مآربه . كما ينص عليه تاريخه العريض .

فما هو نخوة جامحة ودم حار ، لان دعوته تتدفق حقاً صريحاً واحتكاماً صادقاً كما ظهر من خطبه البليغة . وقد أجاب الناس له وأذعنوا للمسير بعد ان برز نهوض والده ، وخرّج قضيته وجعلهم امام أمر واقع بعد ان قال : اني غادٍ ، فمن شاء منكم ان يخرج معي على الظهر ومن شاء في الماء . فنفروا وخرج معه تسعة آلاف

او اثنا عشر الفاً في البر وفي دجلة ، وقدموا على امير المؤمنين بذي قار فرحب بهم اجمل ترحيب .

وكانت عاقبة ابي موسى ان دخل الأشتر عليه القصر ، وطرد الغلمان منه وأخرجه ونحاه عن مركز الولاية ، فغادر الممتاز المشاء المسرح ليظهر عليه مرة ثانية مخجلة بعد صفين ، ليلبس فيها من الشنار عاراً يخلد فيه مهاناً ..

ويخيل الينا الوهم ان الحسن شاب هيّن الى حـــد اللين ، لا يستجيب لظروف والده ، واذا تراءت ايجابيته فالى قسط بسيط يشبه السلبية . والحقيقة ان تصرفاته قد بلغت خير ما يرجى ، فبرهن على طول باع ، اذ رافق القضية وراعى تطورها بذهن الجهبذ وعقل الحصيف

فها هو في النخيلة — قبل صفين بأيام — يشهد تبادل التحارير بين أبيه وخصمه ، ويراقب المتألبين ويتعرف الى المخلصين ويماشي الاحداث بيقظة لينسرب اليه قليل او كثير عن القادة او عن حالة أي كان من الناس ، لان المصطرع هائل والأفق مربدّ ينذر بيوم يحمل ويلاً وصغاراً .. وانه لما استشم ريح النكوص من ابي موسى — قبل ذلك بأيام — واذ تحقق ذلك بنفسه قال له بكبرياء : اعتزلنا لا أم لك ودعْ منبرنا .. ثم نحاه وأوعز الى سيده بحقيقة امر المولى فسيّر عليّ الاشتر للتنفيذ وقرظة بن كعب الانصار للامارة على الكوفة ، وعُزل ابو موسى بعد ان كتب اليه ابو الحسن : فاخرج من حجرك واندب من معك . فان حققت

فانفذ وان تفشلت فابعد ، وأيم الله لتؤتين من حيث أنت ولا تترك حتى يخلط زبدك بخاثرك وذائبك بجامدك . وما هي بالهوينى التي ترجو .. فاعتزل عملنا مذموماً مدحوراً . وان لم تفعل فاني قد أمرت – الوالي الجديد – ان ينابذك فان نابذته فظفر بك يقطعك إرباً إرباً .. فاعتزل ابو موسى مذموماً مدحوراً ..

هكذا كان الحسن يعمل مع الولاة والقادة، فكان يُلجيء أباه الى العزل والتعيين باشارته الرشيدة . وكان قبلة انظار الناس يقصدونه فيجيرهم عند والده ، ويعتذرون له فيقبل اعذارهم ، ويبذل قصاراه في تكتيل اصحاب ابيه ولمّ شملهم : فمن ذلك ان ان الامام عاتب الزعيم سليمان بن صرد الخزاعي وأنّبه على تخلفه عنه في وقعة الجمل ، فحمل هذا في نفسه شيئاً من الغيظ فاستلم الحسن انهاء القضية لما قال له سليمان : ألا أعجبك من امر امير المؤمنين ما لقيت من التوبيخ والتبكيت ؟ فاجابه : انما نعاتب من نرجو مودته ونصحه .. ثم تسارا[1] وتصافيا واقتنع الخزاعي بأنه غير ظنين ، وانتهى الامر باستتابته وربحه .

فإمامنا – اليوم – موهوب ، يتمتع بلباقة مهذبة تجلو عن وجه ابيه الكرب ، وتنفس عنه الغم . لقد اخذت تبرز فيه شخصية حكيمة وروح وثابة تستطير فرقاً لنصرة الأب ، واشفاقاً على الامة افراداً ومجتمعة .. فصوته الآن يرن في كل أذن ويدخل الى كل قلب .. فهو مسؤول ، يحس بذلك . بل يعتبر نفسه، ويعتبره غيره ، مسؤولاً ، وهو المأمور المطيع والسيد المطاع .

وبين طرفي السيد والمأمور يجثم واجب خطير يضطلع به اميناً مخلصاً ، ويؤديه كاملاً غير منقوص ..

فبينا هو مأمور يناجز بين يدي والده ، اذا به سيد يأمر والده باقدام لا ينتهي الا بموت او بنصر .. ثم لا يتورع عن ان يقول له يوم صفين : ما ضرّك لو اسرعت حتى تنتهي الى الذين صبروا لعدوك من اصحابك ؟ . فيجيبه ابن ابي طالب بوباطته المعهودة مقرراً له فكرة القدر المحتوم : يا بني ، ان لأبيك يوماً لن يعدوه ، ولا يبطيء به عنه السعي ، ولا يقربه اليه الوقوف .. ان أباك لا يبالي ان وقع على الموت او وقع الموت عليه .

فهو يدفع بأبيه الى السيوف دون ان ينسى موعظة نفسه ، ودون ان يدرأ عنها الخطر به . اذ كان – مع اخيه – يبذلان النفس رخيصة بين يدي المبدأ ، عند ما رأيا المكروه يحدق بأبيهما ، فراحا يستأذنانه ويرتميان في المهالك غضباً لله وذباً عن الامام وحزبه ، الى ان ألجأه أن يقول لاصحابه : املكوا عني هذين الغلامين فاني أنفس بهما عن القتل . والله اني لسخيّ بنفسي عن الدنيا ، طيب النفس بالموت . ولقد هممت بالاقدام على القوم ، فنظرت الى هذين قد ابتدراني ، ونظرت الى هذين قد استقدماني – يعني عبدالله بن جعفر ومحمد بن علي – فعلمت ان هذين ان هلكا انقطع نسل رسول الله من هذه الامة وكرهت ذا ، وأشفقت على هذين ان يهلكا ..

فالحسن – اليوم – يجتاز دور انتقال صاعد .. فهو هو في

الخُلق والخلق والهدي والايمان ، ولكنه غيره في الاريحية والتدرج نحو الكمال . انه مهاب ، حسن السمت وقور ، اذا نطق فالكلام منقاد واذا سكت فصمت العبّاد . يقوم كميّاً ويقعد مرهوباً ويبذل سخياً ويمسك ورعاً . يحوطه الناس بالدعاء وتتزاحم عليه الانظار وتنعقد عليه الآمال . ما انتسب الأعراب الا وكان أحراهم بالفخر فبذّهم تراثاً وذخراً . قد اجتمع فيـــه الى جانب النسب الرفيع الجاه العريض والعز الباذخ .. وقد تفقه في الدين واصوله على اساتيذ ثلاثة ، وتخرج على أيدٍ عملت منه إماماً هادياً مهدياً . يضاف الى ذلك ما استفاده من تجاربه وما اختزنه في قلبه واختزله في فكره من ظروف ما استقر فيها وضع ، ولا تركزت فيها سياسة ، يعالج ذلك بمدارك قوية تلتقم ما يصعّد بـه صدر سيد البلغاء وتلتهم ما يفيض عن قلب باب مدينة العلم ..

خطر مرة لابيه الرفيق الامين الذي يؤثره ويعظمه ان يسمعه وهو يخطب الناس فقال له : ألا تخطب فاسمعك ؟ فجاوبه : اني استحي ان اخطب وانا أراك . فقام علي وجلس حيث لا يراه الحسن . ثم نهض الشاب وأدى كلمة فصيحة ولفظ خطبة بليغة جاء فيها : ان الله اختارنا لنفسه وارتضانا لدينه ، واصطفانا على خلقه ، وأنزل علينا وحيه . وأيم الله لا ينقصنا احد من حقنا شيئاً الا انتقصه الله من حقه من عاجل دنياه وآخرته .. **لا يكون علينا دولة الا وكانت لنا العاقبة ، ولتعلمن نبأه بعد حين ..**

واذ انتهى باركه والده وقال ، والغبطة تمسك عليه لسانه

والجذل يملك قلبه : ذرية بعضها من بعض والله سميع عليم ! ثم استدعاه وقال : يا بني لا تستخفن بأحد تراه ابداً ، فان كان اكبر منك فعدّه اباك ، وان كان مثلك فهو اخوك ، وان كان اصغر منك فاحسب انه ابنك

وما فتىء يزوده بالنصائح اذ رأى فيه الرجل الذي تحوم حوله الظنون وتتهاوى عليه قلوب اصحابه .. وقد حامت حوله الظنون فعلاً وتهاوت عليه قلوب اصحابه الذين أتوا اليه وعلى رأسهم عبيد الله بن عمر ، وعمدوا الى إغرائه بمبايعته خليفة وقصدوا اقناعه بخلع ابيه (واتو قريش اولا وآخراً !) .. ولكنه ، وهو يعدها خروجاً على إمام زمانه ويعلم انها تكون بيعة الغاية منها الشقاق ، قد ذهل لعظيم ما جاؤا به ، واستهجن هذا الامر وهو من هو في شد أزر ابيه وتأييده ، وزعق بعبيد الله : كلا ! .. والله لا يكون ذلك . لكأني أنظر اليك مقتولاً في يومك او غدك ! أما ان الشيطان قد زين لك وخدعك حتى أخرجك مخلقاً بالخلوف تري سناء أهل الشام موقفك . وسيصرعك الله ويبطحك لوجهك قتيلا . ثم انصرف عنه .. ووقف عليه صريعاً مبطوحاً عصر ذلك النهار!

•

واذ اجتاز ابوه الستين من عمره بعث اليه من حاضرين بوصية

ضمنها دستوراً حافلاً بجلائل الامور وطافحاً بعظيم المسائل التي تعترض في عاجل دنياه وآجل آخرته . وكانت الوصية في كتاب يعطينا صورة جلية عن مكان الحسن من قلب أبيه ، لا لأنه ابنه بل لكفاءته . قد بدأها بنفثة ملتهبة وعاطفة وايثار ، فقال :

من الوالد الفاني .. الى المولود المؤمل !

.. ان ما تبينت من إدبار الدنيا ما يزعني عن ذكر سواي . غير أني وجدتك **بعضي** ، بل وجدتك **كلي** ، حتى كأن شيئاً لو أصابك اصابني ، فعناني من امرك ما يعنيني من امر نفسي !

فالله من تنكر الوقت وإدبار الدنيا ! ومن هذين الشاغلين اللذين استغرقا وقت عليّ واستنفدا اهتمامه ، وحرما عليه العناية بغير نفسه ! . غير ان الحسن لم يكن **غيره** ، بل هو **بعضه او كله!**. فما هذه الدفعة العاطفية يفيضها الامير على نجله ، وما هذه الدفقة العارمة من الحنو يزجيها مرة واحدة ؟ ! انها من الاعتبار في أدق معناه وأضيقه . لا تنتهي الا موصولة بما شرع به الاب من توثيق السبب بين الله وبين ولده اذ يقول : أوصيك بتقوى الله ولزوم امره وعمارة قلبك بذكره والاعتصام بحبله . وأي سبب اوثق من سبب بينك وبين الله ان انت اخذت به ؟ . أحي قلبك بالموعظة ، وقوّه باليقين ، ونوّره بالحكمة ، واعرض عليه اخبار الماضين ، وذكّره بما اصاب من كان قبلك من الأولين . وسر في ديارهم وآثارهم فانظر في ما فعلوا وعما انقلبوا وأين حلوا ونزلوا .. ولا تبع آخرتك بدنياك .. وأمر بالمعروف تكن من

أهله وأنكر المنكر بيدك ولسانك .. وجاهد في الله حق جهاده .

رعى الله انتفاضة ايمان الوصي ، ورجع صدى صوت النبي ، ونتيجة تجارب الأريحي يحملها هذا الكتاب للمجتبى! .. وحفظ الله مهجة الأب بوفر على ابنه مشقة البحث فينير السبيل ويوضح الصراط المستقيم ! . قد لاحظ أن الحسن شاب يملك حواسه يقظة ووعيه سليماً وعقله صحيحاً ، فأتم : رأيت ان يكون ذلك وانت في مقبل العمر ، ذو نية سليمة ونفس صافية ، وأن أبدأك بتعليم كتاب الله . فأدى قسطه المطلوب لولده بأمانة ، في وقت هو فيه تام الخلق كامل الاستعداد ، ثم اردف : اني لم آلك نصيحة ، وانك لن تبلغ في النظر لنفسك ، وان اجتهدت ، مبلغ نظري لك ..

وأخيراً انصرف الى الناحية الالهية ليجلو له غوامضها ويسبر له اغوارها ويستخلص لبابها . فخلق له جواً من المحاجّة الطافحة بالمعاني البكر ، فقال : واعلم يا بني ، انه لو كان لربك شريك لأتتك رسله ، ولرأيت آثار ملكه وسلطانه ، ولعرفت افعاله وصفاته .. وقد تجلت بدائع عليّ الذي ينحدر عنه السيل ولا يرقى اليه الطير فقرر ببساطة امراً يتخبط فيه العلماء دهوراً لنفيه او إثباته ..

ومن ثم وجّهه الى القضاء والاجتماع ، وعرف اليه كل شيء يحتاج الاضطلاع به الرجل الكامل : يا بني ، اجعل نفسك ميزاناً فيما بينك وبين غيرك ، فأحب لغيرك ما تحب لنفسك واكره ما تكره لها ، ولا تظلم كما لا تحب ان تُظلم ، وأحسن كما تحب ان

يحسن اليك ، واستقبح ما تستقبحه من غيرك ، وارضَ من الناس بما ترضاه لهم من نفسك .. وفاجأه بصرفه عن جلبة الدنيا الى اطمئنان الآخرة بقوله : ان امامك طريقاً ذا مسافة بعيدة ، ومشقة شديدة ، المخفّ فيها احسن حالاً من المثقل ، والبطيء عليها اقبح حالاً من المسرع ، وان مهبطك بها ، لا محالة ، إما على جنة وإما على نار ! . وتابع توجيهه نحو الله ، وعرض عليه قضايا هامة وفنوناً مختلفة .

ولولا مساس ما ذكرنا بتكوين سيدنا وبحياته لضربنا عليه بقفل من حديد .: وبالحقيقة ان هذا الوالد لم يترك قاعدة فيها إصلاح الفرد او إصلاح المجموع الا وتبسط فيها لابنه مختصراً او مسهباً ، ليجعل منه رجلاً مطبوعاً على الخير الخالص ، يفكر بالآخرة دون أن ينسى نصيبه من الدنيا .

وكان أن اصبح للحسن ، من هذه الوصية بالخصوص ، دستور حق واسع الشمول ، واضح المعالم .

●

وفي عام ٤٠ للهجرة ، ليلة سابع عشر رمضان استيقظ عليٌّ سحَراً وقال لابنه : رأيت الليلة رسول الله فقلت له : أشكو

اليك ما لقيت من هذه الأمة . فقال لي : أدعُ عليهم . فقلت : أللهم أبدلني بهم خيراً منهم ، وأبدلهم بي شراً لهم مني ! . فأسقط في يد الحسن ! . اذ فهم ابوه ، وفهم هو ، كل شيء ! .

وجمجمت العبرات الكلام ، وملكت هيبة القضاء القلبين ! . وصرف الحسن وجهه الى ناحية وأسلم نفسه لبكاء ركنه الثالث المتين ! .

وأصيب عليّ صباحها بضربة أشقى الأمة ، فاعترته غشية .. وأفاق فوجد الحسن والحسين (هذا عن يمينه وهذا عن يساره) ، فقال : أوصيكما بتقوى الله ، ولا تبغيا الدنيا وان بغتكما ، ولا تأسفا على شيء زوي منها عنكما . إعملا الحق وقولاه ، وارحما اليتيم وأعينا الضعيف واصنعا للآخرة ، وكونا للظالم خصماً وللمظلوم أنصاراً ، واعملا لله ولا تخافا فيه لومة لائم .. ثم دعا ابنه محمداً وقال له : أما سمعت ما اوصيت به أخويك ؟ فقال : بلى . قال : فاني اوصيك ببرهما وتوقيرهما ومعرفة فضلهما ، فلا تقطع امراً دونهما .. وأقبل عليهما فقال : أوصيكما به خيراً فانه شقيقكما وابن أبيكما . وأنتما تعلمان أن أباكما كان يحبه فأحباه .

وكان قد كتب وصية في ماله بعد منصرفه من صفين جاء فيها : ويقوم بذلك الحسن بن علي ، يأكل منه بالمعروف ، وينفق منه بالمعروف . فان حدث بحسن حدث وحسينٌ حي قام بالأمر بعده وأصدر مصدره ..

.. ويومذاك قام الحسن في جمهور من الناس فقال : لقد قتلتم

رجلاً في ليلة نزل فيها القرآن ، ورُفع فيها عيسى ، وقتل فيها يوشع بن نون ! . والله ما سبقه أحد كان قبله ولا يدركه احد يكون بعده . . والله ما ترك صفراء ولا بيضاء الا ثمانمائة او سبعمائة درهم أرصدها لشراء خادم .

.. وكانت صبيحة ليلة عشر بقيت من رمضان ، فلحق الامام بالرفيق الاعلى ، فغسله الحسن والحسين ، وصلى عليه الحسن ودفناه معاً ! . فدفن الحسن فيه آماله ومربيه الثالث ثم التفت الى الناس وقال بعد الثناء :

أيها الناس ، من عرفني فقد عرفني ، ومن لم يعرفني فانا الحسن بن علي ، وانا ابن النبي ، وانا ابن الوصي ، وانا ابن البشير ، وانا النذير ، وانا ابن الداعي الى الله بأذنه وانا ابن السراج المنير .. وانا من اهل البيت الذي كان جبريل ينزل الينا ويصعد من عندنا . وانا من اهل البيت الذي أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً . وانا من اهل البيت الذي افترض الله مودتهم على كل مسلم فقال تبارك وتعالى لنبيه :قل لااسألكم عليه أجراً الا المودة في القربى ، ومن يقترف حسنة نزد له فيها ، فاقتراف الحسنة مودتنا اهل البيت ..

وفوجيء بعدها بانتقال سريع في حياته الاجتماعية ، اذ صار وصي أبيه على اهله واصحابه ، ووصيه بالنظر في وقوفه وصدقاته وكافة شؤون شيعته .

وماذا بقي له يا ترى ؟

لم يبق له الا ان ينكفيء ليبكي من طوتهم اللحود من أحبته وأسياده ، أو ان يقف ليستجمع قواه العقليـة فيتمسك بالصبر ويراقب الحوادث يعين يقظة وقلب مطمئن ونفس هادئة ، بكل ما في هذه الكلمات من سعة وضيق .

ثم أسدل الستار ثالثة .. وانحسر عن مسرح الحيـاة كما هي العادة ، ليخرج الحسن ذاته الى تمثيل دوره .

●

- ٥ -

●

نفس يتفجر منها ذكاء وطلائع جرأة ، عليها ملامح هاشمية .. نفس فتى تدب فيـه حرارة الدم والفتوة ، فتتدفق منه نضارة ورواء .. فتى صار نديد الرجال ، يحتل مرتبة تقصد بالامل ، يبرز كامل الاستيفاء لمعانيـه ، تام الوضاءة كبير الاحلام ، لا يحجب ظاهرة النجابة فيه لسان يريد إخباتها ، اذ تصح المقايسة بينه وبين جده هيئة وسمتاً

لقد صار للحسن هيبة واحترام يضطران ابن عباس ، على

جلاله وصحبته، ان يأخذ له الركاب اذا ركب، ويرى ذلك فرصة سعيدة يتبرك بها هو وأرفع الصحابة كعباً وادناهم من جده منزلة، لانه بدل يتمتع منذ طفولته الرشيدة بفطنة حادة وحمية مهذبة متزنة، تميزه اشياء لا تتوفر في غير ربيب النبي، بل تفرض على محمد بن اسحاق ان يقول: ما تكلم عندي احد كان أحب اليّ اذا تكلم لا يسكت من الحسن بن علي، وما سمعت منه كلمة فحش قط..

فهو سيد في حداثته، وعظيم منذ صغره، يلحق به ابو هريرة ويقول له: السلام عليك يا سيدي. لانه سيده رغم التفاوت بينهما في السن بدليل انه يقدم دون ان يخاف معرة أنه سمع رسول الله يقول: ان الحسن سيد..

ومن ابن عباس، ثم من محمد بن اسحاق، بل من ابي هريرة بجانب الصدّيق الذي كان يداعب السبط ويلاعبه؟ والذي كان يحتمله على عنقه ويغني له:

يا بأبي شبه النبي ليس شبيهاً بعلي!

مردداً الترنيمة التي سمعها عن الزهراء

فمنذ شبوبه عن الطوق، ومنذ بدء توثبه أجاز الخليفة لنفسه، بل ان نفسه دفعته الى ان يجله ويعظمه ويكرمه ويتفدّاه!.

وتاريخ هذا العهد متبلبل مشوش، مرّ عليه المؤرخون مرور من لا يستجيز ذكر شيء عنهما، فقط لان الاول **ابن علي** ولان الثاني **الخليفة**!. كأن العلاقة الاجتماعية بين صاحب رسول الله

وأولاد علي ممنوعة او كأن ذكرها لا يباح ! ! !

غير أن هـذه العلاقة يمكن اجتلاؤها بوضوح من مواقف جمعتهما وذُكرت في فلتات سانحـة من الروايات . ويجوز القول بانها كانت علاقة ناصعة يدل على ذلك النزر القليل الذي وصلنا من المترمتين الذين تقاعسوا عن تصوير الوقائع على حقيقتها ..

فعلى الرغم من الفوضى التي اصطدمت بها اذهان المؤرخين نرى الحقيقة تظهر ناطية ، غير خافيـة على رقابة العقل الصحيح .. ولنا في ذكر اجتماعاتهما البسيطة ما يعطينا خطوطاً أولية توضح الرابطة المستحكمة بين الحسن والخليفـة . تلك الرابطة الدالة على انصاف ورجاحـة ابي بكر مضافاً الى ما وعاه من الرسول عن سبطه ، ومضافاً الى ما في ذات السبط من حيوية ونبل ..

فاذا نظرنا الى الحسن في هـذه الفترة نجده ، بعد ان فقد جده وأمه ، تبدو على حركاته الصنعة والكلفـة . اذ يحس ، وهو بين ظهراني هذا المجتمع الجديد ، انه في عالم غير العالم الذي ألفه . فلا يجد نفسه في المحـل الذي عرّفه اليه جـده ! فيتطلع الى أفق أبعد .. يفكر كثيراً ، ويقدر كثيراً . لانه يرى اوضاعاً منقلبة وحروباً دائمة ، وإعداداً وتجهيزاً ، وأمة خاصمة مخصومة ! ويرى وسطاً لا عهد له به ، فيه إجلاب ما تعود سماعه ، فيجمع إحساساته المشتتة ، وتتحرك في نفسه يقظة تفرق عن لامبالاة الطفولة الهادئة ، ويبدأ بتفتيح عينيه مشرّقاً ومغرّباً شأن كل ناشيء تستثم مواهبه غوّها ، فينفعل للمشاهـد وتطنح نفسه بالمؤثرات التي تفيض عنها

الحقيقة ..

ها انه ينظر .. فيكفهر الكون في وجهه ، وتكتنفه وحشة بغيضة وجوٌ غير محبب ! انه لا يرى جده الذي أفاض تعاليمه على الدنيا ! ثم لا يرى أمه التي كان يركن الى عطفها وايناسها ! واذ ذاك ينقلب بين قبر هذه في البقيع وجدث ذاك في المسجد ، ليبكي قليلاً او كثيراً وليسري عن نفسه ويخفف من غلوائه ! .

فما حلت به أزمة من هذا النوع الا وكان يقصد البقيع او المسجد ، وفي حسبانه ان شبَحي محمد وفاطمة هما كل ما في الكون ! . وقد دخل المسجد في ساعة متأزمة ، ورأى الخليفة على المنبر ، فاقتحم الحلقات وتخطى رقاب الناس الى ان حاذى المنبر وقال : انزل عن مجلس ابي ! فحاق بالجماعة الوجوم إجلالاً للحق ينطق به الغلام ، ورهبة لسلطان الحق يهيمن على الالباب .. ثم أراح ابو بكر كابوس الوجوم بقوله : صدقت . انه لمجلس ابيك . وأخذه اليه وأجلسه في حجرة وبكى .. نعم بكى ، لانه ادرك بالحدس ، وعرف من قرائن الحال ما كان يعتمل في نفس الغلام وما كان يتمثل في مخيلته ..

فلم يتهيب الحسن المجلس ، لان الذكي النابغ يشق طريقه بين زحام الاكثرية ، ويدلي برأيه الذي تسترشد به الاكثرية ذاتها وترى فيه الرأي الصواب ..

الا ان التسامي في الخلق ، والصفاء في السريرة يقاسان باطلاق حرية البحث من عقالها لتنقلب الى مناقشة حرة يغلب فيها توخي

الصواب كل ذاتية وأنانية .. فقد عاش الخليفة **العارف** بالقضية لحظة الفتى ذاتها ، واعتقد صدق نيته وأدرك ان سورة الحزن والالم قد دفعته الى هذه المفاجأة . فلم يجابه قول الرسول في مقام سالت فيه الحقيقة على لسان الصبي البريء ! وحاشى لله ان ينكر على النبي ما صدع به لانه يعرف جيداً أن كل ما يحول دون ابداء الرأي وحرية المناقشة يعد تجنياً على الحق المطلق ، حتى ولو كان النقاش ثورياً ينفث لهباً ودخاناً ..

فليخلد التاريخ على صفحاته **الحذرة** هذا الحوار الرائع ، يدور في مسجد الرسول امام أجلاء الصحابة ، وعلى مسمع ثلة من العرب مختلفة المواطن والامصار ! .

وليكتب هذه الكلمات يفوه بها الغلام وهذه الاعترافات السخية يلفظها الصدّيق ! .

فالانسان في حالة ارتفاعه الى المستوى اللائق خلقياً وأدبياً ، لا يتذبذب ولا يوارب ، بل يقول الحق ، لانه يعلم ان من الحق له بان يقول .. وان النزاع حين يكون في عقيدة او في مذهب لا يسمى نزاعاً كما يسمى ذلك في الرأي الغريب والزعم الجديد .. وما ذهب اليه الحسن هو مذهب الخليفة بعينه ، ورأيه بذاته ، فهل من لزوم للاحتدام ، ام هل من ضرورة لردعه بالشدة ، او لاعتبار كلامه تهماً كما نظن !؟

وأبو بكر ، كان عمر خلافته ، على يقين من فضل الحسن ، يعرف منزلته ويحدب عليه ، ويقلد جده في الحنين اليه . حتى انه

كان يخطب الناس ويحضهم على احترامه واحترام ذويه ويقول : أيها الناس ، ارقبوا محمداً في أهل بيته ، واحفظوه فيهم فلا تؤذوهم ..

ولو أعملنا الفكر ، وانتقلنا ببصائرنا الى ذلك العهد البعيد ، وتصورنا فتانا في جوه ذاك ، وانتبهنا الى تقدمه في السن وتركيزه في العقل والجسد ، وتدرجه في بناء مقومات شخصيته ، ندرك انه قد اصبح نظير الامثال ، يقول الحق ولا يخشى الملامة ، يصمد للمقارعة ولا يفكر بالهزيمة ، لانه يحمل حقاً بيمينه وعزيمة بشماله ، ومن بين هذا وتلك تقوم نفس قوية وعقل سليم في شخصية تسير باطراد ، اذ اقتبس صاحبها كثيراً من مزايا جده ، فشاع في قلبه نور الدعوة ، وانطبع بصفات ابيه فانبعث الاقدام على الحق والاحجام عن الباطل ، فكان كالصفحة البيضاء تتلقى الانطباعات بفاعل الوراثة والاستعداد ، وبعامل قوة الشخصية وكون المثل الاعلى متوفراً في الجد والاب والأم مما جعله يمضي في عقيدة يساندها حق كما أرادوا له تماماً ..

ولا يجوز الا ان يكون كذلك لتصدق فيه نبوءة جده القائل: الخلافة بعدي ثلاثون ثم تكون ملكاً عضوضاً ..

وقد كملت الثلاثون بخلافته اذ نزل لمعاوية في ربيع الاول سنة احدى واربعين بعد ان كان ابو بكر قد تولاها سنة احد عشرة للهجرة ..

•

-٦-

•

.. وحسن عمر كحسن ابي بكر . الا انه قد اصبح أنفذ وأكفأ وأجرأ ، اذ صار مضطلعاً بالامور ، يمعن في كل قضية تعرضها الاحداث بحثاً وتفكيراً .

فقد أخذ يكيف نفسه بحسب مقتضيات البيئة ليكون اجتماعياً فعلاً ، لان تفكير الانسان لا يصدر عن دماغه وحده ، بل فيه لغيره اكبر شركة .. وهذا التكييف لا يحدث الا عند ذوي القوى العقلية السليمة الذين يتفهمون المسائل بعد محاكات ذهنية سريعة وغير منحرفة ..

لذا صرنا نرى فيه رجولة خيّرة ،لانه يفكر اضعاف ما يقول، واذا قال فلا ينطق الا بالحق .. فهو لامع ، لا يحجم عن ابداء رأيه ، يظهر بأصبح وجه وأشده إشراقاً .. يغالي فيه الخليفة الثاني وكافة الناس ويجلّونه لما يرون من افكاره المصقولة ، وتطوره المصطبغ بطابع جديد يحملهم على تقديره ومنحه الصلات اللائقة ابتغاء مرضاته وابتغاء الحق وارضاء ضمائرهم فيه .

وقد شرع عقله في الترقي كما تقدمت به السن ، وأفلت لسانه

من عقاله ، وأصبح فكره جديراً بتحري الحقائق وسُع طاقة وحيوية مداركه الكاملة .

فهو في هـذا الدور أمام سلسلة من المسائل ليس لها آخر .. يتوغل في استقصاء ما حوله من المرئيات وغير المرئيات ، ويفكر في علل المعلولات ، ويرجو ان يصل الى حلول عقلية مقنعة يضيفها الى ما أخذه عن اساتذته الذين علموه كيف يلتمس العلم وكيف يتأمل ليعي جوهر الاشياء ، فطفق يركز العقائد والنظريات في ضميره تركيزاً منبعاً ..

وقد عرف الخليفة فيه وفي أخيه هـذه المعاني الفاضلة فألحقهما بفريضة اهـل بدر ، وقدمهما على كثير من المهاجرين والانصار ، تقديراً لهما ولقرابتهما من رسول الله . ولم يلحق معهما برجال بدر ممن لم يشهد الوقعة الا سلمان الفارسي وأبا ذر .. اما عندما كسا اصحاب النبي فلم يرتض في الكسوة ما يستصلحه لهما فبعث الى اليمن فأتي لهما بحلل فاخرة ، ثم ما اطمأن باله ولا طابت نفسه الا حين لبسا وخطرا امامه .

وكيف لا يمتلىء صدره غبطة ولا يتيه جذلاً وهما ابنا رسول الله ، وهو يجلس للتوزيع بين قبره ومنبره ، في حين ان أبا حفص يعرف عنهما وعن سابقـة الهاشميين ما لا يسع الجاهل ان يرده او ينكره ! .

فلم تمرّ سانحة الا وصرح فيها بمعتقده ، ولا سنحت فرصة الا وجهر فيها بما يكنه في نفسه نحوهما : فانه عام الرفادة ، سنة سبع

عشرة للهجرة ، عند ما كرر الناس الاستسقاء وفشلوا قال لهم : لأستسقين غداً بمن يسقي الله به . ولما اصبح غدا عند العباس وقال له : أخرج بنا حتى نستسقي بك . فقال العباس : يا عمر اقعد في بيتي . ثم ارسل الى بني هاشم ان يتطهروا ويلبسوا من صالح ثيابهم . فأتوه ، فأخرج طيباً فطيبهم ثم خرج العباس وعليّ امامه ، والحسن عن يمينه ، والحسين عن يساره ، وبنو هاشم خلف ظهره ، ودعا العباس الله فسقى بهم ..

فان في اعتزاز عمر بهم وفي تسليمه بفضلهم إنصافٌ واطمئنان وثقة غالية . بل انه الحق يذعن اليه ابن الخطاب قانعاً راضياً ! . وكأني به ، ساعتئذ قد عرف خطرهم عند الله فمشى خلفهم موقناً لا يحتمل الفشل امام معجزة استدرار الغيث ، لانه واثق كل الثقة بنجاح المعجزة وبساطع برهانهم وعظيم قدرهم .

وليس هذا آخر ما عنده من التلميح والتصريح . فقد استأذن الحسن عليه مرة فلم يؤذن له ، ثم استأذن عبدالله ، ابنه ، فلم يؤذن له . ومضى الحسن ومضى ابن عمر .. ولكن شيئاً داخَلَ خاطر الحسن فاقتصد في الكلام لمورده !

.. واستدعاه الخليفة فقال الحسن : لقد قلت يا أمير المؤمنين : ان لم يؤذن لعبدالله فلا يؤذن لي .. وأنصت لكلمة الفصل تدور على لسان ابي حفص الذي قال : انت أحق بالاذن منه ! وهل أنبت الشعر في الرأس بعد الله الا انتم ؟ .

وتذهب هـــذه الكلمه عبر الاجيال لتبقى مدوّنة الى يوم

البعث ! وتنفذ الى الأسماع في كل زمن لتعيها أذنٌ واعية ، وليعرف الشانىء الحد الذي وصل اليه الخليفة في إيثار عليّ وسلالته .

نعم ، انه كان يؤثر الحسن ويأنس بحديثه اذا حضر . وكان يستطلع اخباره اذا فارقه او جافاه ، لان مرتبة أبي محمد في الأمة لم تعد خافية على احد من سائر الناس فكيف بابن الخطاب الذي كان يقر به ويدنيه ويختصه من دون ولده ؟

لقد قسم السهمان يوماً فاعطاه واعطى أخاه كل واحد منهما عشرة آلاف ، واعطى ولده عبدالله الف درهم ! . فحنق عبدالله وعاتب أباه قائلا : قد علمت سبقي في الاسلام وهجرتي . فكيف تفضل عليّ هذين الغلامين ؟ . واعتقد انه اقنع اباه وجاء بحجة لا يدحضها عدل أبيه وصلابته ، بل لعله آمن بانه قد استولى على مشاعره وحرك ناحية العاطفة والحساسية فيه ، ونسي بيان الأب الذي قال بغضب : ويحك يا عبدالله ! إئتني بجد مثل جدهما ، وأب مثل أبيهما ، وأم مثل أمهما ، وجدة مثل جدتهما ، وخال مثل خالهما ، وخالة مثل خالاتهما ، وعم مثل عمهما ، وعمة مثل عمتهما ! . فجدهما رسول الله ، وأبوهما علي ، وأمهما فاطمة ، وجدتهما خديجة ، وخالهما ابراهيم ، وخالاتهما زينب ورقية وأم كلثوم ، وعمهما جعفر بن ابي طالب ، وعمتهما أم هانيء بنت ابي طالب .. وقد نسبهما وانتسب فما ساوى واحداً بواحد ، وأقنع ولده ببساطة ومنطق

سبال ، وعرّفه بذينك الغلامين ، فطأطأ عبدالله الهام َاذعاناً للحق واحتراماً لمقالة الوالد ، واصبح – بعدها وبفضلها – يعترف بحقهما ويذب عنهما حتى اتـّهم بغُلاته في الهاشميين جميعاً ..

وكيف لا يكون عبدالله كذلك وقد اعطاه أبوه الأماثيل في كل قول قاله بعليّ او كل حكم حكمه على رأي علي وكل مشورة استشار بها علياً ! .

فلعمرَ عذره في ايثار الحسن ، لانه مضافاً الى ماسمع ، يتطلع في من هم حوله فلا تقع عينه الا على من يقول : سمعت رسول الله ، او حدثني رسول الله او قال فلان قال رسول الله .. موصياً بالحسن وأخيه ، ومعلناً تنصيبهما سيدين محاطين بالتجلة والاكرام ، وإمامين قاما بالامر او قعدا عنه . أفيتجاهل هذا كله أم يذعن للحق ؟ وما أولاه بالاذعان والنظر الى القضية بمنظار العاقل الحصيف ..

واني لا التمس سبيلا معوجاً ولا أسلك طريقاً ملتوية لأقطع بان الحسن في هذا الدور ممن يلفتون الانظار فيشار اليهم بالبنان ، بالرغم من تضافر قوى المؤرخين المأجورين على إهمال ذكره في العهود التي تلت سلطان أبيه ، وان مواهبه تتمطى لتنبعث في الكتب والسير وضاءة يكاد سنا برقها يخطف بالابصار أنى وصفها مؤرخوه ، وكيف سردها ذاكروه وكيفما عرضها التاريخ بطرائقه الضالة المهوشة وقواعده الغاشمة المائلة .

فمن النور الضئيل نلتمسه في الروايات المنبثة هنا وهناك نصل

الى لباب ، بل ان اللباب تتفتق عنه قشور الزيف ليصل الينا من لمامات مبعثرة في الكتب الدارسة ، فتنتهي بنا المحاولة الى بعث الحسن كما لو كان حياً . ذاك أن في كتب التاريخ **شيئاً** هو فوق ما وضعه المخططون ويجده المنقبون ، ألا وهو **حق الحسن الصارخ** الذي لا تستره الحجب ! لان الشخصيـة المكبوتة التي نتلمسها تنادي :

أيها المنقبون : ها انا كما كنت في الحقيقـة والواقع ، لا كما صوروني ، فانتبهوا الي ايها المنصفون ! .

فالحسن الشاب كان طيلة خلافة عمر المديدة يمثل دوره بنجاح في زحام هز الجزيرة هزاً عنيفاً بعد ان توفى الله النبي . وهو ينفخ في بوق النضال مـع من ينفخ ، وهو يقاوم وراء متاريس الحق ، ويقف بالمرصاد لكل من يريد ان يستأثر لنفسه من الدين او يمسخ انسانية الانسان المسلم الذي أراده محمد ! . وبخاصة بعد ان اعلن خليفـة العهد دستوره : ألا مَن رأى فيّ اعوجاجاً فليقوّمه بحد سيفه ! .

وآمل ان لا يغرب عن البال أن الحسن قـد راهق العشرين من عمره وصار رجلا ، ورجلا مزواجاً كابيه ، يصطحبـه ابوه ليخطب له من امرىء القيس بن عدي الكلبي يوم إسلامه في عهد الفاروق ، ويقول بعد أن ينتسب : قد رغبنا في صهرك فأنكحنا . فيجيب امرؤ القيس والخيلاء بين برديه : أنكحتك ياعلي « المحياة » بنت امرىء القيس ، وأنكحتك يا حسن « سلمى » بنت امرىء

القيس ، وأنكحتك يا حسين « الرباب » بنت امرىء القيس..

- ٧ -

●

الحسن في عهد عثمان : عنوان يجفل النفوس المريضة إجفالاً ! لانه يلقي في الروع ما وضعه الدساسون من خطوط الفكرة العدائية التي اختلقوها ليطمسوا معالم الحق والواقع .

ومن مجمل ما تسجل نستخلص أن الحسن رجل ذو نفس تسع الناس بهديها وسكينتها ، الى جانب شباب يقظ تجلله نورانية الايمان ، بما هذب منه محمد ، وصقل منه علي ، وأرهفت منه فاطمة .. فهو انسان بار ، يندفع في سبيل الله ، ويعمل على وضع حجر في اركان الجامعة الاسلامية . بل يبذل مقدوره في المساهمة بما يعود على الدين والمسلمين بالخير . تذوب فيه كل الانانية وتتفانى امام غيريته ، فيتوثب للجهاد ، وينخرط في الجيش الذي يتأهب للفتوحات ، ويسير الى أقاصي افريقيا والمغرب فيدخل مع الفاتحين له ما لهم وعليه ما عليهم ، ثم يعود ، في طليعة من عاد ، تملأ بالنصر وإحقاق الحق وازهاق الباطل .

لقد ارتفعت فيه الفكرة الاجتماعية ، وأدرك وحدة الجماعة وما ينبثق عن تكاتفها ، فصار يحرص ، مع من يحرص ، على تأثيل

الوحدة وتأمين روابط الافراد وترسيخ القواعد التي يتركز عليها صرح الاسلام ، اذ مد ساعده مع سواعد القادة ومشى مع سادة الأمة الكعب على الكعب يشد بعضهم آصرة بعض .

فهو انسان حرب . وهو انسان مجتمع يختار في مجلس الخليفة لاقامة الحد على والي الكوفة — الوليد بن عقبة — والمجلس غاصّ بالصحابة ، لانه — بعد أبيه — أحرى الناس باقامة الحدود وإحياء السنة ..

نعم انه اختير لذلك بعد ان قلّب عليّ طرفه في الجلساء غاضباً لله ، وقال : يا بني ، قم فاجلده ! . فساد القوم رهبة ! وخيمت هيبة الحق ورفرف سلطان الله ! . وفكر الحسن بالدخائل ، وبكل ما اعترض الدعوة بعد جدة ، ولاحظ أشياء أخر ثم اتخذ لنفسه اجتهاداً شخصياً خوله ان يقول لأبيه : ما أنت وذاك ؟ هذا لغيرك ! .

اما الوليد فكان والياً على الكوفة من قِبل عثمان ، وكان زانياً شرّيب خمر . شربه في ليلة صاخبة وخرج ليصلي بالناس الصبح في المسجد الجامع فصلى بهم اربع ركعات — مع ان صلاة الصبح ركعتان ! — ثم التفت الى الجماعة وقال : أأزيدكم ؟ ! واعترته دوخة فتقيأ في المحراب بعد ان قرأ في الصلاة :

علق القلب الربابا   بعد ان شابت وشابا !

فشخص اهل الكوفة الى عثمان وبلّغوه خبره وشهدوا عليه بشرب الخمر . وقيل فيه :

نادي وقد تمت صلاتهم :
أأزيدكم ؟. ثملاً وما يدري
.. فأبوا — أبا وهب — ولو فعلوا
وصلت صلاتهم الى العشر

من أجل ذلك أمر علي ابنه بجلده فاعتذر وأجاب : ما لك ولهذا ؟ ولِّ حارَّها من تولي قارَّها . فخاف ابو الحسن من تعطيل الحد لقرابة الوليد من الخليفة فقام اليه فجلده بيده وقال : لتدعُني قريش بعدها جلاداً ..

.. ومرَّ أناس بعدها يعودون الوليد في شكو شديد ، فقصده الحسن معهم ، فقال له ابن عقبة : أتوب الى الله تعالى مما كان بيني وبين جميع الناس ، الا ما كان بيني وبين أبيك فاني لا أتوب منه .. فالله اكبر من الموجدة تعتمل في نفسه ! ومن الطيبة يطفح بها قلب الحسن الذي عاده وهو عارف بعيبه وحوبه ! . وربما كان قد قال ذلك وهو في حالة السكير المخبل ! . اما الحسن فأولاه ابتسامة صفراء فيها حرَب وفيها رثاء ..

فقد صار لأبي محمد اجتهاد بعيد عن الاسفاف ، لانه ذو رأي حصيف وتخمين صادق . اذ تمَّ نموه العضوي والعقلي ، فانخرط في الشلة السياسية ليثبت وجوده بين اكابر المسلمين ، او على الاصح ، ليفرض وجوده على معاصريه بشكل تزاوجت فيه التعاليم بالاستعداد ، فاكتملت المقومات الشخصية .

وقد استيقن أبوه من استتمام ذلك في نفسه مذ لمس فيه العزم

والرصانة مشدودتين الى المرونة وبعد النظر ، في عهد كله شلل في الحكم ، وكله لجب في الشعب ونفور في الرعيـة والولاة ، لن يستقر الا بزلزلة الخليفة او استتابته المتكررة ، أجل قد أيقن ذلك فبوأه منه حبة القلب وانسان العين

اما تلك الفكرة الهادرة فقد اختمرت في رؤوس كثيرين من سكان الاقطار الاسلاميـة ، الا في رؤوس الهاشميين الذين شمروا عن سـواعـدهم ليقفوا في وجه تيارها وزعازعها اذ تبلورت وذر قرن الفتنة وعلت ألسنة اللهيب ! وما فتىء اللهب ان زاد استعاراً يوم خرج الخليفـة فصلى بالناس وقام على المنبر فقال : يا هؤلاء ، الله الله ! فوالله ان اهل المدينة يعلمون انكم ملعونون على لسان محمد صلى الله عليـه وآله ، فامحوا الخطأ بالصواب ! . فثار القوم وحصبوا الناس حتى اخرجوهم من المسجـد ، وحصبوا عثمان حتى خرّ على المنبر مغشياً عليه ، فأدخل داره ، واستقتل نفر من اهل المدينة معه ، فيهم : سعد بن ابي وقاص والحسن بن علي وزيد بن ثابت وأبو هريرة . فارسل اليهم عثمان : عزمت عليكم ان تنصرفوا. فانصرفوا ..

ودخل علي على عثمان ومعه قنبر خادمه ، . فأومأ اليه بالتنحي فتنحى غير بعيـد فجعل عثمان يعاتب علياً وهو ساكت فقال : ما بالك لا تقول ؟ فقال علي : ان قلت لم أقل الا ما تكره ، وليس لك عندي الا ما تحب . وانصرفا ..

.. وكان ان حاصره الناس ومنعوه من الماء ، فأشرف عليهم

وقال : أفيكم علي ؟ فقالوا : لا . فقال : أفيكم سعـد ؟ فأجابوا : لا . ثم قال : ألا احد يبلغ علياً فيسقينا ماء ؟ ! . فبلغ ذلك علياً فبعث اليه بثلاث قرب مملوءة لم تصل اليه حتى خرج بسببها عدة من موالي بني هاشم وبني أمية ..

واذ استدار عقـد الاحاطة به كتب الى ابن ابي طالب : اما بعـد ، فانه قد جاوز الماء الزبى ، وبلغ الحزام الطبيين وتجاوز الامر بي قدره ، وطمع فيّ من لا يدفع عن نفسه .

فان كنت مأكولاً فكن خير آكل
والا فأدركني ولما أمزّقِ

ولم يشأ علي ان يدعه وشأنه بالرغم من جفاء عثمان له ، فبعث ابنيه وبعض اهله ونفراً من مواليه زودهم بالعدة والسلاح ، وأمرهم أن يلزموا باب الدار فلا يفارقونه ، وقال لولديه : اذهبا بسيفيكما حتى تقوما على باب عثمان فلا تدعا أحداً يصل اليه .. فامتثلا وذهبا لساعتهما يمتشقان حساميهما .. فكان الهاشميون، بهـذا ، اول من سلّ سيفاً بوجـه الثائرين ، الأمر الذي أخجل بعض الصحابة في القعود عما نهض به غيرهم ، فبعثوا بأبنائهم ، حتى ان طلحة والزبير بعثا ابنيهما ، خشية ان يرمي الناس الاصحاب بعدم النخوة .

ودخل الحسن على عثمان متأهباً بعدتـه وسيفه وقال : يا أمير المؤمنين ، اني طوع أمرك فمرني بما شئت .. فاجاب الشيخ : بل اجلس في بيتك يا ابن أخي حتى يأتي الله بامره ..

ولكن الحسن تلقى الامر من ابيه فوجبت له الطاعـة وحق

عليه ان يدفع عمن أبى ان يدفع عن نفسه ، فنهض ومن ورائه الابطال من اهل بيته ومواليهم وابناء اصحاب الرسول يضربون ويفرقون فصاح بهم الخليفة : الله الله ! أنتم في حل من نصرتي . من كانت عليه طاعة فليمسك داره فانما يريدني القوم .. واذ رأى الحسن ينافح ويكافح ويشجع مَن وراءه ، ناشده أن يكف : يا ابن اخي ، ان أباك الآن في كرب عظيم . فأقسمت عليك لما خرجت .. فلم يصغ الفتى ولا أجفله جرحه ، وثابر حتى أصيب هو وأخوه وقنبر خادم أبيه فما ازدادوا الا حماساً واندفاعاً ..

وما زال الناس في هيجانهم يرمون عثمان بالسهام حتى اختضب الحسن بالدماء ! فخشي محمد بن ابي بكر ان يغضب بنو هاشم لحاله فيثيرونها شعواء فأخذ بيد اصحابه وقال : ان جاء بنو هاشم جميعاً ورأوا الدم على وجه الحسن كشفوا عن عثمان وبطل ما نريد .

وكان الخليفة قد لزم الدار وأقسم على اهل المدينة مراراً ان يرجعوا فرجعوا الا العباس والحسن ومحمد بن طلحة وعبدالله بن الزبير وأشباهاً لهم ممن جعلوا الباب في منعة ،يستعصي على الثائرين ثلمها وشق طريق منها .

وكيف لا يخاف ابن الصدّيق بطلان ما يريد الثائرون وفي الباب من ذكرنا ، وحول الدار الزبير ومروان وسعيد بن العاص ومن معهم من الصحابة وابنائهم ، يجتلدون مع الثائرين ويتدافعون بالايدي والاكتاف ؟ في حين ان عثمان كان ينادي : انهم في حل . والحسن يتمثل ويدافع :

لا دينهم ديني ولا انا منهم حتى أصير الى طمار شمام

لقـد خـف محمد بن ابي بكر سوء المنقلب وفكر في دخول الدار من غير بابها ! . وبلغ التهوس أشده فوقع العقل فريسة له ، وانتهى الامر بالقتل ! ! !

هذه صورة عن موقف الحسن يوم قتل الخليفـة ، غير تامة الهيكل ، مجتزأة الخطوط لم يترك غيرهـا المأجورون ، ولكنها ، على كل حال ، توضح ما كان من جهاده عام خمس وثلاثين للهجرة ، يوم اتى المصريون أباه وهو في **عسكر عند** احجار الزيت فسلموا عليه وعرضوا فكرتهم الجريئة فصاح بهم وطردهم وقال : لقد علم الصالحون ان جيش ذي المروة وجيش ذي خشب والأعوص ملعونون على لسان رسول الله ..

فقد بقي الحسن ملازماً للدار غضبان آسفاً لفظاعـة حرقها ! ولكن الخليفـة المستسلم لم ينس التفكير الهادىء في اشد مواقفه حرجاً اذ لم يسمح له بالجهاد وأمره ان يرجع الى منزله تطييباً لقلب علي وخوفاً عليه ..

واشتد خوف ابي الحسن على ابي عبيدة الامين فأرسل مشدداً تعليماته لنجليـه ليلتمسا جهاد الثائرين وليحبطا كيد الكائدين بأية وسيلة كانت .. ولكن المعركة كانت قد انتهت بتدبير الغوغاء اذ تسلقوا الدار قبل ان يصل خبر جرح السبط للهاشميين كما خمن ابن ابي بكر ، فكانت الواقعـة ! ! ! فدخل الحسن وأخوه ومن معهما البيت فوجدوا عثمان مقتولاً قد مثّل به فأكبوا عليه

يكون ..

أيؤخذ من هذا ، واسوأة معاوية ، ان ذا النورين قد قتل برأي علي واولاده ؟ ام انهم كانوا الدارئين عنه ؟! على ان الخليفة ذاته لم يتهمهم ولا فارقهم تعطفه بهم ،فحرص على سلامتهم الى ان اسلم نفسه وهو يردد : أخي يا ابن أخي !.

اما ابن عباس فقد خطب يوم حصار عثمان خطبة لو شهدها الترك والديلم لأسلموا ، اذ قال فأبلغ ، حتى قال فيه حسان بن ثابت لما سمع خطبته :

اذا قال لم يترك مقالاً لقائل بملتقطات لا ترى بينها فضلا
شفى وكفى ما في النفوس فلم يدع لدى إربه في القول جداً ولا هزلا

.. ثم كان ان قتل الخليفة بشكل بشع ، وبقي ثلاثة ايام لا يدفن **وقصد ذووه علياً** ليأخذ قضية الثوار على عاتقه فيصار الى دفنه ، ففعل .. وقام الناس وقعدوا لهذا الامر ، وراحوا يرصدون الجنازة في الطريق وراء اكوام الحجارة التي أعدوها للحصب !!! وخرج بالجنازة ناس قليلون من اهله ومعهم الحسن والزبير وأبو جهم بن حذيفة ومروان ، بين المغرب والعشاء ، فأتوا به حائطاً في ضاحية المدينة حيث ارسل عليٌ من منع رجم سريره .

وقد كان الحسن في هذا العهد يتقلب بين الثالثة والعشرين والثالثة والثلاثين من عمره . وصار لا ينسى في المهمات ولا تروعه الملمات ، بل له دلو بين الدلاه لاستقامة ملكاته وسداد رأيه .

هذه نماذج فيها دلالة صريحة على مناحي التفكير عند الشاب الرشيد ، تظهر في تصرفاته الرصينة ومناقشاته الحكيمة .. فلنتصور المنزلة التي تبوأها ، والعرش الذي تربع عليه بعد ان نضجت مداركه وتمت عصاميته المحنكة .. وانه لسليل أسرة توق العلم ، قد تنقل في حجور طاهرة ، وتفرع عن اصول ثابتة ، وتسنم مجداً باذخاً ان تخمد إشراقه كثرة الروايات او قلتها ..

●

الفصل الثاني

●

١

●

يجب ان نلاحظ نقاطاً هامة ، ذات اثر فعال في ثورة الحسن ومهادنته فنقول :

اولاً : ان الرجل الذي يحارب ولا يستعمل الا ما يحل له من مذاهب التدبير ، لا يبرز في سياسة ظاهرة كمن يأتي ما يحل وما لا يحل .. لان قيم الرجال ، اذا قيست بالدهاء الماكر ، والخداع الخاتل كان للمداهن المراوب قدمٌ لا يصل اليها من له شأن في الدين او سابقة من الفضل .

وثانياً : ان المناوي، لا ينصره الا اعوانـه والا حرارتهم المنبعثة عن التوثب والطموح حيث يتخذون فكرته ويستيقنونها فتمتزج بصدر قوام العاملة وتكوّن مبدأهم لتكون مبعث حيويته . كما انه لا يخذله ويعوقه عن الفلاح الا روحهم الانهزامية،

وتفرقهم وتخاذلهم فيما بينهم ، لانه — حينئذ — يعقد الامل على جماعة يجعلون مجموع واحد وواحد صفراً ، وحاصل تضعيف الحقيقة وهماً ، ومضاعفة القوى ضعفاً وهزيمة !

فالحزب جسم اجتماعي حيّ كسائر الاجسام بسائر خواصه واجهزته . وله اعضاء ان فسد بعضها تسرب الفساد الى البعض الآخر واستفحل الخطر .. وقد كانت بعض اعضاء الجسم المتكتل حول الحسن غير سليمة كلية ، لا يؤدي كل منها وظيفته باخلاص ولا يحقق التعاون المنشود فسرت العدوى وأصيب الجسم بحمى أفقدته حيويته وأقعدته عن التقدم والاستمرار . من اجل ذلك سالم ليحفظ الفئة التي يرجى خيرها ، وحاول ، وقد رأى جسم الجماعة معتلاً ، ان ينسل مَن يحيى الجسم ويخلفه لئلا يندثر الحزب ويبيد ! .

وثالثاً : ان الحسن استقبل عالماً لا ينقاد الى زعيم ، او على الاصح استقدمه مجتمع من الخوارج لم يقرر الرضوخ الى رئيس ، مجتمع قال فيه ابوه : لا احرار صدق عند اللقاء ولا اخوان ثقة عند البلاء ، يطيع من عصى الله ويعصى من أطاعه ! مجتمع ينقدم به قلبه وتوده رجلاه ، فيفكر بقلبه ويعمل بعاطفته .. يأكل لحم الحسن ولحم ابيه ويلزمها امامَ العدو ، ويحن الى نصرتهما حنيناً ، حين تخلّي بينه وبينهما الحال ..

فليس لحزبه عقيدة شعبية موحدة متينة تفرض عليه احترام نظامه السياسي . ومن هنا كانت النكبة النكراء ، لان تقدم

الشعب يتوقف على عقيدته ومرونة اخلاقه ، الى حد بعيد ، فذلك وحده يمكّنه من الامتزاج العنصري ، والانصهار في المبدأ المشترك لتخلق فيه قوة جبارة ومنعة أية منعة ! .

والعقيدة ، بلا شك ، من اقوى العوامل في بناء الجماعة واقامة الانظمة ،وخصوصاً اذا كانت عقيدة دينية يعقبها في الاخرى عذاب او ثواب .

ورابعاً : وهو آخر ما يجوز لي ان اقوله ، بل لا ندحة لي عن عرضه ، هو ان غيرة أعداء الحسن منه واستعمالهم كل منكر لمناهضته ، وكونهم ادعياء في جميع مزاياهم ، وضعفهم في عين انفسهم ، ومركبات من النقص كثيرة ، جميع ذلك جعلهم يغضّون من جاهه ويحطون من قدره ، يصانعهم في ذلك كل من قعد به جبنه عن نصرة الحق ويشايعهم عليه عبيد الدنيا وضعفاء القلوب .. وهؤلاء واولئك كثيرون لانهم ، كلهم : كانوا يحملون تقاليد متباينة بلغت عندهم درجة التقديس .

ويجب ان نوضح مسائل اخرى - عفو السهو - تحتمها الضرورة لانها جوهرية . منها :

ان الحسن جيّش وثار ومشى الى الحرب فقعد به عدم تماثل افراد جيشه وعدم تشبعهم بروح المبدأ ، اذ بينهم المخلص والمنافق. وان من اسرار حيوية الجيش وقوته التزاوج بين عناصره المتباينة والتماثل بين افراده ، اذ ان عدم التماثل يفضي به الى الضعف والوهن فلا يثبت امام الطوارىء الخارجية التي تشل حركته ،

قوية كانت او ضعيفة . وأغلب الظن ان هـذا التباين كان حاصلاً من اختلاف قوة العقيدة الدينية عند الجيش المشار اليـه ، اذ ان الاختلاف يخفف من حدة التفاعل والامتزاج اللذين لو حصلا لجعلا منه فئة متغلبة تشترك في الاستعلاء وتوطد مركز زعيمها وتوسع دائرة سطوته وتجعله مصدر كل سلطة وسيطرة .

ومن المعلوم انه لا قوة معنوية لجيش فيه آلاف من الرجال يحملون الالآف من المطامـع والغايات . فلا يمكن ان نسمي جيش الحسن الا خليطاً يؤلف مجموعة غير قائمة بذاتها ، متفككة ، لا يجوز ان نطلق عليها لفظة جماعة لعدم وحدتها في الفكر ولتميزها عن بعضها في الغاية .

فما اصعب ان تتم الرابطة بين الجماعة في مثل هذه الحال ! لان كومة الاحجار المختلفـة الاشكال والاحجام لا يصح ان نسميها بنياناً مرصوصاً كما لا يصلح ان نسمي الجماعة الذين تحتويهم السهرة او السيارة أسرة واحـدة شديدة الآصرة .. فاجتماع مثل هذا الجيش وتكتله لا يحصلان الا اذا اشترك افراده في عمـل واحد واستهدفوا مصلحة واحدة . ولكن شيئاً من هذا لم يتوفر ، فلم تحصل قوة تؤمن الارتباط بـين العواطف وتلاشي استقلال الفرد لتحل التعاون في العمل الشاق الذي كانوا يتأهبون للقيام به .

ومنها : ان جماعة معاوية كانوا تعاونيين في الدفاع ، متشاركين في الارتزاق ، متفقين على التمتع بملذات الدنيا . فأحوالهم تقضي بائتلافهم الى حد يوم أنهم يرضخون لزعيم ، يلتفون حوله ما زال

ينثر عليهم من خزانة مال الامة ما يسد افواههم .

.. اما انه كان للحسن هدف قام في سبيله فأمر لا ريب فيه!.

واما ان صلحه لم يوصله الى غاية رسمها قبـل النهوض فمحل النزاع ..

ولادراك ذلك علينا ان نمعن النظر ونخلص النيـة في تفهم حركته لنعلم انه **قد أصاب** وحصل على تسعين بالمائة مما كان يرمي اليه على يد جيشه الماكر الذي كان أخلاطاً لم تجعل له قوة نافذة .

ولكيلا يبقى محل للظن ، سنعرض للابصار والبصائر بمجمل ما دار بـين يدي الثورة والمهادنة من مراسلات ، لئلا يضيع شيء فيه لباب .

واذ نفعل ذلك نرجو الالتفات الى ان خصم الحسن رجل قد تمكن من الدنيا وتمكنت من قلبه فصمم ان يرعاها لترعاه ، دون ان يبالي بشيء يطبّق إحداثه السماء على الارض ! . وهو خصم قرر محاربة الحسن كما حارب أباه، واعتمد مخادعة الناس كما خادعهم سابقاً لئلا يشتد أمر الحسن ويلي الخلافة فيحول بينه وبين رغائبه من دنياه الغالية التي تقبل عليه ، فاعتزم الحرب ليكيد لبني هاشم الى الابد . وكتب الى زياد بعد قتل علي يمنّيه ويهدده فغضب هذا وجمع الناس وصعد المنبر وقال :

إن آكلة الاكباد وقاتلة أسد الله ، ومُظهر الخلاف ومسرّ النفاق ، ورئيس الاحزاب ، ومن أنفق ماله في إطفـاء نور الله ، كتب اليّ يرعد ويبرق عن سحابة جفل لا ماء فيها .. وكيف

أرهبه وبيني وبينه ابن بنت رسول الله – يعني الحسن – وابن عمه في مائة الف من المهاجرين والانصار ؟ والله لو أذن لي فيه، او ندبني اليه لأريته الكواكب نهاراً ! . الكلام اليوم، والجمع غداً، والمشورة بعد ذلك ان شاء الله . ثم نزل وكتب الى معاوية :

قد وصل كتابك وفهمت ما فيه، فوجدتك كالغريق يغطيه الموج فيتمسك بالطحلب، ويتعلق بأرجل الضفادع طمعاً في الحياة. فامضِ لطيّتك واجتهد جهدك . ولن اجتهد الا فيما يسوؤك .

فأسقط في يد معاوية من الرجل فلجأ الى المغيرة وتشاورا وتهاجسا وما ادراك ما أشار به المغيرة ؟ . ثم ما ادراك بما قاله اذا علمت ان إسلامه كان لفجرة وغدرة غدرها بنفر من قومه، فتك بهم وركبها منهم فهرب الى النبي كالعائذ بالله ؟ فلم يرَ احد عليه خشوعاً ولا خضوعاً منذ ادعى الاسلام، لانه من ثقيف فراعنة قبل يوم القيامة، الذين يجانبون الحق ويسعرون نيران الحرب ويؤازرون الظالمين كما نعتهم امير المؤمنين ! . نعم انهما تسارّا واتفقا فكتب معاوية لزياد كتاباً حمله المغيرة نفسه، جاء فيه :

اما بعد فان المرء ربما طرحه الهوى في مطارح العطب . وقد حملك سوء ظنك بي وبغضك لي على ان عققت قرابتي وقطعت رحمي وبتّ نسبي حتى **كأنك لست أخي ! وليس صخر بن حرب أباك !** وشتّان ما بيني وبينك ! أطلب بدم ابن ابي العاص – يعني عثمان – وانت تقاتلني . فاعلم أبا المغيرة انك لو خضت البحر في

طاعة القوم ، فتضرب بالسيف حتى ينقطع متنه لما ازددت منهم الا بعداً ، فان بني عبد شمس أبغض الى بني هاشم من الشفرة الى الثور الصريع وقــد أوثق للذبح ! فارجع الى أصلك واتصل بقومك .. ثم وعده بالامرة والصلة ..

فأخذ الكتاب وتأمله وضحك وجمع الناس فصعد المنبر وقال : أيها الناس ادفعوا البلاء ما اندفع عنكم ، وارغبوا الى الله في دوام العافية لكم ، فقد نظرت في امور الناس منـذ قتل عثمان وفكرت فيهم فوجدتهم كالاضاحي في كل عيـد يُذبحون . ولقد أفنى هذان اليومان — الجمل وصفين — ما ينيف على مائة الف كلهم يزعم انه طالب حق وتابع إمام .. وقـد وجدت أحمد العاقبتين العافية ، وسأعمل في اموركم ما تحمدون عاقبته ومغبته ان شاء الله. ثم نزل ..

لقد لجأ الى وسائل الغدر والمخاتلة ، وقـد مالت به نفسه عن جادة الصراط السوي . واليك تفسير ما فعله مأخوذاً من جوابه اذ كتب لمعاوية :

وصل كتابك مع المغيرة بن شعبة وفهمت ما فيـه . فالحمد لله الذي عرفك الحق وردك الى الصلة . ولقد قمت يوم قرأت كتابك مقاماً يعبأ به الخطيب المدرّه ، فتركت من حضر لا اهل ورد ولا صدَر كالمتحيرين بمهمه ضل بهم الدليل وأنا على امثال ذلك قدير .

.. وان تدنُ مني أدنُ منك وان تبن
تجدني اذا لم تدنُ منيَ نائيا !.

وكتب اليه معاوية بخط يده ما وثق به . فدخل الشام فقربه معاوية وأدناه واستلحقه فجعله أخاه ! مثبتاً ان أباه قد زنى بأمه سمية بشهادة جماعة - منهم أبو مريم السلولي خمّار الجاهلية . وكان استلحاقه في مجلس بذيء يندى منه جبين الحر خجلاً ، رأينا ان نطوي ذكره إشفاقاً على نفس القارىء من التقزز والقرف ..

وأدرك الحسن ذلك كله فأطلق صرخته مستنفراً للجهاد فتثاقل الناس - وهم أهل الكوفة : أبخث الناس عن صغيرة وأتركهم الكبيرة - ثم خفوا ، ولكنهم ، للأسف ، كانوا مختلفين : فبعضهم شيعة له ولأبيه ، وبعضهم محكّمة يؤثرون قتال معاوية بكل حيلة ، كما ان فيهم اصحاب فتن وطمع في الغنائم ؟ مع ان المجتمع لا يقوى الا اذا فنيت فيه قوة الافراد واستقلالهم الذاتي ! . بل فيهم شكّاك واصحاب عصبية اتبعوا رؤساء قبائلهم لا يرجعون الى مذهب .

والحرب ليست سوى جنون اجتماعي ، يدمر اذا ساءت تصرفات القائمين بتمثيله . ولذا عمد الحسن الى توجيه الزوبعة توجيهاً عقلانياً في وقت لم يكن فيه لانصاره **مصلحة عامة** ! ومن المعلوم أنه حيث لا توجد المصلحة العامة ينعدم النظام ، لانها هي سبب كل تكتل واندماج .. نعم قد كانت تربطهم النفعية والطمع باللذة ، وتملك عليهم قلوبهم وألسنتهم ، وهذا ما لم يكن له من نصيب عند الامام ، الامر الذي ألّبهم وجعل الموثق بينهم وبينه في غاية من الضعف .. يضاف الى ذلك ان العلة في عصيانهم وطاعة

اهل الشام ، كونهم اهل نظر وذوي فطنة . ومع النظر والفطنة يكون التنقيب والبحث ، ومع هذين يكثر القدح والترجيح ، وتضارب الآراء . واهل الشام ذوو بلادة في الدين وتقليد ، وجمود على رأي واحد ، لا يرون ضرورة للنظر ، ولا يسألون عما يغيب عنهم من مبهمات المسائل . من اجل ذلك كانوا شديدي الطاعة لذوي الرياسة ، وكان العراقيون كثيري العصيان والشقاق .

وقد لجأ الحسن الى البدء بالقاء الحجة على معاوية وانصاره ، فكتب اليه : اما بعد فان الله جل جلاله بعث محمداً رحمة للعالمين ومنة للمؤمنين وكافة للناس اجمعين ، لينذر من كان حياً ويحق الحق على الكافرين ، فبلّغ رسالات الله وقام بأمر الله حتى توفاه الله غير مقصّر ولا وانٍ ، بعد ان أظهر الله به الحق ومحق به الشرك . وقد خصّ به قريشاً خاصة فقال له : وانه لذكرٌ لك ولقومك .. فلما توفي تنازعت سلطانه العرب فقالت قريش : نحن قبيلته وأسرته وأولياؤه ولا يحق لكم ان تنازعونا سلطان محمد وحقه ، فرأت العرب ان القول ما قالت قريش وان الحجة في ذلك لهم على من نازعهم أمر محمد فانعمت لهم وسلمت اليهم . ثم حاججنا نحن قريشاً بمثل ما حاججت به العرب فلم تنصفنا قريش إنصاف العرب لها .. انهم اخذوا هذا الامر دون العرب بالانصاف والاحتجاج ، فلما صرنا ، اهل بيت محمد واولياءه ، الى محاجّتهم وطلب النصَف منهم باعدونا واستولوا بالاجتماع على ظلمنا ومراغمتنا

والعنت منهم لنا ! فالموعد الله وهو الولي النصير .. ولقد تعجبنا لتوثب المتوثبين علينا في حقنا ، وان كانوا ذوي فضيلة وسابقة في الاسلام ، وأمسكنا عن منازعتهم مخافـــة على الدين ان يجد المنافقون والاحزاب في ذلك مغمزاً يثلمونـه به ، او يكون لهم بذلك سبب الى ما ارادوا من إفساده ..

واليوم فليتعجب المتعجب من توثبك يا معاوية على امر لست من اهله ، لا بفضل في الدين معروف ولا أثر في الاسلام محمود ! وأنت ابن حزب من الاحزاب ، وابن أعدى قريش لرسول الله ولكتابه ، والله حسيبك ، فسترد وتعـلم لمن عقبى الدار . وبالله لتلقينّ عن قليـل ربك ثم ليجزينك بما قدمت يداك ، وما الله بظلاّم للعبيد ..

وان علياً لما مضى لسبيله ولاني المسلمون الامر بعده **.فأسأل الله ان لا يؤتينا في الدنيا الزائلة شيئاً ينقصنا بـه في الآخرة مما عنده من كرامة .**

وانما حملني على الكتابة اليك الاعذار فيما بيني وبـين الله عزّ وجل في امرك . ولك في ذلك ان فعلته الحظ الجسيم ، والصلاح للمسلمين . فدع التمادي في الباطل ، وادخل في ما دخل فيه الناس من بيعتي ، فانك تعلم اني أحق بهذا منك ، وعنـد الله وعند كل أوّاب حفيظ ومن له قلب منيب .واتّقِ الله ودع البغي واحقن دماء المسلمين .. فوالله ما لك خـير في ان تلقى الله من دمائهم بأ كثر مما انت لاقيه به! وادخل في السلم والطاعة ولا تنازع الامر

اهله ومن هو أحق بـه منك ، ليطفيء الله النائرة بذلك ويجمع الكلمة ويصلح ذات البين .

وان أنت أبيت الا التادي في غيّك سرت اليك بالمسلمين فحاكمتك حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين ..

ووصل هذا الكتاب البليغ الى معاوية الحاذق باساليب المواربة فلم يجب الا على نقاط تهمه ويستفيد منها فائـدة شخصية اذ تثير رأي الغوغاء من ذوي الافهام السقيمة والعقليات المحدودة وتقنع الدهماء فكتب للفور : قـد بلغني كتابك وفهمت ما ذكرت به محمداً رسول الله من الفضل ، وهو أحق الأولين والآخرين بالفضل كله قديمه وحديثه وصغيره وكبيره . وقد والله بلّغ وأدّى ونصح وهدى حتى أنقـذ الله به من الهلكة وأنار به من العمى وهدى به من الجهالة والضلالة ، فجزاه الله افضل ما جزى نبياً عن أمته .. وذكرت وفاته وتنازع المسلمين الامر بعـده وتغلبهم على أبيك فصرحت بتهمة أبي بكر الصديق ، وعمر الفاروق وابي عبيدة الامين وحواري رسول الله وصلحاء المهاجرين والانصار ، فكرهت ذلك لك .. **وانك امرؤ عندنا وعند الناس غير الظنين ولا المسيء ولا اللئيم** ، وانا أحب لك القول السديد والذكر الجميـل .. وان هذه الامة لما اختلفت بينها لم تجهل فضلكم ولا سابقتكم ولا قرابتكم من نبيكم ولا مكانكم في الاسلام وأهله . فرأت الأمـة ان تخرج من هـذا الامر لقريش لمكانها من نبيها ، ورأى صلحاء الناس من قريش والانصار وغيرهم ، وسائر الناس وعوامهم ، ان يولوا من

قريش هذا الامر أقدمها إسلاماً وأعلمها بالله ، وأحبها له وأقواها على امر الله ، فاختاروا ابا بكر . وكان ذلك رأي ذوي الدين والفضل والناظرين للأمة ، فأوقع ذلك في صدوركم لهم التهمة ولم يكونوا متهمين ولا فيما أتوا بالمخطئين . ولو رأى المسلمون ان فيكم من يغني غناءه ويقوم مقامه ويذب عن حريم الاسلام ذبه ما عدلوا بالامر الى غيره رغبة عنه . ولكنهم عملوا في ذلك بما رأوه صلاحاً للاسلام وأهله ، والله يجزيهم عن الاسلام وأهله خيراً .

وقد فهمت الذي دعوتني اليه من الصلح . والحال فيما بيني وبينك اليوم مثل الحال التي كنتم عليها أنتم وأبو بكر بعد وفاة النبي ! . فلو علمت انك أضبط مني للرعية وأحوط على هذه الامة ، وأحسن سياسة ، وأقوى على جمع الاموال ، وأكيد للعدو ، لأجبتك الى ما دعوتني اليه ، ورأيتك لذلك اهلاً ! .. ولكن قد علمت اني اطول منك ولاية ، وأقدم منك بهذه الامة تجربة ، واكبر منك سناً ، فأنت أحق ان تجيبني الى هذه المنزلة التي سألتني .

فادخل في طاعتي ! ! أعاننا الله وإياك على طاعته .

وهو كتاب منمق مزوّر ، قد لعب فيه هوى معاوية ، وظهرت فيه نفسيته المهوشة : فهو يقر بالحق ، ويدافعه ويسطو عليه ، وهو يعترف بالنبي ، ويهاجمه ويجعله نبي بني هاشم فحسب ! وهو يعترف بفضل الحسن وسابقته وقرابته ومكانته ، ثم ينكر عليه حيطته على الامة ، وهو – بالاخير – يعتبره غير ظنين ولا

مسيء ولا لئيم ويجب له الذكر الجميل والقول السديد ، ثم يعتبر نفسه اكثر كفاءة لتقدمه في السن !!!

أضف الى ذلك ما يدل على التقاط الافكار من هنا وهناك وتزويق الكلام كيفما كان ، للبرهان على الحجة الواهية والدعوى الجائرة كما يتخبط المحامي في دعاوى البهتان والزور ..

وقد تأخر الحسن غن الاجابة .. وكأني به قد ابتسم وقال : انه لجميل ان ادخل في طاعة معاوية الذي هو أحوط مني على هذه الأمة ! مع انه لو استطاع لزجّها في أتون مسجور ليسد بها نهمه للذات الدنيا . واذ تأخر أردف معاوية كاتباً :

اما بعد ، فان الله يفعل بعباده ما يشاء ،لا معقب لحكمه وهو سريع الحساب . فاحذر ان تكون منيتك على ايدي رعاع من الناس ، وآيس ان تجد فينا غميزة ..

فأجاب الحسن بعد ان بدأت تظهر طلائع نفسية خصمه وتتكشف نياته : ..وصل كتابك تذكر فيه ما ذكرت ، وتركت جوابك خشية البغي عليك ، وبالله أعوذ من ذلك ، فاتبع الحق تعلم اني من أهله . وعليّ إثم ان اقول فاكذب ، والسلام .

واذ وصل هذا الكتاب حذر معاوية ان ينتهي كل شيء عند هذا الحد : فيبقى هو وأصحابه في جانب ، ويبقى الحسن وأشياعه في جانب ، كفرسي رهان . بل خشي ان يقوى امر الحسن ويقتنع الناس ببرهانه على حقه المهضوم ، فقرر إثارة الفتنة وتأليب الناس في الآفاق ، فكتب الى جميع عماله بنسخة واحدة قال فيها :

الى فلان بن فلان ومن قبله من المسلمين :

اما بعد : فالحمد لله الذي كفاكم مؤنة عدوكم وقتلة خليفتكم !. ان الله بلطفه وحسن صنيعه أتاح لعلي بن ابي طالب رجلاً من عباده فاغتاله فقتله ، فترك اصحابه متفرقين مختلفين ! ! ! وقد جاءتنا كتب أشرافهم وقادتهم يلتمسون الأمان لانفسهم وعشائرهم . فأقبلوا اليّ حين يأتيكم كتابي هذا بجهدكم وجندكم وحسن عدتكم ، فقد أصبتم بحمد الله الثأر ، وبلغتم الأمل ، وأهلك الله اهل البغي والعدوان ! .

فمن هو العدو يا معاوية ؟ ومن هو علي بن ابي طالب الذي تحمد الله على قتله وتعد ذلك من لطف الله وحسن صنيعه ؟ !. ومن هم الاشراف الذين كتبوا لك مستجيرين من ظلم الحسن الى الآن؟ ولمن تجند ، لتقتل الامة وتضربها ببعضها أم لتوحد كلمة المسلمين ؟ ومن هم اهل البغي والعدوان ؟ ! !

انه ، دائماً ، يلجأ لقميص عثمان ؟ ولمَ الجهد والجند وحسن العدة ما زال القادة وجميع الاشراف قد كتبوا له ؟ . ليحارب الحسن وهو فرد يكفيه واحد ؟ دائماً قميص عثمان ! مع ان عثمان استمده يوم الفتنة فبعث — معاوية — يزيد بن أسد القسري في جيش وقال له : اذا أتيت ذا خشب فأقم بها ولا تتجاوزها. ولا تقل : الشاهد يرى ما لا يرى الغائب ! فانني انا الشاهد وأنت الغائب !!! فذهب الرجل وأقام بذي خشب حتى قتل الخليفة فاستقدمه معاوية بالجيش ليدعو الى نفسه . وان ابن عباس كتب اليه بعد الصلح

وكان قــد اتهمه بخذلان عثمان : وأقسم بالله لأنت المتربص بقتله والمحب لهلاكه والحابس الناس قبلك عنـه . ولقد أتاك كتابه وصريخـه يستغيث بك فما حفلت به ، فقتل كما كنت اردت ، ثم علمت ان الناس لن يعدلوا بيننا وبينك فطفقت تنعى عثمان وتلزمنا دمه وتقول : قتـــل مظلوماً ! . فان يكُ مظلوماً فانت أظلم الظالمين . ثم لم تزل مصوّباً ومصعّداً او جاثماً ورابضاً تستغوي الجهّال وتنازعنا حقنا بالسفهاء .

.. وبلغ الحسن خبر مسير معاوية الى العراق ، فتحرك رغم كرهه الشديد للسيف والفتن . ثم بعث حجر بن عدي فامر العمال بالتهيؤ للمسير . ونادى المنادي ، في الكوفة ، للصلاة جامعـة ، فاقبل الناس يثوبون ويجتمعون ، وصعد الحسن المنبر ، وهو يتخوف خذلان المتشوّفين من بعيد ، وحمد الله وأثنى على رسوله وقال : ان الله كتب الجهاد على خلقه وسماه كرهاً ، ثم قال لأهل الجهاد من المؤمنين : اصبروا ان الله مـع الصابرين .. فلستم أيها الناس نائلين ما تحبون الا بالصبر على ما تكرهون .. ان معاوية بلغه أنا كنا ازمعنا المسير اليـه فتحرك . لذلك اخرجوا ، رحمكم الله الى معسكركم بالنخيلة حتى ننظر وتنظرون ونرى وترون .. فسكتوا ولم يُسمع لهم حس ولا حسيس ، لان تحريك مثل هذا الجمهور الهادىء اللامبالي بالدين يتوقف على عقليـة افراده وقوة تفاعلهم وانسجام رغائبهم . وما أبعـد هؤلاء عن التأثر ، لانهم لا يعقلون ولا يعون ، ولأن الحسن لا يستعمل ما يحرم عليه

استعماله من الالفاظ ليحرك العواطف . وهو ، وان كان يعلم جيداً ان الامور العاطفية تحرك النفوس اكثر من الحقائق العلمية العقلية ، بعيد عن الاسفاف وبعيد عن إغرائهم بطريقة غير مشروعة او محرمة .. فقضيته أقرب الى العقل منها الى القلب وأقرب الى الآخرة منها الى الدنيا ، فلم تضرب خطبته على العاطفة ولم يرجع ثمة الصدى لان السامعين كانوا ينظرون بافواههم المفتوحة ويفكرون بآذانهم ، وأعينهم تدور في رؤوسهم كمن اصابه المس.

وعقول الفئات المنحطة أليق بقبول المحاكاة التي لا تحتاج الى حكم عقلي ولا الى ارادة . اذ يجرها الخطيب الى ما لو حاكمته ، لرأت فيه سفهاً وجنوناً ! . وحاشا للحسن ان يكون ذلك الخطيب ، وحاشا لجماعته ان يكونوا من الفئات المنحطة او من الفئات الطيعة .

لقد انبرى عدي بن حاتم ، حين رأى سكوتهم ، فقال :

سبحان الله ما أقبح هذا المقام ! ألا تجيبون إمامكم وابن بنت نبيكم ؟ ! . أين خطباء مضر الذين ألسنتهم كالمخاريق في الدعة ، فاذا جد الجد فروّاغون كالثعالب ؟ . اما تخافون مقت الله ولا عيبها وعارها ؟ ثم استقبل الحسن وقال يخاطبه : أصاب الله بك المراشد وجنّبك المكاره ووفقك لما تحمد وروده وصدوره . قد سمعنا مقالتك وانتهينا الى أمرك وسمعنا لك وأطعناك فيما قلت وما رأيت ، ، وهذا وجهي الى معسكري ، فمن أحب ان يوافيني فليوافِ .. ثم انصرف الى مكان التجمع الذي عينه الامام .

ونهض قيس بن سعد بن عبادة الانصاري ، ومعقل بن قيس الرياحي ، وزياد بن صعصعة التيمي فأنّبوا الناس ولاموهم وحرضوهم وتوجهوا الى الحسن بالاجابة والقبول ، فقال لهم : صدقتم رحمكم الله . ما زلت أعرفكم بصدق النية والوفاء والقبول والمودة الصحيحة فجزاكم الله خيراً .

ونشط الناس للخروج ، فذهب الحسن الى المعسكر ، واستخلف على الكوفة المغيرة بن نوفل بن الحرث بن عبد المطلب وامره ان يستحث الناس ويشخصهم الى حيث يلتئم العسكر ..

وبدأ فصل ثان من الرواية في عمر الدين : **فصعد معاوية ايضاً مسرح التمثيل ليقوم بدور جديد مع الخليفة الجديد بعد ان أتم الدور الاول مع أبيه !** . وأزيح الستار عنه يفتتح الدور بدسّ رجل من بني حمير الى الكوفة ورجل من بني القين الى البصرة يكتبان اليه الاخبار ، فأحس الحسن بوجُلي الطابور الخامس ، وكان قد اضطلع جيداً بالامور وعرف مكائد معاوية ولم يغفل عن مهمته الخطيرة ولا تبعاتها الثقيلة ، فبث العيون والارصاد في البلاد ، ودُل على الحميريّ والقيني فأمر باستخراج الاول من عند لحام او حجام بالكوفة فأخرج وضُربت عنقه ، وكتب الى البصرة باستخراج الثاني من بني سليم وأمر بضرب عنقه فأخرج وضربت عنقه ايضاً جزاء بما أسلف . وكتب بعدها الى معاوية :

.. انك دسست اليّ الرجال ، كأنك تحب اللقاء ! لا أشك في ذلك ، فتوقعه ان شاء الله . وقد بلغني انك شمتّ بما لم يشمت

به ذو الحجى (لان علي !) وانما مثلك في ذلك كما قال الاول :

فإنا ومن قد مات منا لكالذي
يروح فيمسي في المبيت ليغتدي
فقل للذي يبغي خلاف الذي مضى
تجهزْ لأخرى مثلها فكأنْ قدِ

وكان قد اجتمع للحسن جيش عظيم وعـدة حسنة ، فأوفد عبيد الله بن العباس بن عبد المطلب في شرطة للجيش قوية ، وقال له : يا ابن العم ، اني باعث اليك اثني عشر الفاً من فرسان العرب وقراء مضر ، الرجـل منهم يزيد الكتيبة ، فسر بهم ، وألن لهم جانبك ، وابسط لهم وجهك ، وافرش لهم جناحك ، وأدنهم من مجلسك فانهم بقيـة ثقات المؤمنين . وسر بهم على شط الفرات ، واقطع الشط حتى تصير بمسكن ، ثم امض حتى تستقبل بهم معاوية ، فان انت لقيته فاحبسه عن التقدم حتى آتيك فاني على إثرك وشيكاً . وليكن خبرك عنـدي كل يوم . وشاور هذين (قيس بن سعد وسعيد بن قيس) . واذا لقيت معاوية فلا تقاتله فان فعل فقاتله . وان أصبت فقيس بن سعـد على الناس وان أصيب قيس فسعيد بن قيس على الناس ..

انه الامير يعطي التعليمات لقائد الفيلق ! . يرسم خطط الهجوم والدفاع ، ويعطي الاوامر الحكيمة ، ويعرّفه العلاقة بينه وبين افراد جيشه : فما أروع ان يلين القائد جانبه ويبسط جناحه فيلمس فيه افراد جيشه ديمقراطية تقربه من افئدتهم وتبعثهم سراعاً لتنفيذ

اوامره !.

وهو يحذره البغي، ويأمره برد العدوان ويطلب اليه الاخبار ليبعث اليه بالاوامر التي تخلقها الظروف وتلائم المناسبات، ليشترك معه في تحريك قواه تحريكاً رشيداً خصوصاً ومع عبيدالله نساك مضر ومتعبدوها..

وقد سار عبيدالله متنقلاً بين سينور وشاهي فالفرات فالفلوجة فمسكن.. وسار الحسن بالفيلق الثاني بطريق حمام عمر فدير كعب فبكر، الى ان نزل بساباط دون القنطرة.. ونادى منادي الصلاة صبحاً فاجتمع الناس وصعد الحسن المنبر وقال بعد الحمد والثناء:

اما بعد، فوالله اني لارجو ان اكون قد اصبحت بحمد الله ومنه وانا أنصح خلقه لخلقه. و.١ اصبحت محتملاً على مسلم ضغينة، ولا مريداً له بسوء ولا غائلة. ألا وان ما تكرهون في الجماعة خير لكم مما تحبون في الفرقة. ألا واني ناظر لكم خيراً من نظركم لانفسكم، فلا تخالفوا أمري ولا تردّوا على رأيي. غفر الله لي ولكم وأرشدني واياكم لما فيه محبته ورضاه ان شاء الله.

وأسيء فهم نيته، فأولها بعض السامعين على غير حقيقتها. فما ترجل عن المنبر حتى هاجوا واشتوروا في إلغازه وظنوا فيه الظنون، فعلت اصواتهم (كفر والله الرجل!) واستحكم التمرد من القلوب ونفث الشيطان في الصدور، وكانت ثورة عاصفة اسفرت عن انتهاب ثقله وامتعته حتى انهم اخذوا مصلاه من تحته!.

وتجرأ عليه عبد الرحمن الأزدي فنزع مطرفه عن عاتقه ، وهو في حلمه أثبت من الرواسي ، لا تثيره نزوات الشياطين ، تلك النزوات التي اعتادها كوفيّو أبيه ..

وفيما هم يلغطون صرخ صارخ : ألا ان قيس بن سعد قد قتل !. فهاج الناس وانتهبوا امتعة بعضهم ، حتى انتهبوا سرادق الحسن ونازعوه بساطاً كان يجلس عليه ، وحتى طعنه بعضهم وهو ساجد يصلي ! . فقام وخطب في الناس قائلاً : يا أهل العراق ، اتقوا الله فينا ! . فانا أمراؤكم وضيفانكم . ونحن اهل البيت الذين قال الله تعالى فيهم : انما يريــد الله ليذهب عنكم الرجس اهل البيت ويطهركم تطهيراً . فبكوا ! . والغريب انهم بكوا ، فما بقي احد منهم الا وبكى ! . ولكن الحسن لمس فيهم هذه المداهنة الخاتلة فكرههم كراهية شديدة وركب قاصداً القصر الابيض في المدائن .

واذ هو في الطريق تمطى رجل يقال له جراح بن سنان وتطاول فقـال : الله اكبر يا حسن ! أشرك ابوك ثم اشركت أنت ! وتجسمت في هذا الملعون نفسية الخوارج القذرة ، وسيطرت على مخيلته المنحطة فكرتهم الخبيثة فتقـدم منه وطعنه بمعول كان معه فأصاب فخـذه ! . وتناوله الحسن بصمصامه فرماه الى الارض ، واستلمه الاصحاب فقطعوه إرباً إرباً بعـد ان خضخضوا بالمعول جوفه وشوهوا في خلقه وأذاقوه أمرّ التمثيل والتنكيل .

ألا ان الناس ما اجتمعوا الا وأشبهوا الاطفـال في حركاتهم وفوضاهم ! . وما على من يريد ربحهم الا ان يعدهم باشباع شهواتهم ،

فيصم اسماعهم دون صوت العاقل ونصح الناصح ووخز الضمير ؟ ! فالجمهور ، حال تحمسه ، يصبح من أحط انواع الجماعات عقلياً وأدبياً ..

فهل يستجيز الحسن ان يعدهم باشباع شهواتهم ؟ وهل يصم اسماعهم دون صوت العاقل ونصح الناصح ووخز الضمير ؟! أم هل ينطق بغير الحق ليوجه هذه الجماعات المنحطة ؟ ! لا ، لا . انه لم يجد غير تركهم والتعويج على المقصورة البيضاء في المدائن **ليداوي فيها جرحيه : الجسدي والنفسي !**

وقد طال به المقام هناك على هذه الحال . فقال المختار بن ابي عبيد لعمه سعيد بن مسعود الثقفي (والي المدائن من قبل الحسن) : هل لك في الشرف والغنى ؟ فقال عمه : وما ذاك ؟ قال : تأخذ الحسن فتقيده وتبعث به الى معاوية . فأجابه عمه : عليك لعنة الله ، وقبّحك وقبح ما جئت به ! . أغدر بابن بنت رسول الله وأثب عليه فأوثقه؟ بئس الرجل انت ! .

أولئك قوم مراكزهم الدماغية ضعيفة لا تسيطر على عواطفهم ، بل تجعلهم عرضة لتأثير الايهامات ، فكيف يتأتى لهذا لهذا الطهر الطاهر العيش معهم !

.. وقد أخذت دورة المشاكل الطبيعية تتجدد ، وأخذ التاريخ يعيد نفسه اذ وصل معاوية ونزل في قرية الحبوضة بازاء جيش عبيد الله بن العباس ووجه اليه بخيل ورجال يتحرشون به فضربهم عبيد الله حتى ردهم على اعقابهم فعادوا الى معسكرهم مذعورين .

ففقد معاوية الأمل بمقاومة هذه الفرقة حرباً فعمد الى خطة الخداع، وأرسل الى قائدها كتاباً يقول فيه : ان الحسن قد ارسلني في الصلح ، وهو مسلّم الامر اليّ . فان دخلت في طاعتي الآن كنت متبوعاً والا دخلت وانت تابع . ولك ان أجبتني الآن ان أعطيك الف الف درهم أعجل لك في هذا الوقت نصفها ، واذا دخلت الكوفة النصف الآخر ..

لا تعجب من بذل معاوية من مال الامة ، فانه طالب متعة ، وهذه تكلف ثمناً رفيعاً لا يحسب له طالبها حساباً مهما استنفد من مال ! .

وراودت العُبيدَ نفسه الخبيثة والألف الف درهم ، لانه رجل قد ضعف فيه رباط القرابة ، وقوي فيه رباط التحالف مع أنانيته ونفسيته اللئيمة الغادرة . فاتجه بأمله الى معاوية يظن السلامة الدنيوية كلها مضمونة له في سلطانه .. وقد وازن بين الفاقة واليسر ، وقارن بين حال وحال ، وما هي الا خفقة ناظر او خطرة فكر ، حتى خلع الطاعة وانصاع لغيه ، يقوده شيطان النفس متخذاً الليل جملاً ، ثم انخرط في جيش العدو مصمماً ان يستجيب لدعوة معاوية الذي قتل قائده ، (بسر بن أرطاة) في اليمن اولاده !!!

فعدم تشبعه بروح الفكرة التي يعترك مع خصمه وقاتل اولاده من اجلها ، قد قربه من الكائنات المنحطة التي ما ان تشعر بقوتها منفردة حتى تتمرد لان ملكة المقايسة والتفكير تكون عندها في غاية من الضعف ..

.. وافتقد العُبَيدَ اصحابه فلم يجدوه، فصلى بهم قيس بن سعد بن عبادة وخطبهم وثبتهم وأمرهم بالصبر والنهوض بهذا العبء الثقيل ونال من عُبيد، فاجابوا بالطاعة والتهبوا حماسة ولم يقعد الجبن بواحد منهم، ولا تسرب الخوف الى قلبه. وطلبوا من قيس لقاء العدو فاستجاب لرغباتهم ونزل بهم فرآهم الشاميون، وخرج بسر بن أرطاة ليتم الخديعة التي بدأها سيده وصاح: يا أهل العراق! ويحكم! هذا أميركم عندنا قد بايع، وإمامكم الحسن قد صالح. فعلى مَ تقتلون انفسكم؟.

انه لكاذب.. ولكنه قد دب وهمُ الصرخة في افئدة ضعفاء الايمان منهم، فزعق قيس بن لعبت بهم الظنون: إختاروا احدى اثنين: إما القتال مع غير إمام وإما ان تبايعوا بيعة ضلال. فاجابت فئة منهم: بل نقاتل بلا إمام. وخرجوا فضربوا أهل الشام حتى ردوهم الى مصافهم.. وقالت فئة اخرى: بل نختار الدخول في طاعة إمام ضلالة وذهبوا فبايعوا معاوية.

وبالحقيقة ان مال معاوية ودنياه قد ضما اليه قوة وأعواناً يخدمون مطامعه بامانة. ولا بدع فالمال قوة العمل، بل ان العمل قوة متبلورة في النقد. وبذل المال إفلات للقوة من عقالها، وادخاره حشد للقوة في قنبلة تقاس طاقتها بمقدار كثرته او قلته. وقد رأينا فعل النقد الاميركي، وكيف ان الدولار يصرّف شؤون الدنيا في ايامنا هذه.

. فلم يتوانَ الحسن عن قضيته في الواقع، بل استقبل

خصمه بكتائب امثال الجبال ، لم يتردد عمرو بن العاص ان يقول اذ رآها : اني لأرى كتائب لا تولي حتى تقتل أقرانها ! . ولكنها – للأسف – كانت وحدات متفككة تؤلف جماعة متقطعة ذات حركات متعارضة مختلفة الاغراض ، مما أدّى الى تشتيتها وضعفها امام قوى الخصم الموحدة. وكان معاوية ينظر الى الكتائب، مدركاً هذه المعاني ومفكراً مع صاحبه بوجه الحيلة .. ولذا أوفد من يدعو له قيساً ويمنيه ، كما فعل مع سلفه الصالح ، فاجابه قيس : لا والله لا تلقاني الا وبيني وبينك الرمح والسيف ! فضاعت المحاوله وفشلت الاماني ووهت الاحابيل لدى القائد المنيع الذي يهدد جموع الشاميين ، فكتب اليه معاوية :

أما بعد ، فانك يهودي ابن يهودي ، تشقي نفسك وتقتلها فيما ليس لك . فان ظهر أحب الفريقين اليك نبذك وعزلك واستبدل بك غيرك ، وان ظهر أبغضهم اليك نكّل بك وقتلك . وقد كان ابوك وتّر قوسه ورمى غير غرضه فاكثر الحزّ وأخطأ المفصل ، فخذله قومه وأدركه يومه فمات بحوران طريداً غريباً والسلام .

فطالع قيس الرسالة وكال لمرسلها بالصاع ذاته اذ قال :

أما بعد ، فانك وثنٌ بن وثن . دخلت في الاسلام كرهاً وأقمت فيه فرَقاً وخرجت منه طوعاً ، ولم يجعل الله لك فيه نصيباً . لم يقدم إسلامك ولم يُحدث نفاقك ، ولم تزل حرباً لله ولرسوله وحزباً من احزاب المشركين وعدواً لله ولنبيه وللمؤمنين من عباده .. وقد ذكرت أبي ، فلعمري ما أوتر الا قوسه ولا

رمى الا غرضه فشغب عليه من لم يبلغ كعبه ولم يشق غباره . وزعمت اني يهودي ابن يهودي وقد علمت وعلم الناس اني وأبي من اعداء الدين الذي خرجتَ منه ومن انصار الدين الذي دخلتَ فيه وصرت اليه . والسلام . فثارت حفيظة معاوية وهمّ باجابته فمنعه مشيره عمر بن العاص وحذّره أشد من الأول ، واستمهله طمعاً بأخذه خدعة قبل محاولة أخذه عنوة .

وبينا كان قيس يتبادل الشتائم مع معاوية ، وبينا كانت النفوس تتحفز للنزوان ، كان جماعة من رؤساء القبائل يكتبون الى معاوية بالسمع والطاعة في السر ويستحثونه على المسير نحوهم ويضمنون له تسليم الحسن اليه عند دنوّهم من عسكره ، او يكفلون له الفتك به !

فكيف نكفل نجاح المبدأ الأصلح في أمة فاسدة وفي نزاع يقوم به ناس ليس لهم رأي حصيف ولا ارادة تنفذ الرأي الحصيف؟ أم كيف نحقق الآمال الجسام على أمة ليس لها نضوج الامة التي بلغت درجة التماثل والتكاتف ؟ .

ذلك ما لم يستطع قيس تحقيقه يوم رأى سلفه يهيم على وجهه في سبيل الدنيا فكتب للامام يخبره باستسلام عبيد الله ويذكر له المال ، فقرأه الحسن وأدرك تخاذل القوم ، وذكر تكفيرهم له ، وعرف فساد نياتهم ، وخبر طواياهم ،فلمس غدرهم واختلاف رأيهم فشعر بضيق المخرج وحراجة الموقف . خصوصاً وقد اتصل به ما عزم عليه خونة الخوارج من تسليمه الى معاوية ! فلم يبقَ معه

ممن يأمن غائلته سوى ثلة قليلة من شيعته ومحبيه .

.. وتوالت كتب معاوية بطلب الصلح ، تدعمها حرب أعصاب أثارها في ركبكي اليقين ، فازداد الموقف تعقداً ، اذ ارسل الى الحسن بكتب الناكثين الذين ضمنوا له النهاية المحتومة .. ودب الشقاق الى جانب النفاق وهانت الآخرة في العيون بمقدار ما عظمت فيها الدنيا ، لان دين الناس كان يومئذ لا يزال محفوفاً بخرافات وضلال الجاهلية !.

فلله أبو محمد ما أشد ظلم الناس له !

ولله جزاه التبعات التي يُحمله اياها معوجُّو السليقة كلما ذكروه وذكروا فتنة معاوية ومهادنة الحسن ! .

لله كل ذلك ولتمحيص المحصين وفي ذمة المقصرين ! فقد صغرت الدنيا في عينيه بمقدار ما عظمت في أعينهم فاضطر الى ان يُحمل على الصلح حملاً فيشترط لنفسه ولشيعته ولكافة الناس .. وأحرِ به ان يكره الكوفة وان يغادرها قبل ان يمضي على وفاة أبيه الشهران ، مشيعاً بالبكاء والعويل ! .

أجل قد انصرف الى المدينة ، وهو اذ ذاك في الثامنة والثلاثين من عمره ، فأقام هناك تسع سنوات ونصف السنة تقريباً .. ودخل معاوية الكوفة بعد الصلح ، لخمس بقينَ من شهر ربيع في سنة احدى واربعين ، بعد ان اضطرت سياسته ومواربة أهل زمانه الحسن الى الخروج بعياله وحشمه ..

وقد تهدأ العاصفة ولكن الدعوة المتركزة في القلوب تبقى

نزاعاً دائماً وان سترته الهدنة ونقلته من نزاع صائت الى نزاع صامت وضع الحسن أسسه لأخيه الحسين بعد معركة الاريحية والنفعية ، وانتحى عن عالم زائف ، وسكن هناك ودعوته في عين عدوه قذى وفي حلق خصمه شجى ، لان عدوه كان دائب السهر على حفظ أمره بالوسائل المباحة والمنكرة ، في حين ان الامام الزكي كان هادىء النفس مرتاح الضمير ، قد قام بواجبه المحتم ، وراح ينظر من وراء الغيب الى وقعة كربلاء !!!

●

- ٢ -

●

التفاهم والتعاون مع الجماعة مظهران عظيمان للعقل المتفوق ، لانهما وسيلتان لكسب عطف المجموع ، وللسماح بالفكر لان ينطلق فيعمل على ضوء الحقيقة والوجدان ، ولانهما طريقان للانصياع كليةً الى الحق .. والانسان الذي يبتغي الاستمرار في التقدم ، يتعمد التصادم احياناً طمعاً بانقلاب ينشأ عنه اصلاح . ذاك ان الاصطدام الذي حدث بين جماعتين لا بد ان يُصلح المتعنت ، ويدفع المجتمع الى الامام .. ولولا ذلك لقعد الحسن ، ولما هزّ

رمحاً ولا سلّ سيفاً . فقد أجرى التجربة فنجحت كما سنرى ، ثم قعد حين رأى الاصلاح التام غير ميسور ، وعمل بطريقة سلبية اعطت آثاراً مرموقة . ولو انه أخلد الى السكينة لانتكست الدعوة ولعادت فكرة « لا والذي يُحلف به لا جنة ولا نار » الى رأس معاوية ، ولبطل الأذان وتلاشى الاسلام رويداً رويداً ، وبالاخير يفلس الحسين ولا يجد ناصراً من السبعين ..

والناس ، غالباً ، يردّون الامور الى الظروف ، لان البيئة شديدة التأثير في الانسان من الناحية الحيوية (البيولوجية) . ولكن الانسان من الناحية الاجتماعية هو الذي يغير البيئة ويجعلها خاضعة لفكره ومستنبطاته لانه يقهر الطبيعة ويجعل قواها مداداً لقوته .. وقد كان الحسن يخضع للبيئة مرة ، ويُخضعها له مرة ثانية ، بمعنى انه كان مرناً مع ظروفه يأخذ منها ويعطيها لتستقيم دعوته ولتقف على قدميها فيقيم حقاً او يبطل باطلاً .

وخير أداة يستعملها المهادن هي ملاحظة صلاح شروط المهادنة او فسادها ، وهي التثبت لفرض ما يكفل تبرير مسالمته وحفظ مصلحته .. فما الذى يمنع الحسن من المهادنة ، والشروط كلها وفق رغبته ؟ . انه لا ينزع ، بطبيعته ، الى الشر ، ولا يطمع بالدنيا ، بل يهدف الى تحقيق المبادىء التي تلقنها في مدرسته الاولى . وما ذنبه اذا قال فصدق ووعد فوفى ، ثم قال غيره فكذب ووعد فأخاف ؟ هو ، وأيم الحق ، ذنبنا نحن اذ نخطيء فهم الحقائق والامعان في مثل هذه المسألة الدقيقة التي تستلزم التجرد والانصاف .

فيجدر بنا الانتبـاه الى النقطة التي كانت محور الصراع ، والى النتيجة التي انبعثت عنه ، ثم نتخـذ بعدها رأياً شخصياً . او لا نتعجل القول ، ولا نتفهم الامور ، بل نرسل الآراء زائغـة ، ونسلم بعدم مغدورية الحسن – والعياذ بالله – كما فعل الاسلاف من الضالين المضلين .

وليت شعري ، هل تلائم الشروط – النتائج – الاهداف – الاسباب – التي من اجلهـا اختصم الرجلان ، ام تختلف عنها ؟ . فاذا تدابرت كان الحسن حقيقاً باللوم وكنا جديرين بان نقرر تهاونه ونرسل ذلك ارسال المسلّمات ، واذا تلافت معها وزادت عليها فقد قطعت جهيزة قول كل خطيب .

أفلم يعتصم الحسن الى آخر الشوط برأيه وبشروطه للمسالمة ؟ أو لم تكن الشروط وفق رغبته كمصلح بـين فئتين مختصمتين ؟ أو لم يعرض عليه معاوية فوق ما طلب ؟ .

لا يعرف الناس من سيرتـه الا انه خرج على معاوية ، ملك الزمان ! واذ خانه اصحابه بايع وترك الامر وعاد الى المدينـة ! . هذا ما اشتهر بينهم عن نتائج تلك الثورة المباركة . أما ان معاوية داهن في الناس وفي الدين ، وأما انه راوغ وتعهد فنكث ، وأما انه مزق شمل الامـة وبدّد ما في بيت المال للاستعلاء وللتأمر على رقاب الناس ، وأما انه فعل ما يجوز وما لا يجوز في العرف وفي الدين ، فهـذا كله قد خرس امامه الرواة وصموا وتعاموا وضلوا فلم يذكروا عنـه قليلاً ولا كثيراً اللهم الا : رضي الله تعالى عنه

لقد اجتهد فأخطأ وله حسنة على كل حال ! ! !

فأين وجه الحقيقة السافر اذن ؟ وأين الحق الذي لا مراء فيه ، والذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ؟ . سيراه القاريء بنفسه بعد ان يرى ما سبق الهدنة وما لحقها وما رافقها من شروط ، واني ، اذ اذكر الشروط ، اترك للناس حرية التفكير والتأمل واختيار الحكم . ولكني الفت النظر الى شيء هام : وهو انه ما **اختلفت دعوتان الا وكانت احداهما ضلالة حسب تحتيم العقل** . وقد كان لنزاع الامام مع معاوية مظهران مختلفان ، أولهما مادي جربه فلم يجد النصر بواسطته ميسوراً وثانيهما روحي عقلي لجأ اليه واتخذه سلاحاً يقوّم به ما اعوجّ من العقائد التي تقمصتها نفوس معاصريه ، فاشترط لنفسه وقبل بشروط غيره وهو يعلم ان المجتمع الطالح لا تهدمه الا الثورة : مادية كانت او فكرية . **فقد رأى اشعال الثورة الفكرية ، وفسح المجال ليفهم الناس الحقيقة في مدى التعقل الفردي** ، ليتغلب الفكر على تهوس المتهوسين ويتساط على هيلمة المهيلمين .

واني أرغب في التنبيه الى شيء خطير : وهو ان الحسن كان حريصاً على ما شخص من أجله الى آخر لحظة ، وان معاوية كان سخياً بالشرط على نفسه الى ابعد حد ، حتى انه بعث اخيراً للحسن بورقة بيضاء موقعة منه ليسجل عليها ما شاء له عدله وما سمحت به أمانته لقضيته . ذاك ان معاوية لا يرى ثمة فارقاً في ان تكون الشروط مرضية او قاسية اذ صمم ان ينكث فور سماع كلمة الرضا

من فم الامام كما سيبدو! . وهي حيلة لا تعزى لبنات افكاره فقد سرقها عن تربه ابن العاص يوم التحكيم .. وأستغفر الصدق وأعوذ بالله من النكران . انها له يقيناً فقد بلغ ، بالمران ، درجة ممتازة بين من امتهنوا المكر السيء . فقد كتب الى قيس بن سعد مثلاً ، والي علي على مصر : بايعنا على علي في امرنا هذا ولك سلطان العراقين ان انا ظفرت ، ولمن أحببت من اهل بيتك سلطان الحجاز . وسلني عن غير هذا ما تحب ، وانك لا تسألني شيئاً الا أتيته ! . ولو سأله ما في بيت المال ؟ ولو سأله استرقاق النفوس ، وركوب الرقاب ، والكفر بالله ؟ ! . لا أهمية ما زال يفي اذا شاء وينكث متى شاء .

اما قيس فلم يوافقه . فكاد له طابوره الخامس لدى علي فأجبر علي على عزله عن مصر . وما أظنني بحاجة الى ايراد الامثلة ، فما على من يرغب الا ان يغوص ، ففي البحر كثير من الاسماك .. وما انا الآن بسبيل ذلك فلأذكر الشروط . وها هي مرتبة :

آ – شروط الحسن :

كتب الحسن ، وكان اذ ذاك بمسكن :

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا ما صالح عليه الحسن بن علي معاوية بن ابي سفيان : صالحه على ان يسلم اليه ولاية المسلمين :

١ – على ان يعمل فيها بكتاب الله تعالى وسنة رسول الله وسيرة الخلفاء الصالحين .

٢ – ليس لمعاوية ان يعهد لأحد عهداً ، بل تكون الخلافة للحسن من بعده او يكون الامر شورى بين المسلمين .

٣ – الناس آمنون حيث كانوا من ارض الله تعالى ، في شامهم وعراقهم وحجازهم ويمنهم .

٤ – ان يترك سبّ عليّ وان لا يُذكر الا بخير وان يُعدل عن القنوت عليه في الصلاة .

٥ – أصحاب علي وشيعته آمنون على انفسهم واموالهم ونسائهم وأولادهم حيث كانوا ، فلا يتعرض لأحد منهم بسوء .

٦ – ان لايبتغي للحسن بن علي ولا لأخيه الحسين ولا لأحد من اهل بيت رسول الله غائلة سراً ولا جهراً ، ولا يخيف احداً منهم في أفق من الآفاق .

٧ – وان يوصل لكل ذي حقه .

٨ – أن يوفر للحسن حقاً قدره خمسون مليون درهم في كل سنة .

٩ – ان يقضي له جميع ديونه .

١٠ – وأن لا يطالب اهل الحجاز والعراق بشيء مما كان ايام أبيه .

١١ – ويعطيه ما في بيت مال الكوفة وهو خمسة ملايين درهم .

١٢ – ويكون له خراج دار أبجرد بفارس او كورَين من كوَر البصرة .

وعلى معاوية بذلك عهد الله وميثاقه . وشهد عليها عبدالله بن الحارث وعمر بن سلمة وغيرهما . وكفى بالله شهيداً ..

والحسن من الذين يعرفون بآثارهم فقط . اي من الذين يفعلون اكثر مما يقولون . ولولا تدوين ما كان يقوله وتسجيل ما قام به عمداً وعن غير عمد لكان من أصعب الصعب علينا فهم ما تطوى عليه ضميره .

واما هذه الشروط فقد أنفذ فيها عبدالله بن الحارث بن نوفل بن عبد المطلب (وهو ابن اخت معاوية) وعمرواً بن سلمة الارحبي وجماعة توثقوا منه كتأكيد للحجة **فأقسم معاوية على كل ما ذكر ؟** وشهد عليها ايضاً ، بعد القسم ، عبدالله بن عامر وعبد الرحمن بن ابي سمرة وغيرهم .

وكان معاوية قد ارسل عبدالله بن الحارث الى الحسن ليفاوضه او يمهد الى المفاوضة والاشتراط فقال له ابو محمد : إئت خالك وقل له : ان انت أمّنت الناس تركت لك الامر . فأبلغ ابن الحارث ذلك لخاله فختم له طوماراً في أسفله وقال له: **اذهب اليه وليكتب ما شاء !** فما يضره ان يقول ذلك ؟ وما يهمه ما زال رجلاً زمانياً لا يهتم الا بنفسه ، بل تصغر في عينه كل فكرة لا تخدم مصالحه ! وينحط في ذهنه ويقينه كل مبدأ لا يغذي هواه ؟ ! .

وقد قيل انه ارسل - من منبج - بالورقة البيضاء المختومة مع عبدالله بن عامر وعبد الرحمن بن ابي سمرة وكتب الى الحسن : اشترط في هذه الصحيفة ما شئت فهو لك . وكان قد ارسل

بشروطه في رسالة ذكرناها سابقاً قبل انه بعث بها جندب ؟ وقيل بل سفر بها عمر بن سلمة الهمداني ومحمد بن الأشعث الكندي في شهر ربيع الآخر سنة احدى واربعين ، ونلخصها هنا :

ب – شروط معاوية :

١ – لك الخلافة من بعدي فأنت أولى الناس بها ، ولك بذلك عهد الله وميثاقه وذمته وذمة رسوله وأشد ما أخذه الله على احد من خلقه من عهد وعقد .

٢ – لك ما في بيت مال العراق من مال بالغاً ما بلغ ، تحمله الى حيث شئت .

٣ – لك خراج أي كور العراق شئت معونة على نفقتك يجبيها أمينك ويحملها اليك كل سنة .

٤ – وأن لا يُستولى عليك بالاساءة ، ولا أبغيك غائلة ولا مكروهاً .

٥ – ولا تُقضى دونك الامور .

٦ – ولا تُعصى في امر اردت فيه طاعة الله .

٧ – وان لا يُتتبع احد بما مضى .

٨ – ولا يُنال احد من شيعة علي بمكروه .

٩ – لا يُذكر عليٌّ الا بخير .

١٠ – والولاية للحسين ان حدث بنا حدثٌ .

١١ – لك خراج دار الحرب من ارض فارس ، وخراج أبجرد وبَسا ايضاً .

١٢ – ولك في كل سنة خمسون مليون درهم .

ثم تمثل كالذي يريد ان يفي بشيء فعلاً :

وان كنت أعرضت عما انت فيه وبايعتني وفيتُ لك بما وعدت وأجريت لك ما شرطت . واكون في ذلك كما قال أعشى بني قيس بن ثعلبة :

وان أحدٌ أسدى اليك أمانة
فأوفِ بها تُدعى اذا متّ وافيا
ولا تحسد المولى اذا كان ذا غنىً
ولا تجفهُ ان كان في المال فانيا

ومن تمثله بهذين البيتين يظهر لنا انه متقلقل في عقيدته الجديدة ومتعرض للتغير ، لان تقاليده القديمة **المقدسة** عنده راسخة ، تراوده عن نفسه فلا يتحايد التدهور والاسفاف :

اذا نصبوا للقول قالوا فأحسنوا
ولكن حسن القول خالفه الفعل !

فقد أعطى صاحبه عهداً ورضي بما اشتُرط عليه ، لانه يعلم ان الحسن الذي يكره الفتن ويؤثر سلامة الامة يقنع بهذا المقدار من التعهد خصوصاً وهو على طريقة ابيه القائل في بعض وصاياه :

ولا تدفعنّ صلحاً دعاك اليه عدوّك لله فيه رضى ، فان في الصلح دعة لجنودك وراحة من همومك ، وأمناً لبلادك . ولكن الحذر كل الحذر من عدوّك بعد صلحه ، فان العدو ربما قارب ليتغفل . فخذ بالحزم واتهم في ذلك حسن الظن . وان عقدت

بينك وبين عدو لك عقدة ، او ألبسته منك ذمة ، فحط عهدك بالوفاء ، وارعَ ذمتك بالامانة ، واجعل نفسك جُبنة دون ما اعطيت ، فانه ليس من فرائض الله شيء الناس أشد اجتماعاً مع مع تفرق اهوائهم وتشتت آرائهم من تعظيم الوفاء بالعهود . فلا تغدرن بذمتك ، ولا تخيسنّ بعهدك ، ولا تختلنّ عدوك فانه **لا يجترىء على الله الا جاهل شقيّ** .

وسنرى نتائج الشروط والاشتراط ، وسنرى ان معاوية والأمانة وجميع ما يتعلق بالوفاء :

هي شامية اذا ما استقلت وسهيلٌ اذا استقل يماني

ومهما أخضع الانسان الطبيعة وأدانها فانه لا يقدر ان يغير نواميسها ويمنع عوارضها ! . واذ كان الامر كذلك ، رضي الامام بما أقر به تفاعل عقليات القوم يومذاك ، وقبل بان يحيد بنفسه وباصحابه عن التيار الجارف . لان الانسان باعتباره عضو جسم اجتماعي **لا بد ان يكون محمولاً على مقاومة رغباته ومطيعاً للرغبات التي تتقرر بالاجماع** . من اجله رأى الحسن ان يكيف نفسه وفق البيئة والاجماع بقدر الامكان ليتسنى له ان يهيىء البيئة جزئياً الى التكيف ، وان يصدّع الاجماع الضال ولو بعد حين !.

فلا يصح ان نقول مع الجهلة : قد سلم الامر الى معاوية بخرَق وضياع !. واعوذ بالله من ذلك ..

- ٣ -

قيل : من الناس مَن اذا ولي عزلتـه نفسه ، ومنهم من اذا عُزل ولاّه فضله .

وقيل للحسن : من شر الناس ؟ فقال : من يرى انه خيرهم !

فالى متى نتخيل السذاجة في موقفه وننفث اللوم ولا نتورع عن التعجب ، بل لا نتعفف عن ارسال القوارص ؟! . فلم يقذف برهطه في سبيل مطامعـه ، ولا قدّم اشياعه قرابين على مذبح شهوة مرذولة ، ولم يأتِ بما يصدّع الامة ، ولكنه لمّ شملها ورتق فتقها وكثّر قلتها في عين عدوها وأقالها عثرتها بتوحيد صفوفها ، ونجاها من شبح الخوف وكوارث الثورة . فكيف عُدّت تضحيته وغيريته عليه غرماً ؟ وكيف حرمناه من ان ننصفه على مثالية أنهى بهـا كفاحاً ومهد بها الى استقرار عام ؟ مع ان حربه ، وكل حرب ، مظهر للنشاط البشري يصح ان ندرسها من أية ناحية أردنا : فعلماء النفس يدرسونها من ناحية الحالات التي دفعت اليها ، وعلماء الحياة من حيث انها ظاهرة تتصل بحيـاة الفرد ككائن ، وعلماء الاخلاق يتناولونها من جهة انها خير او شر في

ذاتها ، والروحيون يأخذونها من حيث تعينُّها وكونها لا بد منها ، اما نحن فسنلاحظها من حيث التاريخ فحسب ، اذ لو تناولناها من مختلف نواحيها تستلزم أبواباً واسعة ويضيق عنها مقدورنا ، خصوصاً عند ما نرى مظهر النشاط عند الخصمين مختلفاً متدابراً يشد بالحسن الى الناحية الروحية اكثر ما يشد ، ويشد بمعاوية الى الناحية المادية بكل ما في الكلمة من معنى ضيق او واسع .

فلحربهما أسباب تاريخية بعيدة الغور عميقة الجذور لانها قديمة التاريخ . ولها مساس اكيد في ظروفهما السابقة وإرثهما الشخصي ، وعماس يجثم في الماضي السحيق ويقوم في الحاضر وسيدوم في المستقبل ! فلم تزل الاختلافات قائمة بينهما منذ أمد بعيد ، وقد كانت تكمن احياناً كالنار تحت الرماد او تسفو عليها الريح فيتأجج ضرمها الى ان يتداركها هاشمي بسفح دمعه على الحق او سفك دمه للحق ، فتهدأ العاصفة ويخبو الوهج ، وتعود لتداوم الاشتعال تحت الرماد .

فهي حلقة من سلسلة كفاح مديد ابتدأ قبل ان ينهض الحسن لمعاوية وقبل ان يخلقا ، بل قبل دعوة النبي صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الميامين .

نعم انها حلقة مفرغة يدور فيها النزاع بين الطرفين بشكل أبدي ، ولن يقف النزاع عن دورانه الى ان يتشر الميزان ..

فيجب ان لا يغيب عنا ان من يساير الطبيعة بين يدي نضاله تاركاً لها حريتها قلبّها يندحر ، وان من يسيرها وفقاً لرغبته ومثله

العليا يكون نصيبـــه الاخفاق الظاهري غالباً . وبين الثورة والمهادنة ، ارى ان قضية الحصين قد تكشفت لأعـين الملأ ، واتضحت امام بصائر الناس بعدل نسوي معتبر ، بعـد ان كانت صفراً في الاذهان ، وقد ادرك الناس الفارق العظيم بـين نية هذا وطوية ذاك ، وأحلوا لانفسهم محاكمة القضيـة محاكمة رشيدة بعد ان خرجوا من نزاع رأوا فيه من تمادي معاوية وتطرفه في الدين وفي العرف ما أطاش الحلوم ، فاستطاعوا ان يخرجوا بحقيقة كبرى عن قيام الحسن وقعوده ، وعن أهداف كل من الحصين ومراميه ، فتطاولوا الى قدس كل منهما فأنزلوه عن عرشه ووضعوه تحت المبضع ونظروا اليه بمنظار الناقد الممحص فبدا معاوية عورة خالصة وبدا الحسن أنصع من الثلج ، وبـدا اهل العراق ومن والاهم في قيامهم كما وصفهم الحسن يوم جمع رؤوسهم وقال : « انا والله ما يثنينا عن اهل الشام شك ولا ندم ، وانمـــا كنا نقاتلهم بالسلامة والصبر فشيبت السلامة بالعداوة والصبر بالجزع . وقد كنتم في مسيركم الى صفين ودينكم امام دنياكم ، واصبحتم اليوم ودنياكم امام دينكم ! . أما وقد اصبحتم بين قتيلين : قتيل بصفين وقتيل بالنهروان ، تطلبون بثأره ، وأما الباقي فخاذل ، واما الباكي فثائر .. وان معاوية دعانا لأمر ليس فيه عز ولا نصفة فان اردتم الموت رددناه عليه وحاكمناه الى الله عز وجل بظبا السيوف ، وان اردتم الحياة قبلناه واخذنا لكم الرضا .. فناداه الناس من كل جانب : البقيه البقية .. أمض الصلح ! .

فلله مهجتك يا أبا محمد ! ولله ما تتحمله من الأذى في جنبه !!!

وأما انتم يا اصحاب — البقية البقية — فلكم عارها وشنارها ! وفي سبيل انانيتكم وجبنكم عن طلب الحق كل ما جرّه نداؤكم من ويلات تحزّ في النفوس ! . فلم يبخل الزمن عن ان يطالعنا بصور فظيعة من بني أميّة لم يقف بها خبث الوسائل ولا سقوط المقدمات للمآرب النفسية ، وقد كشف لنا عن سجلات لهم سوداء يتصاغر دونها لفظ الاثم والفاظ البهتان والغدر والزور !!! لقد لبستم عارها وتلبّسكم شنارها لانكم لم تربطكم علاقة تعاونية في دفع الباطل وإحقاق الحق ، ولم تجمعكم جامعة ترمي الى غرض بالمعنى الصحيح ، وانما كانت علاقاتكم علاقات قرابة نسب بنظر الأقربين ، وعلاقة طمع بنظر الآخرين ، او علاقة عطف على سبط محمد بنظر الغوغاء والأبعدين .. فلا تماثل في الغرض ولا انسجام في الاهداف ، الامر الذي أنتج ضعف انتظامكم وتخالف آرائكم بمقدار تخالف آراء خصومكم .. مع ان الجماعة التي لا يسيطر فيها عقل اجتماعي ولا يقودها رأي عام يوحي بالواجب الى سائر الافراد ، لا تتأتى لها سلامة الحياة ولا تتوفر لها اسباب الانتصار ..

أفلم يقل الحسن فيكم يومذاك : ان معاوية نازعني حقاً هو لي ، فتركته لصلاح الامة وحقن دمائها ؟ . وقد بايعتموني على ان تسالموا من سالمت ، وقد رأيت ان أسالمه **وان يكون ما صنعته حجة على من كان يتمنى هذا الامر** .. وانما هادنتُ حقناً للدماء وصيانة لها وإشفاقاً على نفسي واهلي والمخلصين من اصحابي ? ! .

أو لم يدوِّ بعدهـا صوت معاوية – في جلسة التنازل – في آذانكم : يا أهل الكوفة : **ما اختلف أمر امة بعد نبيها الا وظهر أهل باطلها على اهل حقها !؟** وانتبه الى هجره فندم وقال متلعثماً : الا هذه الامة فانها وانها ! ! ! ثم مخض الزبدة من فكره فاستأنف : **أتراني قاتلتكم على الصلاة والزكاة والحج ؟** لا ، فقد علمت انكم تصلون وتزكون وتحجون . **ولكني قاتلتكم لاتأمر عليكم وعلى رقابكم وقد آتاني الله ذلك وانتم كارهون . الا ان كل مال ودم أصيب في هذه الفتنة فمطلول! وكل شيء اعطيته الحسن بن علي وكل شرط شرطه فتحت قدميَّ هاتين لا أفي به !!!**

إخالكم قد باركتم لمعاوية مُثله الدنيا ؟ أم سفهتم لأبي محمد الصابر المحتسب مثاليته العليا ؟ . أحسب ، بل أقطع ، أنكم قد اعتبرتم الواقع ، كما اعتبره معاوية نفسه ، نتيجة مبرمة تحتم نصر اهل الباطل على اهل الحق اذا اختلفت الامـة بعد نبيها ! . الا الحسن فانه لم يَثر بعد ان سمع هـذا اللغو الباطل لانه ينتظر ان لا ينضح الاناء المحتقن منذ وقعة بدر الا بمثلها ! بل قلّب يديه وقال : يا سبحان الله اني لو اردت بما فعلت الدنيا لم يكن معاوية بأصبر عند اللقاء ولا أصبر عند الحرب مني . ولكني اردت صلاحكم فارضوا بقدر الله وقضائه ليستريح برٌ ويستراح من فاجر .

فلا أدري كيف نجيز لانفسنا ، بعد الاطلاع عل ذلك كله ، ان نسمي تصرف الحسن خطأ ، ونعدّ معاوية رجلاً اجتهد فتأول في حين انه يُستشم من سيرته انه قد جاهد الله ورسوله وأهل

الحق من أمة محمد ولم يتنازل عن شيء من وثنية آبائه واجداده! ولا تستغرب الكفران يصدر عن رجل عاصر النبي ، اذ ليس كل من عاصره 'عدّ' صحابياً يجوز لنا ان نقدس اسمه ونسبح بحمده وآلائه . فليس في مطلق معاصرته لمحمد ما يبرر تقديسه في حال ميله عن الصراط السويّ . فما عذر هذا الصحابي الذي يمزق شمل المسلمين من أجل ملك عضوض ، ويتقحم الخطأ والخطل ليثأر لعثمان ، حتى اذا ما استتب الامر نسي عثمان وقتلته ونسي طلحة والزبير اللذين كلفهما بمحاربة علي ليبايعهما ، وتربع فوق عرشه فرحاً بما اصاب متجبراً ، تاركاً نفسه على طيّتها وميوله على رسلها مستخفاً بالله وبكتابه وبرسوله وبرأي الجمهور استخفاف من لم تدخل دعوة محمد صيوان أذنيه ؟؟؟ ولا بدع فهو مركز الدائرة في جميع الاعمال التي ناهضت الدين في شخص الهاشميين كما كان أبوه يناهضه في شخص محمد من قبل ..

.. ويتم ابرام الصلح في ذلك الجو المضغوط .. ويلتمس معاوية الحسن ليتكلم في الناس ويعرفهم انه قد تنازل - وليبدو عيّه على زعم عمر بن العاص - الذي لا يود ان تقوم للنظام بين فرق المسلمين قائمة ، ليملك مصر وليعيش على اختلاس عواطف معاوية الذي لا يستغني عن مكائده ، لانه شخصية قامت على اختلال العلاقة بين الفئتين المتنازعتين - فنهض الحسن وقال في بديهته المعهودة :

الحمد لله الذي توحد في ملكه وتفرد في ربوبيته ، يؤتي الملك

من يشاء وينزعه عمن يشاء . والحمد لله الذي اكرم بنا مؤمنكم ، وأخرج من الشرك اولكم وحقن دماء آخركم . فبلاؤنا عندكم ، قديماً وحديثاً ، أحسن البلاء ان شكرتم او كفرتم .. ايها الناس : ان رب عليّ كان اعلم بعلي حين قبضه اليه . ولقد اختصه بفضل لم تعتدّوا مثله ، ولم تجدوا مثل سابقته . فهيهات هيهات طالما قلبتم له الامور حتى أعلاه الله عليكم . وهو هو صاحبكم وعدوكم في بدر واخواتها ، جرّعكم رنقاً ، وسقاكم علقاً ! وأذلّ رقابكم ، وأشرقكم بريقكم ! فلستم بلوموين على بغضه .. والله لا ترى أمة محمد خفضاً ما كانت سادتهم وقادتهم بني أمية .. وقد وجه الله اليكم فتنة لن تصدروا عنها حتى تهلكوا لطاعتكم طواغيتكم ، وانضوائكم الى شياطينكم .. فعند الله أحتسب ما مضى وما ينتظر من سوء دعتكم وحيف حكمكم ..

يا أهل الكوفة : لقد فارقكم بالامس ، سهمٌ من مرامي الله صائب على اعداء الله ، نكالٌ على فجار قريش ، ولم يزل آخذاً بحناجرها جاثماً على انفاسها ، ليس بالملومة في امر الله ، ولا بالسروقة لمال الله ، ولا بالفروقة في حرب اعداء الله ! اعطى الكتاب خواتمه وعزائمه : دعاه فاجابه ، وقاده فاتبعه ، لا تأخذنا في الله لومة لائم . فصلوات الله عليه ورحمته .

ايها الناس : ان أكيس الكيّس التقى، وأحمق الحمق الفجور . الخليفة من سار بكتاب الله وسنة نبيه ، وليس الخليفة من سار بالجور ، وذاك رجلٌ ملك ملكاً ثم تنخمه ، تنقطع الذمة وتبقى

تبعته .. ولو ابتغتم بين جابلق وجابرس مَن جده نبيٌ غيري وغير أخي لم تجدوه .. ان الله خلصكم من الجهالة وأعزكم بعد الذلة وكثركم بعد القلة بنا .. وان لهذا الامر مدة . والدنيا دول . والله تعالى قال لنبيه : وان ادري لعله فتنة لكم ومتاع الى حين !

ثم يشير باصبعه الى معاوية عند قوله : لعله فتنة لكم ، فيغضب هذا ويسأله : ما أردت منها ؟ فيجيبه : أردت منها ما اراد الله ! نعم : فلن يُهاج اذا ما آنفه ورِما .. وتظهر إمارات المعتبة على وجه معاوية حين ينظر الى المشير : عمر بن العاص . ويحقدها عليه ويقول : هذا من رأيك !!!

فلا تعتب على المشير يا أبا يزيد ، فقد اختارك وعصى ابنه عبدالله يوم قال له ولاخيه محمد : ما تشيران عليّ ؟ فقال عبدالله أقم في منزلك . وقال محمد : بل إلحقْ باهل الشام . فقال عمرو : أما انت يا عبدالله فأمرتني بما هو خير لي في ديني ، واما انت يا محمد فأمرتني بماهوخيرلي في دنياي ثم التحق بك يا أبا يزيد واتبع دنياه وفارق دينه وحاد عن نهج العدل لتوليه مصر لقمة سائغة . فلم يرسل الحسن لاذعة غيرها ولا لمزّ خصمه ولا قرصه ، لانه ادرك غرضاً عظيماً بهفوة معاوية ، تلك الهفوة القطيعة التي زلزلت الثقة من الصدور ، وزعزعت اول ركن من اركان عرش الامويين .. وقد انصرف عنهم بعد ان قال بمرارة : يا أهل العراق انه سخى بنفسي عنكم ثلاث : قتلكم أبي ، وطعنكم اياي ، وانتهابكم متاعي .. فان كانت جماجم العرب بيدي

يسالمون من سالمت ويحاربون من حاربت لتركتها ابتغاء لوجه الله وحقناً لدماء المسلمين ! .

ثم ماذا كان ؟ ! . كان ان جلس معاوية يبايع على البراءة من علي بن ابي طالب ! . الى ان جاءه رجل من بني تميم فأراده على ذلك فقال : يا أمير المؤمنين : نطيع احياءكم ولا نبرأ من موتاكم ! . فليعطِ المنصف الحكم الذي يقره عليه الفكر المصيب والعقل الراجح ، لئلا يظلم من جعل نفسه بخوراً من اجل غيره ، وأفنى فرديته في المجموع ليضرب المثل الطيب امام ملك بدأ يحرق الانسانية وينبش القبور بخوراً لانانيته .

فبورك بغيرية المجتبى الذي اخذ ذلك كله بعين الاعتبار ! ومرحى لمبايعته الميمونة التي انجز بها مهمة شاقة ، يوم بنى مجداً لأسرة وحفر هوة لأسرة أخرى ، ويوم اعانه خصمه على البناء وعلى الحفر اذ دخل الكوفة ودشن عهده فيها بخطب نال في بعضها من عليّ وولده فقام الحسين ليرد عليه فأجلسه الحسن وانتصب فقال : ايها الذاكر علياً . انا الحسن وابي علي . وانت معاوية وابوك صخر . وأمي فاطمة . وأمك هند . وجدي رسول الله . وجدك عتبة بن ربيعة . وجدتي خديجة . وجدتك قتيلة . فلعن الله أخملنا ذكراً وألأمنا حسباً وشرفاً قديماً وحديثاً ، وأقدمنا كفراً ونفاقاً . فقالت طوائف من اهل المسجد آمين . وقال جميع الرواة عند ذكر هذا المجلس آمين . واننا اذ نذكره نعقب بقولنا : آمين .

ومهما قصرنا في درس ظروف الحسن ، فالحق أحق ان يُتبع . فقد بايع الحسن على ملك وصدّق قول جده : الخلافة بعدي ثلاثون ، ومن بعدها يكون ملك عضوض .. وان معاوية اول ملك اسس الملك العضوض بشهادة الامام بن حنبل وغيره من سادة الامة وقادتها .

•

— ٤ —

•

قال علي : ترك الذنب أهون من طلب التوبة . وآلة الرياسة سعة الصدر . اما الخلافة فاني أحق من غيري ووالله لأسلّمن امور المسلمين ولم يكن فيها جور الا عليّ خاصة ، التماساً لأجر ذلك وفضله ، وزهداً فيما تنافستموه من زخرفه وزبرجه .

اما الحسن فلاحظ ان الفضيلة في ايامه كانت لا تجد النفوس الطاهرة لتلتصق بها . لان النفوس كانت تلمس شهواتها فقط ، مما أسقط نسبة الفضيلة ورفع نسبة اللامبالاة والرذيلة .

وقد أسفّ مؤرخوه فعلاً ، او أسفّ قارئو تاريخه اذ اعتمدوا على ظاهر ما وضعه الطاعنون ، فاتخذوا الوضع نكأة

لهم في استنباط احكام لا يقبلها الا السفهاء، أملتها روايات لم توضع الا لشهوة التجريح وتغذية الحزبية وضرورة السياسة ومسايرة الدولة الحاكمة .. فبرزت من بين الوضع والشهوة والضرورة صورة **موضوعة** تؤثر في واهمتنا الى حد نقف معه قليلا او كثيراً لنستخرج منها ما لا غبار عليه. وان الصورة في روايتها البكر، لتنصهر امام البصيرة النافذة وتحت وطأة التفكير الحر، فتذوب الغايات وتضمحلّ ويُستشف الحق دون استعصاء. فما أحوجنا الى ما يجعلنا اقرب الى العدل، واحرص على النصَفة في قضية نحكّم برقبتها عهد الامويين وما تلاه، تحكماً كان اخطر ما يكون على جوهر الحقائق في التاريخ ..

لقد كان تحفز الفريقين بالغاً، أول الامر، لرسوخ الايمان في نفوس المخلصين من حزب الحسن، ولهيام الحزب الثاني بالملك والسلطان. وكان الامر ينذر بواقعة أليمة تدع الامة اشلاء، وتضعفها في عيون اعدائها وحسادها **وتلك نتيجة لا يجوز ان تكون**. قد نظر الحسن الى يوم التجييش، فرأى فريقاً من قواده ينقض العهد ويتصل بمعاوية سراً او جهراً كما سبق، فخشي ان تتساوى كفتا القوة والمقاومة فتقترب نهاية الدين بالتقاء الجمعين. خصوصاً وهو ينطلق من الكوفة التي كانت إبان القرن الاول للهجرة اقليماً يخضع بطبيعته جميع قوى الانسان، ويؤثر على خططه ويضطره الى تحول فسيولوجي بالنظر لطبيعتها ومناخها وأمزجة اهلها، والى تحول عقلي بالنسبة الى ما تحتمه قضاياها

وفروضها . وقد علم ذلك فخطر الصلح في نفسه لأول مرة ، كيف لا والاسلام يواجه خطر أعدائه الى جانب خطر المفروضين عليه باسمه ..

فتخوّفه من انحلال مجتمعه بتاتاً ، ألجأه الى ترك الحكم ، وصرفه الى الاهتمام ببناء النفوس بناء ادبياً سامياً ، ليداري امراض الناس ويعالج آلامهم بما يسكن الاوجاع ويقرب من القوة الخلقية الرفيعة التي توصل الى الانبعاث في المستقبل : اي يوم يوجد في الناس وجدان اجتماعي صحيح ..

ولم تكن هذه الاشياء وحدها نقطة الارتكاز في اسباب الصلح ، ولن نرى هناك جميع الاسباب ، ولا نحن طويناها في بحوثنا الماضية ، ولكنها موزعة في ما ذكرناه عن بيئة الحسن وحزبه وظروفه ، وعن ظروف معاوية وبيئته وانصاره . يضاف الى ذلك رغبة الاول في تقديم عدوه الى الناس بوجهه الصحيح وعقليته الوثنية .. ولو لم يوفق الحسن بين وسائله وغايته على هذا الشكل ، لأشقى الامة واضطرها لان تعاني المر ، ولأوقف معالم التقدم ، فأفضت مقاصده الى ويلات تغير وجه الدين ! . فقد ركن الى أهون الشرور ، ورضي بالميسور ، عملاً بلا بد مما ليس منه بد ..

فالقضية نتائج مطابقة لاسبابها ، ولكنها لا يعرف لها المنطق البدائي تعليلاً لمجرد الالتفاتة الخاطفة ، لانها في عالم الابعاد غور سحيق .. فيلزم ان لا ننظر الى الحسن بالعيون المغشاة بالمنظار

الصفيق فننقصه من نسبة نجاحه ونتهمه بالاخفاق . بل ينبغي ان نبصر بالعقول التي تفكر بصفاء ، لنجد ان مهادنته قد حدّت من غرام الناس بتلك الشام ، وقد خلعت عليهم نقاباً من الفرَق والفرق .. والحسن هو القائل : من نافسك في دينك فنافسه ، ومن نافسك في دنياك فألقها في نحره .

فالامر اذن يدور حول قضية مهددة بشلّ تطورها ظاهراً ، لتباعد الناس عن الآخرة ، تناهضها قضية تتطور باستمرار لتهافت الناس على الدنيا ، بعد كبت اهوائهم مدة ثلاثين سنة (وكثّر الله خير اعراب صبروا طيلة هذه المدة !) وقد وصفهم الحسن بقوله : صحبت اقواماً الرجل منهم تعرض له الكلمة من الحكمة لو نطق بها لنفعته ونفعت اصحابه ، ولا يمنعه منها الا الشهرة وخوف السلطان .. وهذه ، لعمري ، مصيبة المصائب ، لان المرء لا مناص له عن التفاعل مع ما يصدر عن الآخرين اذ شخصية الفرد جهاز عقلي ينتج عن حركات وتفكير جميع الافراد . **والامام ككل موظف آمر ومأمور في آن واحد . فهو آمر باعتبار مركزه ، وهو مأمور باعتبار المصلحة والمناسبة . فليكن الحسن يومها المأمور ، ليسنّ للناس دستور العدل والتضحية لمصلحة كافة الناس ..**

وكيف لا يفعل ذلك وهو يذكر المشاكل التي أقلقت أباه ، فمن مشاكل الخوارج الى غزوات الجيران على اطراف العراق ، الى خروج الاشهب بن بشر البجلي ، فالأشرس بن عوف الشيباني ،

فسعيد بن قفل التيمي ، فهلال بن علفة ، فأبي مريم السعدي وغيرهم وغيرهم !!! نعم ! انه يذكر الثورات – الداخلية والخارجية – ويخشى ان يوقعه اصحابه باكثر مما أرغم اصحاب ابيه اباه به ، فاختار هدنة مؤقتة ينسى فيها الناس تقتيل بعضهم البعض ليسد الأفق في طريق جيران الدولة المتربصين بها السوء ، الناظرين الى الداء ينخر جسمها ، ويجعلها لقمة سائغة .. فهو وامثاله من اهل الحق غرباء في اوطانهم ، وما عليهم الا ان يفروا بدينهم الى الله ليعصموا انفسهم من الزلل بالصبر على المكروه الذي لا يسعهم دفعه ..

أما معاوية فقد غير خطته بعد موت عليّ ، ورفع السيف عن الناس ليضع مكانه الدرهم ، فتهاوت النفوس المريضة وتهالكت على فضم الدنيا ، فقوي قلب الحسن على إجراء ما يجب ان يكون ، لا على إنجاز ما تحب الثلة الضئيلة .

فليس قعود الحسن عن خوف او ضعف ولكنه شك بالذين يسمون انفسهم اصحابه ، وعزوف عن الشر ، وميل الى التروي لاستكمال مقومات الثورة . وقد جابه اصحابه بقوله : انتم اكرهتم ابي على الحرب ، وأكرهتموه على التحكيم ، ثم اختلفتم عليه وخذلتموه ! وهؤلاء وجوهكم واشرافكم يفدون على معاوية او يكتبون له مبايعين ! فلا تغروني عن ديني .. **فانه لم يستخف بالصلح ، ولم يفعله سراً** ، بل قرره بعد ان فكر فيه وقدره ، وعرف ان لا مندوحة له منه .. وقد قال جده خاتم الانبياء :

من سره ان يكون أعز الناس فليتقِ الله ، ومن سره ان يكون أغنى الناس فليكن بما في يد الله اوثق منه بما في يده ، ومن سره ان يكون اقوى الناس فليتوكلْ على الله .

وأما معاوية ، هو ايضاً ، فقد قرر المهادنة ، لانه خاف أن يصمد له من ندٍّ عن رغبته ، وذكر بريق عيون الهاشميين تحت المغافر يوم صفين ، وقدّر الربح مهما ضيق عليه الظرف ومهما قست عليه الشروط . لان مثله كمثل الاذكياء من المفاليس الذين يتقدمون بدعاوى زورٍ مختلفة على اثرياء متعددين ويقولون اذا سئلوا عن ذلك : لا بد ان نربح واحدة !!! ولهذا بعث الى الحسن بمن يدعوه الى المسالمة ويزهده في الامر ويمنيه كثيراً .

ولم ينس الامام النواة التي بذرها جده ، وتعهدها سيف أبيه والاصحاب ، فانتبه الى انه لم يشخص بهذه الجموع الا للذب عنها . فما باله يعمد الى ضرب المسلمين بعضهم ببعض ليكون في غدٍ إما حياً من غير مسلمين يدعو الاعاجم الى الدين من جديد ، وإما قتيلاً قد مثلوا به وبذويه؟ فرجح المهادنة بنسبة لم تدع تفكيره متأرجحاً . ولعل ابن أخيه زين العابدين قد عناه حين قال : **الرجل كل الرجل هو الذي يجعل هواه تبعاً لامر الله ، وقواه مبذولة في رضاء الله ، ويرى الذل مع الحق أقرب الى عز الابد من العز في الباطل** . ويعلم ان قليل ما يحتمله من ضرائها يؤديه الى دوام النعيم في دار لا تبيد ولا تنفد ، وان كثير ما يلحقه من سرائها ، ان اتبع هواه ، يؤديه الى عذاب لا انقطاع له ولا زوال . ذلك

الرجل نعم الرجل ، فيه فتمسكوا ، وبسنته فاقتدوا .. وما أجمل ان نُتبع ذلك بقول باقر العلم لبعض اصحابه : ماذا لقينا من ظلم قريش لنا وتظاهرهم علينا ؟ وماذا لقي شيعتنا ومحبونا من الناس ؟ ان رسول الله قبض وقد اخبرأنا أولى الناس بالناس، فتمالأت علينا قريش حتى أخرجت الامر عن معدنه . **واحتجت على الانصار بحقنا وحجتنا** ، ثم تداولتها قريش واحداً بعد واحد حتى رجعت الينا ، فنكثت بيعتنا ونصبت الحرب لنا ! . ولم يزل صاحب الامر في صعود كؤود حتى قتل ، فبويع الحسن ابنه ، وعوهد ثم غُدر به وأسلم ، ووثب عليه اهل العراق حتى طُعن بخنجر في جنبه ونهبت عسكره وعولجت خلاخيل أمهات اولاده !. فوادع معاوية وحقن دمه ودماء اهل بيته وهم قليل حق قليل ! . ثم لم نزل اهل البيت ، نُستذل ونُستضام ونُقصى ونُمتهن ونُحرم ونُقتل ولا نأمن على دمائنا ودماء اوليائنا .

وقد وجد الكاذبون الجاحدون لكذبهم وجحودهم موضعاً يتقربون به الى أوليائهم وقضاة السوء وعمال السوء في كل بلد **فحدثوهم بالاحاديث الموضوعة المكذوبة ، ورووا عنا ما لم نقله وما لم نفعله ، ليبغضونا الى الناس !** .. وكان اكثر ذلك وأعظمه زمن معاوية بعد موت الحسن عليه السلام ، فقتلت شيعتنا بكل بلدة وقطعت الايدى والأرجل على الظنة . وكان من يُذكر بحبنا والانقطاع الينا يسجن وينهب ماله او تهدم داره !. ثم لم يزل البلاء يشتد ويزداد ..

وإخال الحسن قد قال حين نظر الى الفئتين المختصمتين : أضرب هؤلاء بهؤلاء في ملك من ملك الدنيا لا حاجة لي به : ! . فليت شعري لو كان قائد الثورة غيره وربان السفينة سواه فماذا كان يسطر عنها التاريخ ؟ ! . انه ليذكر منها ما يريع الجنين في بطن أمه ، لما تنبش من احقاد وتثير من خفايا ، قد تدع الدنيا بلقعاً والدين أثراً بعد عين ! .

وأحسبه ، وقد رأى الشروط ، قوي في نفسه أحد عاملين : أيحارب والنتائج مجهولة ؟ أم يسالم والشروط طبق امانيه ؟ . وكيف يحارب واهل العراق يتهافتون على معاوية ؟ وكيف يثور وبين يديه كتب الناكثين والخونة قد ارسلها اليه خصمه ؟ ؟ الامر الذي زاد ذهنه نفاذاً بنيات القوم فقرر الموادعة بعد اجتماع المرجّحات .

وانه لا يتأتى المضي في حرب اذا لم يكن ارتباط الجماعة بسلطانها وثيقاً متيناً أفلا يُلجأ حينئذ **الى التسوية الممكنة** التي تحفظ خط الرجعة والحق العام ، وتحقق العدل او تقرب من الانصاف ؟ . **فلن يكون الحزب صالحاً الا اذا التف حول زعيمه يوافقه فكرة وقولا وعملاً** ، لانه هو الذي يمده بالقوة والنفوذ ، كالارض الصالحة تنبت الشجر الباسق ..

فلم يؤلف مشايعو الحسن قوة تحرس كيانهم ليكون لهم شيء من الأيد ، اذ بلوناهم في ثورات سابقة ولمسنا تقلبهم وتألبهم ، ورأينا تفرّقهم وتخاذلهم ، مما دعا الامام ان يجيب لما سئل : (ما

حملك على ما فعلت). **كرهت الدنيا ورأيت اهل الكوفة قوماً لا يثق بهم أحد الا ُغلب** فهم مختلفون، لا نية لهم في خير ولا شر. لقد لقي أبي منهم اموراً عظاماً. فليت شعري لمن يصلحون بعدي؟. ألا ان الكوفة اسرع البلاد خراباً!.

فصراع الحزبين كان صراع دين ودنيا. وهل تضمن الحرب للحسن النتائج التي يتوخاها؟ الجواب بعد ان عرفنا الواقع: لا. بدليل انه متثبت من نظريته مؤمن بما قرره، مطمئن الى صوابه، لم يرتَبْ بعد ان تبين، ولا شك حين فكر وقدر، لانه لا يختلف عن ابيه بالمبدأ، ولأن موقفه في موادعته كموقف ذاك بالضبط. **فالمهم في نظرهما ان تحفظ بيضة الاسلام حين لا يكون بالامكان ابدع مما كان**.. فقد ارتضى لنفسه شروطاً تصلح للأمة وتحمل الأذية منذ جلسة المبايعة وترجم ذلك اذ قال: **يتولد من احتمال الأذى البلوغ الى الغايات**. وهذه وأيم الحق، نظرية قوية في باب الصراع من اجل تنازع البقاء لان صلحه وحسن اختياره قد أتاحا للمسلمين ان يتنفسوا الصعداء بعد الفتن المستمرة ليقفوا في وجه من ناهضهم من الاجانب اذا ما اعتدوا، وليتأثروا بأساليبهم وينقلوا من علومهم اذا هم سالموا. فتبدد الهم الجاثم في آفاق المسلمين، وانقشعت الغيوم التي كانت تتلبد في سمائهم. ولولا رضاؤه وقناعته بجرح أنانيته في سبيل الغير، انقوضت دعائم الاسلام من الاساس، ولقذف بقومه الى الموت الزؤام، ولكان لثورته نتائج وخيمة أقلها استفحال امر معاوية بشكل

لا يعرف فيه الا الله فيتشفى من خصومه بإرهاب ، ثم لا يكون لدم الحسن اي ثمن ، ولا يكون من نصيبه غير اللوم ، وحاشا لأبي محمد ان يكون هناك .. أما لو ربح الحسن المعركة فانه يقيناً ، يخسر معركة التاريخ ، اذ لا يتورع احد عن فرزه من قائمة الابدال والابطال ، بل يصمونه بالتهور وقصر النظر لقضائه على دين تحمل بناته في سبيله ما تحملوا ، لان الناس كانوا فرقاً مختلفة ومن يعرف الفرقة التي ستغلب مذهبها ؟ .

فضرورة حفظ الجماعة تتصادم دائماً مع المشتهيات الفردية ، وتقيد رغبات الانسان ، وتلجم حريته .. فعلى الضمير المستقيم **ان** ينصب ميزانه لمحاكمة قضية قرر فيها الامام **السلام العام ، ليدمر الشك في أذهان الناس ولينشيء شكاً معاكساً وعقلاً جماعياً واحداً** يلاشي ما عداه من شكوك ، وليستقر في الضمائر ان الامام كان الخبير الفذ والقائد الاختصاصي الحكيم في تلك الفوضى المستطير شرها ، اذ تحامى الشر الاعظم وصدف عن الامر صدوف الأبي ، ورضي بما لا يرضاه ذوو الاطماع الدنيا ..

ولم يخف عليه تملق ابن عامر وزميله وتزهيدهما له بالامر ، وما زهدهما فيه البتة ، **ولكنه تظاهر بالرضى ليتم واجباً عيانياً امام ثورة لا يحد من نشاطها الا التضحية** . فهو أمام خصم كتب اليه ابو الحسن : قد ابتلاني الله بك وابتلاك بي . فجعل احدنا حجة على الآخر . فغدوت على طلب الدنيا بتأويل القرآن فطلبتني بما لم تجن يدي ولا لساني ، وعصبته انت واهل الشام بي

فالشيب عالمكم جاهلكم وقائمكم قاعدكم .. فلن يطيع مزاعمنا ، ولن يواجه معاوية الا بنفسية أبيه النقية التقية ، لئلا يبيد هو واصحابه ومعاوية واصحابه ، وكثير من صحابة النبي وممن دخل في الدين قديماً وحديثاً ، ولئلا تنطمس اعلام الاسلام فيصمه التاريخ وصمة لا تمحوها تمنياتنا عليه ولا يمحوها كر الجديدين ! . فلن يروق ذلك له وان راق لنا ، لانه من حملة مشاعل التضحية الذين يخشون ربهم ويخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والابصار . قد رآه رجل يطالع صحيفة فسأله : ما هذه ؟ فقال : هو كتاب من معاوية يتوعد فيه على أمر . فقال الرجل : لقد كنت على النصف منه فما فعلت . فاجابه الحسن متأسفاً : أجل ، ولكني خشيت ان يأتي يوم القيامة ثمانون الفاً تشخب اوداجهم دماً ، كلهم يستعدي الله فيم هريق دمه !!!

فما ضره اذا عمد الى إعداد جماعة مستنيرة ، يهذب من نفسها ويصقل من عقلها ؟ واذا ما مُدَّ في عمره أتمّ الاعداد والتهيئة ، والا فيدع ذلك لغيره من حماة الدعوة .

وهل يخسر ظاهراً الا الفاضل ؟ وهل يربح ظاهراً الا الماكر ؟ .

.. ولكن الطبيعة تنتقم ممن يتمرد على سننها ، عاجلا او آجلا ..

فقد نجحت قضية الحسن مع الايام .. وانتقمت الطبيعة من عرش معاوية مع الزمن .. فكان الصلح بداءة نهاية لسلطان ليس

فيه وفاء، وبدأة خلود لسخيّ لا يضيع عنده ما عاهد عليه الله ..

وما يضر الحسن وقد رأى الأنسب ففعله مهما ليمَ او عُذل ؟!! بل ما يضره، وقد أنصف مصلحته، ان يتناوله المراؤون المخادعون ؟.

وهل توهم بعض الحكماء حين قال : يشغل المرء حين يولد مكاناً من الارض طوله ثلاث اقدام، ويشغل حين يموت حيزاً طوله ست اقدام ؟ أفلا يكون مجنوناً اذا كافح وجاهد في سبيل الباطل وفي سبيل زيادة ثلاث اقدام ؟!!

●

- ٥ -

●

لصلح الحسن أثران : أثر عاجل وأثر آجل .

والأثر العاجل كان سلبياً او صدى مجتاحاً يعيد النفوس الى رعونتها الاولى، بل كان رجعاً مثيراً يتردد في الاسماع فيحرّك كوامن الأفئدة ويبعث الألم بقلوب فيها حثالة من ايمان .. وكان ايجابياً او لحناً رائقاً يترجع في نفوس ذوي المطامع فتستطير منه فرحاً لانه يغمرها بلذتي الظفر والانفلات ..

فهو صدى، مزعج على من هو مثل قيس بن سعد الذي دعي الى

بيعة معاوية فاستنكر واعتزل في اربعة آلاف فارس او اكثر ، وأقسم ان لا يلقاه الا وبينهما الرمح ، لانه شديد الكراهية له ، ولان معاوية يعنيه من امره ما يعنيــه من امر البطل المغوار . ولذلك راسله بالصلح منفرداً ، ودعاه الى طاعته وبعث اليه بسجل ختم على أسفله وقال : اكتب في هـذا ما شئت فهو لك ! . فلم يبالِ بالمخادعة .. وأمر به الحسن ليكلمه بهذا الشأن فحضر امتثالاً لامر الامام . فأجلسه القوم على كرسي ووضعوا السيف بينه وبين معاوية براً بيمينه . ثم دعي للمبايعـــة فلم يُجب ، فنهض معاوية ونزل عن السرير وأكب على يـده ومسح يده بها ، فلم يلتفت قيس اليه ولا رفع نظره ..

والصلح رجع مثير حرك الكثيرين كمثل من قالوا : قـد جاء الآن ما لا شك فيـه ، فسيروا الى معاوية وجاهدوه .. ثم اقبلوا وعليهم فروة بن نوفل حتى حلوا بالنخيلة قرب الكوفة يتأهبون لشن الهجوم من جهة ويعدون العدة للضغط على الفئة المهادنة من جهة ثانيـة . فأراد معاوية ان يخفف ضغطهم وان يفرق قواهم ، فبعث اليهم خيلاً من اهل الشام ، فطردوا الشاميين ، فقـال لمن نكص من جيشه : لا أمان لكم عندي حتى تكفوا بوائقهم . فأعادوا الكرة عليهم فانهزموا أمامهم مرة ثانية .. فخاف معاوية سوء المنقلب والتشويش ورد الفعـل ، فطلب الى الحسن ، الذي كان يتهيأ للخروج الى المدينة ، ان يرد جموعهم فاجابه : لو آثرت أن اقاتل احداً من اهل القبـلة لبدأت بقتالك ، واني تركتك

لصلاح الامة وحقن دمائها ، **وتركت قتالك وهو لي حلال أفترانى اقاتل معك ؟ !.**

وهو صدى مجتاح على من هو كسفيان بن ابي ليلى النهدي الذي قال للحسن وقد رآه بعد الصلح بفناء داره : السلام عليك يا عار المؤمنين ! ! فاجابه الحسن بارتياح : وعليك السلام ياسفيان ، العار افضل من النار . لمَ جرى هذا منك ؟ فقال : بأبي انت وأمي أذللت رقابنا حيث أعطيت هذا الطاغية البيعة ومعك مائة الف كلهم يموت دونك (؟ ! .) وقد جمع الله عليك أمر الناس ! . فأردف الحسن : يا سفيان ، انا اهل بيت اذا رأينا الحق تمسكنا به . وان رسول الله قال : لا تذهب الليالي والايام حتى يجتمع أمر هذه الامة على رجل واسع السرة ضخم البلعوم يأكل ولا يشبع ، لا ينظر الله اليه ، ولا يموت حتى لا يكون له في السماء عاذر ولا في الارض ناصر . وانه لمعاوية . واني عرفت ان الله بالغ أمره .. وخرجا يتمشيان الى المسجد فقال الحسن : ما جاء بك يا سفيان ؟ فاجاب : حبكم ، والذي بعث محمداً بالحق ودين الهدى : فطمأنه : أبشر يا سفيان فان الدنيا تسع البر والفاجر ..

وبالحقيقة ان الناس مختلفون في آرائهم كما اختلفوا في أساليب معايشهم . وقد سلك الحسن طريقة تلقنها عن آبائه وأجداده كما هو شأنهم في اتباع الحق ، آملاً ان يقتدي به غيره ممن يرون في عمله صواباً او بعض صواب ، الى ان يجيء يوم تنزل فيه فكرته الى زحام الآراء . فليس أصعب على الزعيم من انشاء حزبه بادىء

ذي بدء وليس أدعى اليـــه من راحة فكره عند ما يكبر حزبه وتتوافق المبادىء وتنصهر لتنصبّ في قالب واحد .

فتلك شقشقة من سفيـان وأمثاله كانت تثور لاستكبار أمر تنازل الحسن واستفظاعه ، ثم تخمد فيه وفي أضرابه عنـد ما يتكشف لهم بصيص من جوهر القضية ، فاذا بهم يَقرون ويسكنون .

ولكن صدى الصلح كان مزعجاً على اشباه المسيب بن نجبة الذي استمع الى خطبـة معاوية يوم دخوله الكوفة ، وهرع الى إمامه وقال : ما ينقضي عجبي منك ! بايعت هـذا ومعك اربعون الفاً (؟) ولم تأخذ لنفسك وثيقة (؟ !) فقال ما قـد سمعت .. ففهم الحسن مراده وسأله : ما ترى ؟ فقال : ارى ان ترجع الى ما كنت عليه فقد نقض ما كان بينك وبينه . فقال : يا مسيب اني لو اردت بما فعلت الدنيا لم يكن معاوية بأصبر عنـد اللقاء ولا أثبت عنـد الحرب . ولكني أردت صلاحكم وكف بعضكم عن بعض . فارضوا بقدَر الله وقضائه .

ورجع الصدى مؤلم على حجر بن عـدي الذي قال للحسن : لوددت اني متّ قبل هـذا اليوم ولمْ يكن ما كان ! . انا رجعنا راغمين بما كرهنا ، ورجعوا مسرورين بما أحبوا .. فتغـير وجه الحسن وتألم .. وتألم الحسين لألمه فغمز حجراً فسكت . وبعد تأمل قال الحسن : يا حجر ، لا يحب كل الناس ما تحب ولا رأيهم رأيك . وما فعلت ما فعلت الا إبقاء عليك ..

ألا ان الرجل الفذ لا يتقلقل اذا عصفت زوابع الانتقاد وهاجت رياح المقاومة . بل يرد كل احتجاج بقوة الواثق من نفسه ودون تكلف او مراوغة لان لديه من الحق ما يقوم بإقناع الناس ورد اوهامهم .

ويحق لمن شاء ان يسأل الآن : كيف صالح الحسن ووراءه مثل قيس وسفيان والمسيب ، ومثل حجر ومن انضوى تحت ألويتهم ؟ ! . أفلا يخشى من تحفز هذه الفئة ؟ أو لا يخاف نقض ما غزل ، وذر قرن فتنة تقوض ما بنى ؟ ! . والجواب : لا . انه لا يخشى ذلك حتماً ولا يرتاح الى عزائم الآخرين اذا ارتاح الى عزائم هؤلاء . فقد فهم نيات القوم ، أفراداً ومجتمعين ، وسبر غورهم وعرف ان حبهم له باطناً وخذلانهم له ظاهراً أمران لا يلتقيان بل يسيران متوازيين . ولهذا لم يبايع ويخرج خائفاً مترقباً ، بل كان يدعو لاتمام الصلح ليقطع دابر الفتنة ..

الله ما أفظع ان تكون الامور في يد خاطيء ! فذلك يفسد الضمير العام ، وينتهي بالهروب من الواجب ! . ولو ان الحرب كانت بين مسلمين وغير مسلمين لكان النصر فيها للحسن بالنظر الى قوة الاسلام يومها ، ولو انها كانت بين عرب وأعجام لكان الفوز حليفه ، ولكنها كانت بين مسلمين ومسلمين وعرب وعرب ، وأقرباء وأقرباء ! وجيش موحد وأخلاط ! . وقد ادركوا جميعاً هذه النقاط الحساسة ، بما فيهم معاوية الذي سعى للتفاهم عن طريق المادة ، فدفع كثيراً وفاز بكثير ، ونجح بان حوّل نظر المجموع

الى حرب ، أرى اهل الشام فيها حرباً معقولة ليست بين مسلم ومسلم ولا بين عربي وعربي ، بل بين دين يعد بالنعيم ودنيا زاهية غناء بين ايديهم !.

والله اكبر اذا فسد الضمير العام !. (وهذا ما مني به مجتمع الحسن) فانه ان فسد لن يصلحه الا تعقل القادة . وشيء من هذا لم يكن ميسوراً في ذلك العصر الا عند بعض العارفين الملتفين حول إمامهم . فالرأي العام هو علة العلل ، وهو كلمة تتغنى بها وتغنى بها اسلافنا ، ولكنها ذات معنى لا وجود له ، لان من المستحيل ان يأخذ المجموع النظرية الواحدة فيقتنع بالبرهان عليها. وهذا المسمى لم يكتسب صفة فعلية يومذاك كما يكتسب في بعض الاحيان ، فمن فئة مستنكرة مختلفة في تأويل استنكارها كما رأينا، الى فئة مرتاحة مختلفة في البرهنة على ارتياحها للصلح العتيد .. ولذا تراءت فئتان : اولاهما في ناحية حيث ينجذب المتفقون . واخراهما في ناحية ثانية حيث يندفع المختلفون .

.. ولذلك الصلح وقع جميل يشمل نفوس فئة ثانية حققت رغباتها وبلغت أمنياتها . فان معاوية لما تم الصلح كبر في الخضراء فكبر اهل الخضراء وكبر اهل المسجد بتكبير اهل الخضراء . فقالت زوجه فاختة بنت قرضة ، وقد خرجت من خوخة لها : سرك الله يا أمير المؤمنين ما هذا الذي بلغك ؟ فقال : أتاني البشير بصلح الحسن . فذكرت له قول النبي : ان ابني هذا سيد ، وسيصلح الله به بين فئتين عظيمتين من المسلمين .

فالصلح نغم يرقص معاوية حتى لا يستطيع كبح جماح نفسه . فقد دخل عليه سعد بن أبي وقاص وقال: السلام عليك ايها الملك ! فضحك معاوية وقال : ما كان عليك يا أبا اسحق لو قلت : يا أمير المؤمنين ؟ فاجاب سعد : أتقولها جذلان ضاحكاً ؟ نحن المؤمنون ولم نؤمّرك . فكأنك قد بهجت بما انت فيه يا معاوية ؟ والله ما يسرني وما أحب اني وليتها بما وليتها ! .

فالأثر العاجل، قد تمثل ، بالنهاية ، في مظهر بارز لشخصين : احدهما واتر والثاني موتور بحدودهما في هاتين الكلمتين من معنى. وقد تمثل في فئتين تنازعتا واقتنعتا بان الحجة قد القيت على الخصم وعلى من ينازع فيه . بدليل ان الالسن تناولته مذ كان على المنبر في جلسة المبايعة الى يوم لاقى حتفه حين « لم يكن له في السماء عاذر ولا في الارض ناصر » كما قال الرسول الاعظم . فقد اتهم بالخداع والمداهنة في الدين بعد ان أظهرت افعاله مبالغ الصدق في اقواله ومبلغ الوفاء بعهوده ! .

ولا مندوحة من التكرار **بان الأمة قد انقسمت بعد تلك الثورة الى قسمين مختلطين لا يمتزجين** : القسم المنتصر وهو حاكم آمر ، كله غيظ وحنق ، والقسم المغلوب على أمره وهو صابر يتجرع الغيظ ويصبر على البلوى . وكان كل منتسب الى احد هذين القسمين لا يتنازل عن خواصه ولا يتخلى عن **جنسيته** اذا صح التعبير . نعم ، كانا يتنمران ، الواحد للثاني ، بشكل يستحيل معه التماثل ليصبحوا جميعاً أمة تهتف بحياة وطنها او

دولتها ..

والحقيقة هي ما وقر في القلب واعتمل في النفس وصدقه العمل . وهذا ما بعد عنه معاوية منذ موقفه الاول ، واستمرت عنده هذه الظواهر طيلة عمره ، بل استمرت بعده عمر يزيد !

●

.. واما الأثر الآجل فكان :

أولاً ـ قيام الحسين بن علي وما واكبه من اسباب ووقائع .

وثانياً : انهيار عرش أمية وما سبقه ورافقه من تدهور في المثالية والسمو .. وفي هذا الايجاز ما يغني عن الاسهاب ، لاننا لو اردنا ان نفسر ذلك كله لخرجنا عن موضوع بحثنا . فلنتعمد حمل القاريء على إعمال الفكر لاستطلاع كل ما رافق هذين الأمرين من تفصيلات في حدودهما الواسعة والضيقة .

اما كبش محرقة التاريخ (الحسن بن علي) فانه وان لم ينل تعطف الوضاعين في التاريخ ولا تلطف الدساسين ، **فقد برز من هذا النزاع نقياً طاهراً تقياً باراً بأمته** ، اذ وجدنا في وضعهم ودسهم وثائق تكفل النهوض بحجتنا دون نكأة او تمحل ، وتومىء نحو حامل مشعل الثورة التي لم يحن وقتها بعد . وربما اعتبر مغلوباً في ظاهر الامر ، ولكنه ربح ، في نفس الواقع ، شيئين هامين :

أولهما : خروجه من الفتنة ضافي الرداء بابقائه على النفوس .

وثانيهما : وضعه أول بذرة كره الأمويين في نفوس الناس كافة . تلك التي كانت بذرة وصارت جذوة من النار ، ثم أمست براكين منفجرة راحت تخمدها الرشوة والسخاء تارة ، وتشترى بالمال طوراً ، ولكنها ، آخر الامر ، كانت قنبلة ذرية (دم الحسين) نفثت الدخان والرماد والحمم وسممت الجو حين ضل الأمويون بالتمادي والشذوذ ، فاندك ما بنوا من حصون ومتاريس حول قضيتهم دكاً ..

وكيف لا تندك وقد كتب معاوية بنسخة واحدة الى عماله بعد عام الجماعة : أن برئت الذمة ممن يروي شيئاً في فضل أبي تراب وأهل بيته ! ! ! فقامت الخطباء في كل كورة وعلى كل منبر يلعنون علياً ويبرأون منه ويقعون فيه وفي أهل بيته ! ! !

وعقب على ذلك باستعمال الدعي زياد بن سمية على الكوفة والبصرة فتتبع الشيعة وقتلهم تحت كل حجر ومدر وأخافهم وقطع الايدي والأرجل وسمل العيون ، وصلبهم على جذوع النخل وطردهم وشرّدهم ! ! !

أم كيف لا تندك وقد كتب الى عماله في الآفاق : ان لا يجيزوا لأحد من اهل بيت علي وشيعته شهادة ؟ !

وكتب : ان ينظروا الى من قامت عليه البينة انه يحب علياً او اهل بيته فيمحونه من الديوان ويسقطون حقه من العطاء ويقطعون رزقه ؟ ! ! ثم شفع ذلك بنسخة أخرى يقول فيها : من

أتهمتموه بموالاة هؤلاء القوم فنكلوا بـه واهدموا داره !!! فلم يكن البـلاء أشد ولا اكثر منه بالعراق ولا سيما بالكوفة ! . حتى ان الرجل من شيعة علي وبنيه كان يخاف من خادمه ومملوكه فلا يحدثه الا بعد ان يأخذ عليه الايمان الغليظة ليكتم عليه .. فظهر من هـذا الضغط حديث كثير موضوع ، وبهتان منتشر ، ومضى على ذلك الفقهاء والقضاة والولاة !!!

ثم ما زال البلاء يشتد وما زالت الفتنة تستعر حتى لم يبق احد من هذا القبيل الا وهو خائف على دمه او طريد في الارض !!!

فما قد جاء ما بعد الصلح ، كما رأينا، فهز أفئدة الناس وحرك تعقلهم فأقبلوا على بعضهم يتلاومون . وقـد راح بعضهم يقصد الحسن ويستمع اليه في المدينـة ويستبصر في دينه ، كسليمان بن صرد الخزاعي وكثرة من الناس لا مجال لذكرهم . فقـد قال له سليمان اول ما قابله ، في كلام طويل يستعرض القضية من أولها : ... فاذا شئت فأعـد الحرب جذعة . وأذن لي في تقدمك الى الكوفة فأخرج منها عامله وأظهر خلعه ، وتنبذ اليهم على سواء ، فان الله لا يحب الخائنين . فقال الامام دون ان يدفعه او يطمعه : أنتم شيعتنا وأهل مودتنـا . فلو كنت بالحزم في امر الدنيا أعمل ولسلطانها أنصب ما كان معاوية بأبأس مني بأساً ولا أشد شكيمة ولا أمضى عزيمة . ولكني ارى غـير ما رأيتم ، وما اردت في ما فعلته الا حقن الدماء . فارضوا بقضاء الله وسلموا الامر ، والزموا بيوتكم وأمسكوا وكفوا ايديكم حتى يستريح برّ او يستراح من

فاجر ..

فتلك نزوة خيرة اشتعلت في نفوس شرعت تبشر بابتداء الاستعداد للثورة التي ارادها الحسن . وقد بدأت في السؤال يجول في الصدر ، وطلعت الى الفم ودار بها اللسان وساد اللغط : من هو إمام الزمان ؟ معاوية ؟ يزيد ؟ الوليد ؟ ؟ ! !

وبينما كان معاوية يتعقب اصحاب الحسن كان الامام وفياً حفيظاً . ولكنه لم يكن ليسكت عن الهفوات ولا ليتغاضى عن الزلات ، بل يذيع ذلك وينشره في مجالسه العلنية منها والسرية دون ان يخاف نقمة الطواغيت او همز الشياطين . مما أدى الى تحسن أمر الشيعة في الاعوام العشرة الاخيرة من ملك معاوية ، وأدى الى انتشار دعوتهم في شرق الدولة الاسلامية وفي جنوب بلاد العرب . حتى ان معاوية لم يمت الا وعامة أهل العراق يرون بغض بني أمية وحب اهل البيت ديناً لهم ..

فقد وقف شيعة أبي محمد بعد يأسهم من الحكم وفي صدورهم نزعتان مختلفتان : فمنهم من يئس من إزهاق الباطل وإحقاق الحق فآثر التزهد والتقشف ، ومنهم من لم يقعده الجبن ولا أثر فيه الوهن فظل مثابراً على عزمه وجهاده فأنشأ الجمعيات السرية التي كانت في جوهرها لا ترمي الا الى نصرة ابناء علي الميامين ..

ونشير بالنهاية ، الى ان الحسن لو صالح من غير ان يدعو الناس لكان ملوماً .. والى انه لو تابع الحرب لخانه جميع اشياعه ولأصبح لمعاوية المنتصر القدح المعلى في الأمة . وحينئذ يستمر

ملك اقامه الى آخر الدهر .. وحينئذ تنتظر فكرة الثورة الحسينية المباركة أجيالاً ليتاح لها ان تثب وثبتها الجبارة .

فآثار الصلح ، مجتمعة ومتفرقة ، كما يبدو ، لم تكن من القوة ، عهدئذ ، بحيث تقلب الاوضاع بداهـة ، ولكنها بدأت تهيء الانقلاب بتؤدة ، بل كانت اول تحفز لأمر موعده يوم كربلاء .. وقد بدأ هذا التحفز يوم صالح الحسن معاوية على ان يعمل بكتاب الله فخالفه وحكم بالولد لأمه! (أدعوهم لآبائهم) . اي يوم استلحق زياداً اللحانة الذي كان قـد قال : افتحوا سيوفكم بدلاً من سلوا سيوفكم ! . ورضيا معاً باعلان الزناء بين الاب و الام !!! وبمخالفة السنة وقول النبي : الولد للفراش وللعاهر الحجر .. او بـدأ هذا التحفز يوم انفقا على اتباع سيرة الخلفاء الراشدين ، فنصب للخلافة ولداً عربيداً يقضي وقتـه بين الخمور والقيان والطنابير ، قد اتخذ عباد الله خولاً ومال الله دولاً ودينـه دغلاً !!! وبدأ التحفز ساعة تراضيا على ان يعهد للحسن او لأخيه الحسين ، فسمّ الاول وهيأ قتل الثاني ! وساعة وقّعا وثيقة بأمان الناس في مختلف الاوطان فأرعبهم وعاث فيهم تقتيلاً وتشريداً ! وساعة اعطى عهوداً كثيرة ولم يفِ بشيء منها .. واخيراً بدأ التحفز إرهاصاً يوم قام معاوية يلعن علياً على رؤوس الاشهاد ويدعو ويجبر على لعنـه على منابر المدينة ومكة وسائر الاقطار الاسلامية في الجُمع والاعياد !!! وقد سها عن باله انه بلعنه اياه قد اخـذ بناصيته ورفعه الى السماء . وقد قال عبدالله بن كثير السهمي وقد سمع العمال يلعنون :

.. أيسب المطيبون جدوداً
والكرام الاخوال والاعمام !؟.
يأمن الظبي والحمام ولا يأ
من آل الرسول عند المقام !!!

فوالله ان جبين الانسانية ليندى خجلاً من هـذا النوع من الوفاء! ومن هذا الضرب من التمرد يسوّد صفحة ناصعة للعرب والاسلام! ومن ذلك الاستهتار يودي بتراث جدود وبدين أخيار ليقيم معاوية على الانقاض ملكاً بغيضاً لله وللنـاس! . فيلزم ان لا نؤخـذ باستعلاء ذلك الملك وبتقاعسه في تدميك اساسه . فان الممالك ككل كائن حيّ تولد وتنمو وتهرم وتموت . أي انه لا بد من إتمام دورة بدأها نظـام ، صالحاً كان او فاسداً ، سماوياً او ارضياً ..

واختتم القول **بان الصلح لم يكن سوى هدنة** استشرت فيها العداوة • واستضرت فيها الهمم، واستترت بها الصورة الحقيقية.. لان الحزبين ما زالا يتجاذبان طرَفي حبل على مفترق مبدأين من يوم حاولت قريش ان تقتـل محمداً الى قتل علي الى سم الحسن الى قتل الحسين بشكله الحيواني الى محاولة قتل جميـع آل ابي طالب يوم عاشوراء بحرق الخيم وسبي النساء وتذبيح الاطفال!!!

وماذا كان بعد هذه المحاولات ؟!.

لقد عاش من مات شهيداً .. ومات من عاش غادراً ..

الفصل الثالث

●

- ١ -

●

من المشهور، وهماً ، ان الحسن لم يمثل دوره بنجاح !.
ولكن الشهرة لا تكسب الرأي صحة ولا القول صدقاً ، لانها لا تقوم دائماً على الحق الخالص والواقع الذي لا ريب فيه ، وربما قامت على عوامل مذهبية او سياسية او علمية لا سبيل الى البرهان على عكسها ، بل ربما قامت على اسباب شخصية بحتة .. فهي مع ذلك كله لا تتسم بالصحة والصدق اذا لاحظنا ما قلنا مجملاً ومفصلاً .

ولعلي لا اعدو الواقع اذ قلت ان الحسن قد فكر وقدر ، وزاد على ما نفكر به ونقدره ، فأدرك كل ما يرافق حركته من الألف الى الياء . ولكنه ليس من السهل علينا تحديد سياسته من الألف الى الياء دون التواء ، لان عصره كان عصر اختلاف في

الهوى كأشد ما يكون الاختلاف ، ومعارضة في الرغائب كأقوى ما تكون المعارضة ، مما صعّب التحديد ، اذ لا يمكن تحسس حركته وسط هيجان تلك الزوبعة التي عنُفت جداً فاستعمرت قلوب جميع من كان يرزح تحت عبئها قسراً او اختياراً .. فالجو كله قتام والعوامل تتضافر على إخبات كل دعوة بأقسى وسائل الكبت والاخبات ..

ففي هذا الحالك أرانا لا نملك قوة تخولنا الجزم ، لان استاراً كثيفة تكتنف العصر ، وتقف دون الاطلاع على جميع المفارقات والملابسات ، ولا تسمح لنا بان نستوضح من حياة الحسن السياسية الا ناحية الدعة والصدق والبر — وما له من سياسة غير هذه — في عصر تحولٍ شكلي في الحكم وتحولٍ فعلي في النفوس التي لم يتمكن منها الدين ولم يترك فيها ليكسبها المناعة المتوخاة لتعطي الصورة على حقيقتها .. فهناك أناس يهتبلون الفرص ليرهبوا الله في ملكوته — لعدم تمرسهم بالدين الجديد — إرهاباً فيه تطرف وخروج عن الدين وجادة الصواب ، وفيه مروق واستهتار بسنن التكوين ، بل فيه استسلام لكل همّاز مشاء بنميم.

وكم هو من الصعب ان تقوم الدولة التي تتركز على مبادىء الصلاح اذا لم يكن عدد المقتنعين بتلك المبادىء متكاثراً يسمح باقامة جهاز للحكم ، وبانشاء قوة منفذة تسهر على حفظ كيان الدولة ومبادئها ! . **وكم وكم يتطلب الانقلاب من جهاد عنيف ، وتضحيات عملية حتى يتم وفق رغبة الراغبين وبُلغة المؤمنين ! .**

.. **ولكن الغريب ، في هذا الباب ، هو ان المؤرخين قد أنحوا باللائمة على الحسن الذي سالم ، ولم يطعنوا بمعاوية الذي ابتدع افانين بما لم ينزله الله !** . حتى ان بعض المؤرخين كان **كلفاً** بالقذع على من ذاب بغيرته دون الاسلام والانسانية ، **ومشغوفاً** بتمدح من شحن الدين وأهله لملك زائل .. ومنشأ ذلك الرهبة من الوقيعة او الرغبة في البعد عن القطيعة لدى الملك الزائل ! مع العلم بان الحسن صديق رفيق ومعاوية عدو غير شفيق .

ومشكلة المشاكل ان الجماهير لا تهتم بالمنطق ، ولا تنصاع الى الحق والعدل بمقدار ما تنساق مع العاطفة والقلب . وهذا أمر يضعف الجانب الفكري فيها ويقوي الجانب العاطفي لدرجة يستحيل معها الاحتجاج والاقناع ، فيلجأ المصلح حينئذ الى دفع العاطفة بعاطفة مثلها اذا خولته ظروفه ذلك .

فسياسة الحسن كانت ملحمة حقاً ، بمعنى انه كان يراوز أمره تحت تأثير عاملين : الله والدين في الدرجة الاولى ، والاحقاد المدخرة للقضاء على الدين في الدرجة الثانية . وهو لا يتمكن من إخضاع الطبيعة يومها ، لانه ليس سيدها المطلق ، بل لا بد له من تكييف نفسه حسب نواميسها — مع الاحتفاظ برأيه — ليقدر له البقاء ..

والتقيّ يلجمه ورعه ويردعه عن الزيغ . بينما امور السياسة ، بمفهومها العامي ، لا تستقيم الا بالمداهنة . وهذا شيء مفقود في حياته ، لان تُقاه قد فطمه عن المكر السيىء وثناه عن التطلع الى

المرتع الوخيم .. فهو على دين أبيه الذي قال : والله لو علمت ان المداهنة تسمني في دين الله لفعلت ، ولكان أهون عليَّ في المؤنة !.

ومهما كانت معاني السياسة عنده ، فاننا نتجرأ ان نقرر فصله عن السياسة ، التي نفهمها ، عن الدين ، في حين ان خصمه قد خلط الدين والسياسة والعلم وسائر المظاهر الفكرية خلطاً عجيباً .. **وبالحقيقة ان الدين والسياسة مقترنان : فهي المدبرة وهو المنفذ . وقد كانت – فعلاً – في يد الاول ألعوبة بيد الدين ، وأما في يد الثاني فكان الدين ألعوبة بيدها . خصوصاً وهي طيّعة والدين صلب** ، بمعنى انها يمكن ان تسايره في حين انه لا يمكن ان يكون تحت سلطتها بوجه من الوجوه ، فهو يتعارض معها كلما قابلته ، أما هي فلا تتعارض معه اذا قابلهـا باعتبار انها اقرب منه لمظاهر الحياة الدنيا ..

فلم يكن الاخفاق حليفه كما يخمن المخمنون . فكم من نهزة كان يغتنمها لو شاء ! ولكنه كفكف أردانه ، لان قوة الايمان تزع عن التدهور والسقوط ، وتربأ بصاحبها ان يقبل الرفعة بالدنية والمجد بالضعة . وبخاصة اذا أنشيء صحيح البنيـة نقي السريرة صافي النفس ، لا يندار لسانه بشيء فيه ختل او تغرير .. ولو تقصّى اي انسان امره معي ، وحاصني على أمره محاصّة المخلص لألفاني أبتعد عن المجازفة بالرأي والهجر في القول . لانني لا أدعي كونه سياسياً بين المتهنين ، ولا أجده ممن تضعهم تصرفاتهم في درج البسطاء . بل اقول بتواضع : انه لا يصح عمن غُذّي العلى

من محمد ، ورضع ائـداء الحق من فاطمة وورث العلم عن عليّ ان تسف به نفسه او تقعـد به عزيمته ، لان ثبات عقيدته يفرش طريقه بالاطمئنان كائناً ما كانت الحال ..

ولو ان حكاية صلحه (التي كان يفسرها دائماً) وصلت الينا عارية عما أحاط بها من مؤثرات لوقفنا مشدوهين نقول : ما أعجب ان نعطي من لا حق له ما ليس له بحق من غير غلبة ! . ولكن شيئاً من ذلك لا يتاح لنا ، لان تصرفاته تصرفاتُ من كان الدين كله حتى انقذ قضيته برشد ..

وتحقيق المبدأ هو المهم ، بأية طريقة جرى ذلك . وتجديد النشاط قد يستلزم النكوص لاستجماع القوة والتوثب .. فلم يكن الجهاد للحياة عند أبي محمد عنيفاً والامور كما ذكرنا ونذكر . لذا اخذ يهتم بكيفية نشر قضيته لا بكمية مفعولها الفجائي ، بل راح يهدم ، ويبطئ للتعمير حتى يتمحص الحق وتمخض الزبدة ، فيتحرك مستجداً في حيويته ومستعداً ، هو أو من يخلفه ، للتنازع من اجل استخلاص الحق وإعادته الى نصابه

فقد كان تمشيه في القضية يبدو تقهقراً لانه يمهد الى تطور أسمى . فصلحه كان بمثابة الاستجمام لأمر ما فتئ في طور النمو والتكامل ..

وهكذا فان التطبيق بأيدي المصلحين يصلح الفاسد ويقوّم المعوج ، فأحرِ بمصلح يطبق المبادئ الصالحة ان لا يخطئ ولا يضل السبيل .. فلننظر اليه نظرتنا الى المصلح الذي يعمل جاداً بمقدار ما يسمح له وقته ليهيئ أمراً - ينبثق عن مبايعة -

قد اخذت بوادره تحبو صعداً .

ولا تقاس كل الامور بقياس الحجم والرقم ، ولا يُتتبع فيها لقلقة من تيامن او تياسر ، بل يلزم الاعتدال والتفكير بالوسائل الجدية وبالنتائج الحاصلة في آن واحد . وعلى هذا نجد ان الوسائل كانت ممتازة اذا لوحظت من الناحية الانسانية الخالصة ، لانه عبر عنها بغيرية ضرب بها مثالاً عالياً للخروج بالأمـة من أزمة صعبة المراس .. أما النتائج فكانت مرموقة جداً ، شريطة ان ننظر الى ابعد من انوفنا ..

والعجب كل العجب ان المتيامنين والمتياسرين غفلوا ، جميعاً ، عن وظيفته التي كانت في صميمها موجهة الى هدم سلطان ظهر أمره بطرق ديكتاتورية فاتكة ، فعمل لعهد لم يخلق بعد ، وخلقه بيده بعد ان رأى مقدور اصحابه دون مقدور اعدائه . واذ رأى اعداءه يسعون للسيطرة واستثمار المغلوبين باعمال دامية وغير دامية ، سعى للسمو بجماعته ولتطوير بعض المكابرين وخلق اكثرية او بعض اكثرية ممتازة من أقلية أقلية ليس لها قيمة ولا حساب .

فكيف ، يا رب ، يسعنا الزعم بتقصيره ونحن نعرف قوة معارضة السلبيين ، وضعف مقابلة الايجابيين يومئذ ؟ ! ! ويحق الآن لمتحذلق ان يقول : لقد افترضته يتعلق باهداب الأمل اذا لاءمت حركاته هـذه المزاعم . وهو قول حريّ بالالتفات . ولكنه كان يتعلق باهداب الأمل بالنجاح لوحارب بمن بقي معه ! . اذ متى توفرت الارادة وجـدت السبيل ، واذا بعدت مرامي عزة النفس التأم

الشتات وتيقظت الدوافع الى العمل . ونحن لا نعرف أصبر من الحسن لنشك في تحمله طول الامل في حين انه كان يرى خصمه سادراً في نشوة انتصاره .

وقد التأم ذلك كله اخيراً ، وولد محمد وعلي وحسن من جديد في الحسين . وقد حورب معاوية ثانياً – بيزيد – كما حورب واباه اولاً .. وقد صدق حدس الحسن وتقديره اولاً وآخراً .

فمحيط السبط كما اتضح في الفصول السابقة معقد لا يكفل له النجاح لدرجة يكون معها قميناً على الوصول الى ما ينشده ، اذ اضمحلت في محيطه الروحية والمثالية ، وفنيت الاجتماعية ومن ثم طغت الفردية . **فرأى ان يفسح المجال امام جموع الخصم** ، ليجيء يوم يرى فيه الناس ، أنفسهم ، مشروعية حربه على مروقه كما حورب على عناده لرسالة محمد ! . ولم ينسَ أبو محمد الاحزاب السياسية التي كانت تعمل في الخفاء للحد من فكرة الهاشمية والسلالية ، فخشيها فيما خشي لانها أخلاط من حيث الدم والعنصر . وهذا ما يُخاف شره .

وان المفارقة بين معاصريه وبين الله كانت لا تخوله ان يقيم الدين بالسيف في وجه دنيا محشودة لصراعه من جانب العدو ومن جانب انصاره الذين كانوا سيفاً بيمينه ، فضلاً عمن يهدد الجموع من الخارج ..

لقد غاص في ذلك كله وفهم منه السر والاعلان وانتهى الى

الاقتناع بصواب ما فعل . ففعله مرتاح البال ، ليتاح له الخروج من البلبلة بحل" موفق له آثاره القريبة والبعيدة .. وبنظري انه انتزع هذا الحل بطريقة تجريبية مدهشة ، لان دعوته لا يحفظها من الفناء الا صلحه الميمون ، مهما تعرض للنقد اللاذع . اذ يشترط لقيام الحكومة ان تكون الرعية موالية للسلطان ومريدة له ، لتمده بالقوة التي تنعدم في غير الجمهور . وهل كان الولاء الجماعي ميسوراً له ؟ . وهل توفر له المدد القوي ؟ كلا ، لان سياسته كانت ممتزجة بالدين ، **بل هي الدين قهراً او اختياراً** ، في حين ان الميل العام كان يرمي الى الغاء الوحدة بين الدين والسياسة ، ويحصر الدين في المسجد مجسداً في الآذان والصلاة وغيرهما من الاعمال التعبدية ! .

وقد حسب معاوية ومن يزعم زعمه ان ذلك التنازل عن امور الدنيا قد اتى على الدعوة الهاشمية ونصر الدعاوة الأموية الى الابد .. واعتقد الحسن ومن يرى رأيه ان الصلح يزلزل الأموية ، عاجلاً او آجلاً ، والى الابد .. وقد صدق حدسهما في نطاقين متدابرين : نطاق لدولة الامويين ضيق ، ونطاق لقضية الهاشميين واسع ، فاصاب عاقل او كاد وأخطأ زاعم او كاد .. فقد تعرضت الاموية لأزمات شديدة ، فيما بعد ، زنة ما ذهب ملوكها في تماديهم وانطلاقهم ، ومنذ ان انسحب الحسن من الساح ونقى لهم الجو ، الى ان غادر الشام آخر أموي .. وحتى في نقاء الجو كانت تشيع همهمة يقطعها السيف ، مرة والدرهم مرة أخرى ، ثم لا يعتم

ان تنتشر في المجتمع وتلاقي القبول .. الى ان حصل الانقلاب في اقل من قرن ! . **وما نفع حياة دولة لا تعيش في امانيها مدى القرن ؟** ولم يخفَ ذلك على معاوية ، فانه لم ينفلت كالمتمرد تماماً ، بل سار سيرة المغتصب ، المعترف بالاغتصاب ، الذي تغلغلت في عروقه نظرية « الملك عقيم » . فلم يغفل عن صلة الحسن بالمال بشكل كان فيه إيثار ولكن كان فيه مد وجزر ..

فعملُ الاثنين اذن طبيعي : لان الأمة كانت ، يومذاك ، لا تتماثل ولا تنصبّ في قالب واحد لتسير في جانب احدهما : اذ عُني الاول بتجنب سقوط الامة ، وانصرف الثاني الى طلب الملك فوجده ..

وعملُ الاول كان محاكاة لما يختلج في نفوس جماعة انعكست في باصرته نياتها ، فعرف ان حماسها لم يكن الذخر الذي يدخر ليوم النهضة المباركة . وعملُ صاحبه كان استجابة لما في نفوس أقلية بايعت الدنيا على الموت في سبيلها .. **ولو نحن جمعنا ثورات اصحاب الحسن وضربناها بعضها لكانت نتيجتها صفراً الامر الذي جعله يتمشى على مبدأ العناية بالمجموع ليكفل للفرد حياة لا عنعنة فيها ولا تهويش حتى يتسنى للدين ان ينتفض من حجره بعد فترة تضمخت بالدماء .** فحين خاف ان تطغي المادة على الفرد عمد الى حلّ قسم الناس فئتين : فئة رجعت الى المعبد تتبتل وتتصوف وتناضل صامتة ، وفئة تستجيب لكل ناعق وتسلك كل طريق . وقد انتظرت الفئتان يوماً تفيقان فيه على

كلمتي : الحق والخير .. **لذا كان همه الاول تهدئة العاصفة ليتاح للفرد ان يروض نفسه على الدين ويمارس حياة فيهـا استعداد مطبوع على الثورة ضد الباطل** ، فترك له مهلة التفكير بخطورة الاوضاع ، فأعد الكثيرين على هـذا النحو إعداداً ممتازاً . وأعني ان تنازله قد اوجد حالة منكرة ما فتىء الامويون يعالجونها ، هذا باللين وذاك بالقسوة ، الى ان عاونه اخوه ببذل نفسه بعد ان سفح هو انانيته ، فسالت جميع الجراح واصبحت الاموية كرة يتقاذفها الناس جميعاً ، وكان الامويون من جملة اللاعبين ! ! ! وما عتم ان جدّ الجد وتحطمت الكرة فانطوت نفوس على حقـد مضطرم ولم تنم عن مهمتهـا قط ! وانطوت اخرى على نشوة دفعتها الى العبث بمقدسات الدين وضلت عما يكفل خلودها ضلالاً ! ومن ثم ظهر حدّ فاصل كان يزداد عمقاً وامتـداداً ، عانى الحزبان منه تحاجزاً فيه ويل وتناحراً فيه مرارة !

أجل لقـد كان ذلك كما ذكرت بالضبط . والا فما معنى ان تعيش دولة تملك من اقاصي المشرق في الصين الى اقاصي المغرب في افريقيا واسبانيا عمر مختار او عمر ناطور ؟ ! .

فتنازل الامام قـد فسح المجال للانتخاب ، اذ اطلق الحرية للفكر . فلا بدع ان يضع الشروط على ضوء استنتاجه واجتهاده ، دون ان يعمد الى رقع الثوب البالي فلا يتحقق التماسك بين الثوب والرقع .. **وان كثيرين من ذوي المواهب يخنق مواهبهم ضيق المجال في بيئتهم ! . لان روحيتهم تكون غير روحية المجموع .**

فالمصلحون المصلحون هم الذين يبذلون الجهد في تأييد ارادة المجتمع ثم يضحون ، ليقربوا بين وجهات النظر فيحصلوا على سلامة المجتمع وتوحيد الكلمة ثم يعودوا الى البذر والاستنبات

فنحن بمجموعنا نذهب مع العاطفة . والحسن بمفرده ذهب مع العقل . فانتحى المدينة وغاب في طي بضع عشرة سنة يستكمل فيها منهجه . فمن عذيري ، كيف يُرمى ، من كان هذا نظره ، باللوم والتنديد ؟ ! . فهو يعلم ان مبدأه لا يملك ان ينتشر على اي كان واينما كان وفي اي زمان . لذا توخى فرصة تسمح باذاعته لئلا يعبث مع من يريد له ان يعبث ، فيفرض نظرياته على من لا يُقدّر فيه اعتناقها ولا يمكن ان يستجيب لملازماتها .. فلينتظر حتى تتوفر الامكانيات ، من غير ان يلجأ الى الفرض الجبريّ الذي لا دوام له في جانب ترمّت المتزمتين ومروق المارقين .

فالواقع الطبيعي ، والواقع الاجتماعي جعلاه ينكفىء الى ان تخلق القابلية الروحية ، والى ان تتهيأ ارادة الشعب . واذا اعتقدنا خلاف ذلك نكون قد اسأنا الى الفهم والى المنطق ووقعنا في خداع الحواس .

فعملية توحيد الفكر في الجماعة التي تتنازعها ميول مختلفة عملية شاقة وبالأخص عندما يتحدى الانسان الطبيعة او حينما يرمي الى نسف اسس مدمكة . فباستطاعته ان ينسخ عادة ويقيم عادة غيرها ، وبمقدوره ان ينسف قاعده فاسدة ليقيم على انقاضها

قاعدة صالحة ، ولكنه لن يستطيع ان يمحو متروكات مئات السنين دفعة واحدة ليحل محلها افكاراً وآراء جديدة .

واني لم ألتزم الوقوف عند هذه النقطة الا لان الناس يؤخذون بما يلقيه ضعفاء التفكير القاء ، وبما يقوله مرضى النفوس قولاً فيلوكه المتحذلقون لوكاً ويقبلونه على علاته ، فيؤثر فيهم كما تؤثر الخطابات الحماسية في الجماهير . كمن يقول : ان الحسن هادىء لا تحس فيه الحماس ولا تشعر في تجييشه الحرارة ! والحقيقة ان اخلص انواع الحماسة ، الحماسة التي تحترم الحقوق والواجبات بين الناس فتحول دون وقوع الخلاف . ومن غير الحسن يقوم بعمل جدير بالاهمية مجرد عن الغاية ، غير مشوب بشائبة في زمانه ومكانه العصيبين ؟! . وهل نحسب عمله حماساً بهذا المفهوم اذا لم يكن عملاً هادئاً متزناً وعقلانياً ؟ ؟ . كلا . لان ثمار هدوئه أينع منها فيما لو كان ثائراً متهوراً . او ليس من الحمق ان يزج بالالوف في أتون قد يلتهم ثلة من الاولين وثلة من الآخرين ؟ نعم . وان سكينته ابلغ اثراً من حركات الطيش التي نتمناها عليه ونظن فعاليتها في ذلك اليوم الذي كان معاوية فيه السيد المطاع ! . فلو حاول ان يجدع مارقاً بسيفه او ان يعترض خارجاً بلسانه لضرب الأمة في صلبها فما تستطيع قياماً ولا نهوضاً . وهل هو ضعيف بعد هذا التفسير ؟ وهل وهن وتهاون ؟ او لم يُصب اذ صالح وهادن ؟ .

فما كان أحب اليه ان يرى السمو المثالي في نفوسهم فيبث فيها قبساً من

نورانيته وشعاعاً من روحانيته ، ويبرز فيتربع في الجوزاء ! . ولكن محيطه ومنطقه كانا غير محيطنا ومنطقنا . وهذا أهم ما يشق علينا تفسيره من رموز مسألته وأحاجيها ، فقد كان الاختلاف يومها في الجوهر لا في القشور ، اي انه يتناول مسائل لا نمس قدسها وندخل في تفصيلاتها . وأود ان لا يذهب النفظ بالذهن فيحمل قولنا على انه ناوأ جماعة من عبدة النار ، او على العكس انه استخذى وتنازل عن **الحق** الذي يضطلع هو فيه ، اذ ان تنازله عن ذلك الحق الذي لا يقره عليه الناس بله الله . .

والعقيدة صعب مراسها ، واصعب على الانسان من ذلك تركها واعتناق غيرها . لانها تستقر في النفس وتتركز في القلب ، أفهل يجوز لنا الظن بان الحسن قد اعتبر معاوية إمام حق وصدق وبايعه كما بايع أباه علياً على انه ولي الله ، فاعطى يده اعطاء الضعيف ؟ !. ذلك ما لم يقله حتى المقربون من الأموية المجبولة دماؤهم على حبها.

والعقيدة الأم عند معاصريه كانت منبوذة الى حد لم يراع معه مناوئوه لها الا ولا ذمة ، بشكل فيه اعتداء وترفع عن الائتمار باوامر الله ، وفيه سلبية من هذه الناحية وافقت ايجابية معاوية ، فتأثرت هذه بتلك وازدوجتا بتأثيرات الروم وجيران المسلمين وبعوامل اخرى كونت شخصيات تستجيب لمنازع ابن ابي سفيان وتترامى في احضانه دون ان تميز بين الناقة والجمل ! ! ! في حين ان من نسميهم اصحاب الامام قد أثروا في قتل شخصيته وخانوه ورأوا القذى جسراً في عينيه ورأوا الجسر في عيني غيره قذى

او عدماً !.

وقد قيل : **ان الصمت عن المناقشة في الحق امهال للبطل ان يعيش** . وقد ادرك الحسن ذلك فاراد ان يحرك في الناس صوت الحرية والحق ، وجعل هوة سحيقة بين فكرتين متدابرتين ، وعلم الناس ان يميزوا بين تلك السقطات وبين البعير والناقة !.

واذا قيل : لمَ تجمع الشاميون حول الخصم وتفرق العراقيون من حول ابي محمد ، فالجواب : **ان ذلك راجع الى ما نفثه معاوية في شامييه فحرك ضمائرهم واشبع انانياتهم فاصبحوا له سلميين ، والى ما نفخه الحسن في عراقييه فحرك دخائلهم وأغاضهم ، ولم يشبع نهمهم فاصبحوا له حربيين** .. فالازدواج كان بالغاً بين الشاميين حده الاقصى ، ومقصراً بين العراقيين عن حده الادنى .

وان كل شعب **محكمة** تقضي وتبرم « بلا وعي الشعب » ، « وبلا شعوره » . ولكن هل تقضي عدلاً وتبرم حقاً دائماً ، اذا اذا راعينا القواعد الصحيحة للاشتراع والقضاء ؟!. لا . فقد يخطىء ضمير الشعب في جماعة ويصيب في جماعة .. وظني ان ذلك الضمير ، او هذه المحكمة قد اخطأت في الشعبين طرداً وعكساً . لان الانفعالات كثيراً ما تخلق الملابسات في احكام الضمير فتؤدي الى إثم بالنظر الى العدل العام ، او الى كفر بالعدالة ، وخصوصاً اذا كانت الانفعالات غير شريفة ولا ترمي الى غاية مثلى ..

وهذه الحالة هي التي اخذت بأضباع الشاميين يومئذ فرفعتهم الى القمة ، وسمّرت اقدام الكوفيين حينئذ فجذبتهم الى

الحضيض ! .

والهيآت الاجتماعية الكبرى ترضخ غالباً لعوامل ليس لها عليها سلطة . وقد توجهها العوامل الى الخير عمداً او الى الشر غصباً .. فأحر به ان يخضع لهذه العوامل ، يساندها تهجم الهيئة الاجتماعية بكاملها ، فتندمج بارادتها عمداً او قهراً ، فتتفق اعماله مع اعمالها ومن ثم يتداخل في عمله كثير من معاني الخطأ والصواب ظاهراً مع انه صواب خالص .

●



●

لا يتبدر الذهنَ عند ذكر اسم الحسن الا اسم الحسين ، فكأنهما كانا مخلوقاً واحداً يحمل هذين الاسمين . وانه من اسم اولهما اشتق اسم الثاني ، ومن نفسه انفتقت نفسه – وكلاهما فيض من نفسي علي وفاطمة – حتى كأن الله قسم بينهما كل هباته ومننه بالعدل : فقد عاشا في سن لا تفرق كثيراً في تكييف طبائعهما اذا اعتبرنا تربية الاهل وتربية الايام . لان ولادتهما كانت متقاربة واستعدادهما كان واحداً ، اذ نشأ في بيت واحد ونبت لحمهما على نفس الغذاء فأخذا من هذه الدنيا مقداراً مقسوماً بالقسطاس

المستقيم ، واعطياها ذات الأهمية ، وتركا وراءهما أمثولتين للناس تلتقيان في مرمى واحد وان جاءتاه من طريقين متقابلين .. قد توفر على تربيتهما اشخاص زقوهما العلم معاً فرويا من معين واحد ، فاجتمعت فيهما امور تجيز لمن عرفهما — لولا تفاوت في الطبائع والهيئة الخارجية — ان يقول : الحسن أرى أم الحسين ! ! .

اما نظرهما الى الحياة بجميع مظاهرها فلم يتفاوت قليلاً ولا كثيراً : قد دخلاها من باب وافترقا بقصدان هدفاً معيناً ، ثم خرجا منها عن طريقين مختلفين والتقيا فيهما : ضحيتي دين .. فلم يباعد بينهما التباين في تصرفاتهما ، لانهما قد نشدا الضالة ذاتها وكانا بحق من سلالة بيت ابي طالب الذي عبد الله حق عبادته وعرفه حق معرفته ، فقدم الأنفس الزكية قرابين في سبيله .. **وانه لبيت ينسي نفسه عند ما يذكر الدين ! ..**

ولننثنِ الآن لنلاحظ أبرز أمكنة ظهور كل منهما على مسرح الحياة . **فيطالعنا اول ما يطالعنا صلح الحسن وثورة الحسين ،** لان لمصالحة الحسن رجعاً مؤلماً ووقعاً خشناً على الاسماع في كل حين .. ولان صوت الحق الجريح في وثبة الحسن يترجع دعوة للثورة على الباطل مستجبة في كل جيل .. ذاك ان صلح الحسن لم تستسغه الاذواق ولا قابلته النفوس باستحسان ، في حين ان نهضة الحسين المحببة مثار للاعجاب ورمز للاريحية والاباء ..

ومن هناك وهنا كان الايهام ، مع ان الصراع بين الحسن ومعاوية **كان** صراع دين ودنيا كما ان الصراع بين الحسين ويزيد

كان صراع دين ودنيا او حق وباطل ! ومع ان موقفيهما لا يختلفان عن موقف أبيهما بالمبدأ والهدف **اذ الغاية بنظرهم** ثلاثتهم ، **كانت حفظ الدين وسلامة أهله بأي شكل**

من اجل ذلك سلّم الحسن ملك المسلمين الى معاوية بشروط ، لئلا يضرب الأمة بعضها من اجل منصب فتكون ، من ثم ، نهاية الخلافة والخلفاء . ففعل ما فعله ابوه يوم حُمل على قبول التحكيم وعلى امور وامور ، ثم لاقاهما الحسين بنفس النتيجة النهائية : **التضحية !**

ففي أيام ذاك – اعني علياً – كان الجيشان ضخمين ومتقاربين بالعدة والعديد ...

ويومَ هذا – اقصد الحسن – كاد الجيشان ، لولا ولولا ، ان يتقاربا بالعدة والعدد ...

ويومَ الحسين كان الجيشان مختلفين أشد الاختلاف بالعدة والعدد ...

فحملت الأولَ الخشيةُ على الدين على القعود ، اذلم يحارب في سبيل الدين الا الآباء والابناء ، فلا داعي لمحاربة الحفدة .

وحملت الخشية الثاني الى التنحي ليلتئم الجرح ، وأملًا بالنجاة من تدهور الامة التام .

وحملت تلك الخشية ذاتها الثالث على ان يضحي بنفسه لما رأى شره القوم للتقطيع .

فمواقفهم ، كلهم ، ليس فيها سذاجة ولا ارتجال ولا تهور .

بل كلها تبصّر وتدبّر . **لان السبط الاول لم يرغب بنفسه عن الناس ، ولا رغب أخوه في منفعة ذاتية ، كما لم يرغب أبوهما عن المنفعة العامة .**

ولمتحذلق ان يقول : كان انصار الحسين – وهم سبعون رجلاً – يتحدّون اثني عشر الف جندي مسلح ! . فما أضلّ ان نزعم وجود شبه بين قصتَي السبطين ! .

وعلى المتحذلق ان يسمح فيعي بان الضغط يجمع الاجزاء المبعثرة ، وان الأزمة تلد الهمة وهذا ما نعنيه في حالتَي الحسنين طرداً وعكساً . نعم نفهمه في حالة الحسين طرداً لانه كان في موقف لا سبيل منه الى الخلاص حتى ولو عرض على الاجلاف مبايعة يزيد ، وقد عرضها .. ونفهمه في حالة اخيه عكساً لانه لم يكن في موقف عسير التفاهمُ فيه . ففضل ان يرافق تمادي الدولة الاموية الناشئة ، العارفة بحقه السليب ، مع وجود جيشه المتفكك أملاً بمحاولة **التدريب** لتوجيه الانصار توجيهاً حصيفاً يهدف الى تكوين مجتمع أسمى يقضي على فساد الاوضاع والبيئة . وهذا لم يكن ميسوراً زمن الحسين الذي آثر ان يموت مظلوماً واندفع معه سبعون مخلصاً ائتلفت نياتهم فقاموا بوجه الاعصار ليثوب الناس الى رشدهم بعد تمزيق الاشلاء ولينصرفوا الى بكاء واحد وسبعين جندياً مجهولاً ! ! !

هذا ما أرجحه وانا متمسك بالاثبات ، هارب من النفي أتردد بينهما وانا مطمئن مائة بالمائة الى انهما لم يجنحا – والعياذ بالله ! – عن

طريق الصواب .. فينتج ان اجتهاد الحسن في طلب الامامة كان بخلاف اجتهاد أخيه ، لانه سلم الامر وتمكنه اكثر من تمكنه . ولكن ذلك لم يمنع من كونهما مصيبين . لان الذي اعتمداه من **الكف والاقدام** كان إما عن اجتهاد صائب نتج عن الفكر **الثاقب** والظرف الراهن ، وإما عن وصية من الأب .. فقد عملا بوحي المصلحة ، ويتعذر علينا التخمين أيهما أدى وظيفته أتمّ من أخيه .

أجل كان تمكن الحسن ، كما يتصور الناس ، اكثر من تمكن الحسين في حالتيهما ، لان جند الحسن الذي كان يطيف به – عشرات الالوف ! – لم يكن كجند الحسين الذي كان يحيط به – عشرات الرجال ! – . ولكن ينبغي ان لا يفوتنا بان ظنهما في عاقبة الامر ومستقبل الحال كان مختلفاً .. فكأنّ الاول نظر خذلان اصحابه عند اللقاء والحرب وآمن بالنتيجة قبل وقوعها ، وكأنّ الثاني تأكد صدق العزيمة في اصحابه عند اللقاء والحرب ، فآمن بالوصول الى النتيجة التي يتوخاها ..

فلذلك أحجم احدهما واقدم الآخر

وتمكنهما على الحال التي كانا فيها لا يحتم عليهما – كما يفرض الظن – هذا التسليم ولا ذاك القتال . لان إمارات التمكن الفعلي لم تكن موفورة لا لبعث الحسن الذي أنهى عهداً مضى بين هاشم وأمية كانت الحرب فيه بالسيوف ، ولا لتثبيط الحسين الذي فتح عهداً بين هاشم وأمية أصبحت فيه الحرب بالمبادىء .

فلربما غُلب امر اكبرهما ظاهراً ، ولكنه خرج من الفتنة نقياً بعد ان وضع بذرة العداء للأمويين في كل نفس يوم تبادل الخطب مع معاوية في جلسة المبايعة ، فأحرز نصراً لم يكن ميسوراً له في حرب تدوم بضعة اعوام ، اذ بـدا أثر النصر في قلوب الراشدين ممن فتك بهم خصمه ، فحققه ببساطة مذ مد يده مبايعاً على شروطه فنكث خصمه وداس جميع الشروط ! .

فلا ضير ان يحرق ذاته لاتقاء فتنـة تطيح بالمجموع الاسلامي ، كما انه لا ضير في ان يقتل الحسين لبعث مجتمـع اسلامي ينسف الضلال بعزمه ويفل عرشه بدمعه ..

ولو قيل : لمَ فعل الحسين ما نجعل الحسن في حل منه ؟ لكان جواب ذلك : **ان الحسن لم يكن مضطهـداً كالحسين بمعنى انه لم يُطلب رأسه** . فقـــد يؤدي الاضطهاد الى عناد كل من الحصين فيفضي الى الاستشهاد والتضحية الحتمية عند كبار النفوس . وجوابه ايضاً **ان الحسن غير اخيه بالطبع كما ان معاوية غير يزيد بالطبع** فينبغي ان لا نخلط بـين ظرف وظرف ومجتمع ومجتمع ومناسبة ومناسبة . فالحسن حليم ، بل انه الحلم مجسماً ..

ومعاويه **متعرض** يأخـذ اذا تمكن ويترك اذا لم تعطه الظروف ..

والحسين فادٍ ، بل انه الفداء الرمزي مخلوقاً في شخص ..

ويزيد أحمق ، وهو الحمق مجسداً على الارض ! .

وتوضيح ذلك : ان الحسين لو ثار في زمن معاويـة اصالحه كما

صالحه اخوه ، بعد ان يرى جيشاً يكثر عدد الخونة فيه . وان الحسن لو كان في زمن يزيد لثار وقتل كما قتل اخوه دون ان يتردد في تضحية فئة قليلة من الرجال والنساء والاطفال ، يقوّم بها السلائق ..

فنفسه ونفس اخيه من معدن واحد ، وهما من الطينة ذاتها مع حفظ المفارقات في الطبائع والهيئة .

ويدل على ما ادعيناه اننا لم نسمع كلمة واحدة من الحسين فيها معارضة لاخيه او لوم محسوس يعطي صورة ملموسة عن استنكاره للصلح ورغبته عنه ..

فهما وان اختلفا بالواسطة فقد اتفقا بالغاية ، وضحيا في سبيل ما عملا من اجله تضحيتين مختلفتين : **هـذا بجاه الدنيا وزينتها وذاك بالدنيا وبالنفس الغالية ..**

والمسألة ، بمجملها ، معادلة جبرية ، او مسألة حسابية لا تحتاج الى كبير عناء في الحل واستنتاج الجواب :

فالحسن مع معاوية يساوي الحسين مع يزيد .

او : الحسن مضروباً بمعاوية يساوي الحسين مضروباً بيزيد .

أجل اننا لم نقع على شيء يدل على استنكار الحسين لعمل اخيه وسيده ، سوى اننا وجدنا له قولاً مهذباً يرويه جندب الأزدي فيقول : دخلت على الحسن بعد الصلح مع جماعة وقلنا له ... فأجاب ... ودخلنا على اخيه الحسين وهو يأمر غلمانه بالخروج الى المدينة ، فجاءنا وسلم علينا وجلس معنا ، ورأى في وجوهنا

الكآبة والحزن فسبقنا بالكلام وقال : الحمد لله كما هو أهله ، ان امر الله كان مفعولاً ، وان امر الله كان قدراً مقـدوراً . انه كان امراً مقضياً ... والله لو اجتمعت الانس والجن على الذي كان ان لا يكون لما استطاعوا .. **والله لقد كنت طيب النفس بالموت حتى عزم عليّ اخي الحسن وناشدني الله ان لا انفـــذ امراً ولا أحرك ساكناً فأطعته ، وكأنما يجدع جادع أنفي بالسكاكين ، ويشرح لحمي بالمناشير ... وقد قال الله تعالى :عسى ان تكرهوا شيئاً وهو خير لكم ، وعسى ان تحبوا شيئاً وهو شر لكم ، والله يعلم وانتم لا تعلمون** .. الآن كان صلحاً وكانت بيعـة . ولننظر ما دام هذا الرجل – معاوية – حياً ، فاذا مات نظرنا ونظرتم ..

هذا ما قاله بعد الصلح بأيام ، ثم حفظ موثق اخيـه طيلة أيام معاوية ، كما وعد اصحابه . فقد اجتمع عليـه الاصحاب بعد وفاة اخيـه يعزّونه وكتب له كثير منهم يستحثونه على الثورة فبقي أرسى من ثبير وأحلم من الجبل . واذ عرف معاوية بنيات اصحابه كتب اليه : .. لقد بلغني امور وانتهت اليّ اسباب أظنها باطلة . ولعمري انه ان كان ما بلغني عنك كما ظننت ، فأنت بذلك أسعد ، وبعهد الله أوفى ، فلا تحملني على ان اقطعك . فانك متى تكيدني أكيدك ومتى تكرمني اكرمك . فلا تشق عصا هذه الامة وانظر لنفسك ولدينك ولا يستخفنك السفهاء الذين لا يعلمون .. فكتب اليه الحسين : قد بلغني كتابك وفهمت ما ذكرت . **ومعاذ الله ان انقض عهداً عهد به اليك اخي الحسن** . واما ما ذكرت من

الكلام فانما أوصله اليك الوشاة الملقون بالنمائم المفرقون بين الجماعات ، فانهم والله يكذبون .

فهذا صلح جديد . وهذا تأييد للصلح القديم وإمضاء له ! . ألم يكن باستطاعة السبط الثاني ان يجمع الذين جمعهم أخوه ويزيد عليهم بما أوتيه من حماس ليثور بوجه معاوية ؟ . ولمَ أجّل ثورته ؟ وما الذي قعد به اليوم ؟ !.

لم يقعـــد الا اعترافاً بما فعل سيده ، ولم يتغاضَ الا لذات الاسباب التي حملت أخاه على التغاضي والقعود ..

فقد تحرك العراقيون اذن بعد وفاة الحسن وكتبوا لأخيه يبايعونه ويخلعون معاوية .. وقـد امتنع هو عنهم وذكر العهد الذي لا يجوز نقضه حتى تنقضي المدة . ووعـد ان ينظر في الامر بعد موت الرجل .

فقـد كان الحسن اذن يعرف ، من الظواهر ، كثيراً مما يلي عهد معاوية ، وكان ينتظر لأخيه – كما انتظر اخوه – عهد غشم بدت تباشيره . **فهو العهد للثورة المنتظرة** ، لانـه يرى، غوغاء عهده لا يرون كبير فارق بـين ولايته وولاية معاوية . فليترك الامر حتى يماز الخبيث من الطيب .. **فمن السفه ان يكون غير ما كان .**

فمسالمة الحسن لخصمه كمجاهدة الحسين لعدوه .

ومد يد الاول لمعاوية الناكث ، كتقديم الثاني نفسه لمدية يزيد ، اذا اعتبرنا الصافي من نتائج الصلح ونتائج الثورة . لان

احد السبطين قد فعل **ما يجب عليه** مع مراعاة الواجب والظرف، ولان الثاني قد فعل **ما لزمه** وقام بالواجب الذي حتمه الظرف .

فمبايعـة الاول لمعاوية **المجهول** من جل معاصريه ، كمحاربة الثاني ليزيد **المشهور** لدى جل معاصريه

وفي تحمل الحسن للذل **عزّ** وذلت دعوة الامويـين وافتضح أمرهم ، كما ان في تحمل الحسين للقتل **عاش** وماتت دعوة الأمويين!. فلم يرغب الحسن بنفسه عن الصالح العام عند عرض شروط ملائمة كما اسلفنا . ولم يقل الحسين يوم الطف الا :

ان كان دين محمد لم يستقم الا بقتلي يا سيوف خذيني

وبالحقيقة ، ان أبا محمد ، باصطلاح الارقام والمتاجرة بالدين ، ليس بمن يستنفدون شيئاً في القضايا الدينيـــة او بمن يجيزون المساومة او المماكسة، **بل هو رجل وعى ما سمعه من محمد وعلي وتدبر ذلك . ثم افاض ما وعاه بتدبر ودون اي تصرف او التواء.** . . وان الحسين ، باصطلاح الحساب والعدد **قد استنفد دمه قبل ان يساوم او يماكس في الدين !. فهما والامور الروحية والاوامر الربانية شيء واحد . واذا انعدمت الامور الروحية او ألغيت الاوامر الربانية فقد انعدم كيانهما وألغي وجودهما ، لانهما ، ان تعرّيا من ذلك ، لا تبقى لهما من صورة، ولا تبقى لحياتهما من ضرورة البتة .**

ولنلتفت الى ان معاصريهما ، وجميع من لحق بمعاصريهما لم يحكموا لاحدهما او على احدهما بما نجوا منه الثاني . بل كانا في

وزن واحد وباعتبار واحد يكفي لتقريبه الى كل ذهن – والى الابد – ان يقال : هذا الحسن وذاك الحسين ..

فهما سبطا محمدوابنا علي وفاطمة ، إمامان معصومان قاما في طلب الامر او قعدا عن طلبه ، وسيدا شباب اهل الجنة بنظر الناس الى يوم يبعثان . من احبهما – كما نقل الخدري – تساقط الذنوب عنه كما تساقط الريح الورق عن الشجر . ولذا قال الامام الشافعي :

يا راكباً قف بالمحصّب من منى واهتف بساكن خيفها والناهض
ان كان رفضاً حب آل محمد فليشهد الثقلان اني رافضي ..

فاليهما أبداً تهفو قلوب الراشدين متى وأيان ذكرا . فقد كانا اذا طافا بالبيت يكاد الناس يحطمونهما اذ يزدحمون للسلام عليهما !. فالهفوان اليهما والهتاف بعظمتهما يعمر كل قلب ويملأ كل فؤاد ، في كل جيل وفي كل عصر ومصر .. **فأبو طالب عظيم وعلي اعظم دون ان نضطر الى برهان ، والحسن والحسين ، في تضحيتهما مدهشان . وكل من حصده سيف الغدر من آل ابي طالب عظيمة تضحيته في الله ومدهشة .**

واما من عجيب تربية السبطين فهو ان الحسين ما تكلم بين يدي اخيه إعظاماً له . فهو صامت ممتثل ، لا يخالفه ولا تجوز له مخالفته ، لانه المسؤول الواجب الطاعة بعد أبيه . فهو راض بجنب أخيه يمضي مواثيقه الى ان يصير المسؤول الاول بعده فلا يركن الى السلم ، وهو يرى تحرر يزيد من ربقة الدين ، ولم يجنح اليه مع

قلة انصاره ، ولو قد فعل لذاب في معناه وسط ذلك التيار الفاسق، ولسخر يزيد الاسلام لخلاعته وملكه الماجن، ولقتل الحسين دون اي ثمن لدمه . ولذلك ثار وفادى ببضعة وستين رجلاً قضوا جميعاً يوم الطف .

فمذ تُرِك الحبل ايام **قعد الحسن** بدأت بدع معاوية بالظهور فأخذ يودّع سنة الخلفاء ويتمشى نحو الملكية المتجبرة اللاهية .

ومذ حوسب الجبار اللاهي ايام **قام الحسين** ازدهرت بدع يزيد العربيد الغالب فاخذ يقطع آخر صلة للامويين بالدين .

فكل من الحسنين ، بالنهاية ، قد لاءم بين اسباب ثورته ونتائجها . فمهدا لغاية مفردة ، فتعاونا على ثل عرش **بصبر الاول ودم الثاني** فجاءت رسالتها تامة كاملة في غاية التمام والكمال .

فنهضة الحسين وليدة صلح الحسن ، بل هي جزء متمم له ، او هي فصل ثالث يدخل في تسلسل الرواية التي قام بها علي ومثل فيها ابناه وكان ابطالها :

علي والحسن والحسين

●

- ٣ -

●

التنازع يمهد السبيل لبقاء الاصلح . وهي قاعدة صادقة اذا لاحظنا نزاع الحسن ومعاوية . لانه لم يسفر عن ثورة ومهادنة وشروط فقط ، بل اسفر عن اندثار الأمويين عن وجه البسيطة وعن انتشار الهاشميين في الارض ، بحيث يجتهد الانسان ليقرب نسبه من الهاشميين كما يجهد في ابعاد نسبه من الأمويين! . ولم يكن ذلك النزاع احتكاماً يتم في شهر او في عام ، بل انه احتكام تم في قرن او اقل من قرن ، وظهر في اشكال مختلفة ومنافسة دائمة بقيت تعمل صامتة وصائتة الى أن كان ما كان ..

وقد رأينا صوراً مختلفة لكل من الخصمين في الكتب التي تبادلاها قبل الثورة ، وفي الخطب التي لفظاها بعد المبايعة . وعرضنا لشيء منها قبل هذا الموضوع ، فنكره تكريرها كلها ، ولكننا نود ان نعلق على ما اندرج من المفارقات في كثير منها .. وقبل ان نتقصى ذلك نلاحظ **ان معاوية ما فتىء يشيد بصاحبه وبآله قولاً ومعتقداً وهو على حق ، وبأن الحسن ما زال يأخذ صاحبه بالريشة ، ويأخذ عليه ، ويصفه ويصف آله بما هم فيه قولاً ومعتقداً وهو على حق ايضاً ..**

وسوف لا نختار ، ولن ننتقي ، بل سنطرح الشباك ونعرض الى ما يقع فيها مصادفة ، لان كل ما سيقع هو :

كقافية مثل حد السنا ن ستبقى ويذهب من قالها
نصيدتهـا ثم أرسلتها فهل يرتضي الناس إرسالها ؟

كتب الحسن كما بيّنا : فليتعجب المتعجب من توثبك يا معاوية على أمر لست من أهله لا بفضل في الدين معروف ولا أثر في الاسلام محمود ! . وأنت ابن حزب من الاحزاب ، وابن أعدى اعداء قريش لرسول الله ولكتابه .. فلم ينتقصه شيئاً من حقه ، لانه يجلّ عن ان ينتقص أحداً . **فابو سفيان هو الذي قاد قريشاً في حروب النبي ، وهو رئيس بني عبد شمس بعد قتل عتبة بن ربيعة في بدر . وذاك صاحب العير وهذا صاحب النفير وبهما يضرب المثل** .. وهو الذي مرّ في ايام عثمان بقبر الحمزة وضربه برجله وقال : **يا أبا عمارة ، ان الامر الذي اجتلدنا عليه بالسيف امسى في يد غلماننا اليوم يتلعبون به !!!**

فمن الصعب على معاوية ان يتخلص من هذه المواريث التي تؤثر الى حد بعيد في التوجيه نحو الخير او نحو الشر . ولذا ذكره المؤرخون في القاسطين وفي المؤلفة قلوبهم الذين سماهم محمد بهذا الاسم وعناهم ربه في القرآن العظيم ، اذا رغبوا في الاسلام بمجال وشاء دُفعت اليهم . ومنهم : هو وأبوه وأخوه يزيد ، وحكيم بن حزام وسهيل بن عمرو ، والحارث بن هشام بن المغيرة وصفوان بن أمية وعمير بن وهب الجمحي ، وغيرهم ممن أسلم طامعاً في أغراض

الدنيا لا عن يقين وعلم ..

وهو عدوّ الحسن وعدوّ أبيه . ولكن له موقفاً غريباً وقفه عند ما دخل الكوفة بعد مقتل عليّ ، اذ دخل عليه شبيب بن بجرة وقال متقرباً : أنا وابن ملجم قتلنا علياً !!! فوثب من مجلسه مذعوراً وقال لأشجع : لئن رأيت شبيباً او بلغني انه ببابي لأهلكنكم ! . أخرجوه عن بلدكم ..

فعلى هونك يا أبا يزيد. لمَ وثبت وذعرت ؟ ألأ نك مستجمع كافة حواسك ومقومات فكرك ؟ أم ان الخبر المشؤوم قد صادف من نفسك الموضع الحساس فأقامك الرعب لمشاهدة هذا المجرم ؟ أم ان الوجل والخوف قد اقعدك وأشلّ اعصابك لما خفت من إقدام هذا الوحش على الجرائم المنكرة ؟! .

نعم انه فعل ذلك وهو عدوه ولا يجوز لنا ان نقول : لمَ يكره معاوية الحسن ؟ لان كرهه له **عادة متأصلة متوارثة** لا يلغيها تعقل لحظة او لحظات .. وكل من الحسن ومعاوية قد اتصف بصفات أبيه اكثرها . وقد كانا يعيشان حياتَي ابويهما مع حفظ الفارق في مقتضيات الظروف : **فلو أتيح لابي سفيان ان ينتصر على محمد = والعياذ بالله = لنكل به وباصحابه ولأذاقهم الوان العذاب كما فعل ابنه يوم تمكن من اصحاب علي واصحاب ابنه الحسن** . اما الحسن فقد فعل ما فعله أبوه يوم اعتزل مجتمعه وتحول فخلد بروحيته الرفيعة ..

وكتب معاوية الى خصمه كما مرّ : انك امرؤ عندنا ، وعند

الناس ، غير الظنين ولا المسيء ولا اللئيم . وانا أحب لك القول السديد والذكر الجميل ! .

فتلك اعترافات يفضي بها الخصمان في أشد اوقاتهما غضباً وتغيظاً ، فيكفياننا مؤنة البحث والجهد لننصفهما في أشد مواقفنا تحيزاً وغيرة .. وانه للحقُّ يتلجلج في صدر كل منهما ، ثم يتقلقل ولا يلبث ان يتحرك به اللسان او ينفث به القلم بصورة عفوية ، فلا يلجئاننا الى انتحال الاعذار ومضاربة الاقوال وتحوير النصوص . فتصريحاتهما تغص بها بطون الكتب فتنفحنا بها صريحة ليس فيها تأوّل او ظن .

نظر معاوية مرة الى عبدالله بن جعفر بن ابي طالب وهو خارج من مجلسه فأتبعه بصره ثم قال : والله لكأنه رسول الله مشيته وخَلقه وخُلقه ! . وانه لمن مشكاته ! . لوددت انه اخي بنفيس ما املك . انها كلمة لا تلج اذن كل سامع بدون استئذان ، وبخاصة الى اذن من سمع بما كان بين هؤلاء وأولئك . وهي ليست فلتة لسان بل ان قائلها قد أتبعها بما يأتي عليها وعلى ما سبق ، وبما لا يترك في المدعى مغمزاً ولا ملمزاً .. فقد دخل عليه عبدالله بن جعفر هذا وعنده عمر بن العاص الذي تعمد النيل من علي وثلبه ثلباً قبيحاً ، فالتمع لون عبدالله واعتراه إفكلٌ حتى ارتعدت خصائله ثم نزل عن السرير كالفنيق وقال :

أظن الحلم دل عليَّ قومي وقد يتجهّل الرجل الحليم

ثم حسر عن ذراعيه وقال : يا معاوية ، حتامَ نتجرع غيظك؟

والى كم الصبر على مكروه قولك وسيء أدبك وذميم اخلاقك ؟ . هبلتك الهبول ، اما يزجرك ذمام المجالسة عن القذع لجليسك ، اذا لم تكن لك حرمة من دينك تنهاك عما لا يجوز لك ؟! . أما والله لو عطفتك اواصر الارحام او حاميت عن سهمك من الاسلام ، ما أوعيت بني الاماء المتك والعبيد السك اعراض قومك ! . وما يجهل موضع الصفوة الا اهل الجفوة . وانك لتعرف وشائك قريش وصفوة غرائزها ، فلا يدعونك تصويب ما فرط من خطئك في سفك دماء المسلمين ومحاربة امير المؤمنين الى التمادي فيما قد وضح لك الصواب في خلافه . فاقصد لمنهج الحق فقد طال عمهك عن سبيل الرشد وخبطك في ديجور ظلمة الغي . فان أبيت ان لا تتابعنا في قبيح اختيارك لنفسك فاعفنا عن سوء القالة فينا اذا ضمنا واياك الندي ، وشأنك وما تريد اذا خلوت والله حسيبك !» .

فقال معاوية يا أبا جعفر ، نغير الخطأ أقسمت عليك لتجلسن . لعن الله من اخرج ضب صدرك من وجاره . محمول لك ما قلت ولك عندنا ما أملت . فلو لم يكن محمدك ومنصبك لكان خلقك وخلقك شافعين لك الينا ، وأنت ابن ذي الجناحين وسيد بني هاشم .. فقاطعه عبدالله : كلا ، بل سيد بني هاشم حسن وحسين لا ينازعهما في ذلك احد . فقال معاوية : أقسمت عليك لما ذكرت حاجة لك الا قضيتها كائنة ما كانت ولو ذهبت بجميع ما املك . فقال : اما في هذا المجلس فلا . ثم قام وانصرف .

وأراد الحسن الدخول عليه مرة فاهتز مروان (١) جذلاً وقال: إئذن له فاني اسأله ما ليس عنده فيه جواب. فقال معاوية بعد ان شمل مروان بنظرة ذات معان: لا تفعل، **فانهم قوم قد ألهموا الكلام**.. ذاك انه يكيل له المدح بلا حساب، وينصفه اذا غاب ويغترف المال اذا حضر فيعطيه المليون درهم وهو مرتاح البال ثم يجيب ابنه وقد سأله مستعظماً العطية: **يا بني: ان الحق حقهم فمن أتاك منهم فاحثُ له!**.

فهو ابداً ينشر علينا من فضل خصمه ويطالعنا باعترافات هي دون ما منع الرواة عن اعلانه في عهده وعهد خلفائه، يوم كان المال فيهم مادة الشهوات، ويوم كانت ألسنتهم في القذف كالسبع ان خلّي عنها عقرت..

قد بلغ الحسن قوله: اذا لم يكن الهاشمي جواداً والأموي حليماً لم يشبها آباءهما. فقال: انه والله، ما اراد به النصيحة ولكن اراد ان يفني بنو هاشم ما في ايديهم فيحتاجوا اليه، وان يتشجع بنو العوّام فيُقتلوا. وان يتيه بنو مخزوم فيُمقتوا، وان يحلم بنو أمية فيحبهم الناس.

ولقد بكى الحسنَ بعد موته وقال لزوجه فاختة عند ما بكته: نعمّا، والله، ما فعلتِ، انه كان أهلاً لان يبكى عليه.. وانتهر جعدة، زوج الحسن، بعد ان سوّل لها فسممته وقتلته وجاءت

(١) قالت أم المؤمنين عائشة: يا مروان أشهد انّ رسول الله لعن أباك وأنت في صلبه.

لتبشره بذلك ، وقال : اذهبي ، فان امرأة لا تصلح للحسن بن علي ، لا تصلح لابني يزيد ! . واني احب حياة يزيد ولولا ذلك لوفيت لك بتزويجه . .

أجل انه بكاه وقال لبعض اللؤماء ممن نالوا منه في مجلسه : قد رأيت رسول الله يمص لسانه وشفتيه ولن يعذّب لسان او شفتان يمصهما رسول الله . . وهو قول لمعاوية **الراوية** لا نرده ، وشهادة لا ننكرها . ولكننا نلوم معاوية الراوية على قوله لسعد بن ابي وقاص يوم لامه على قعوده عن نصرة عليّ فاعتذر ذاك بقوله : سمعت رسول الله يقول : أنت مني بمنزلة هرون من موسى الا انه لا نبي بعدي. نعم نلومه على قوله له : لو سمعت من رسول الله في عليّ ما سمعت لكنت خادماً له ما عشت ! ! !

فكأني به لم يسمع شيئاً من النبي ! . لان الذي عليه المحققون من اهل السيرة ان الوحي كان يكتبه علي وزيد بن ثابت وزيد بن أرقم . وان حنظلة بن الربيع التميمي ومعاوية كانا يكتبان له الى الملوك والى الرؤساء والقبائل ، ويكتبان ما يجيء من اموال الصدقات وما يقسم في اربابها . . وكأنه لا حاجة للنبي به الا اذا اقتضت ذلك جلسة لا تستغرق سوى وقت يسير ينصرف بعدها معاوية الى شأنه وبطنه ! .

وما معاوية **مبدئياً** سوى والٍ لعمر بن الخطاب ثم لعثمان قد استقل بالشام وخيراتها ، وعصى أمر مولاه فأنفقها إنعامات على افراد كان يستعز بهم ويوصدهم لتهديد اسياده ورؤسائه اذا مسوا

جانبه . فكان يبذر الاموال الطائلة ويجعلها درعاً يتمشى به من ديمقراطية الدين الحنيف الى ارستقراطية الجاهلية ..

وأستغفر الصدق فانه قد جالس النبي وروى عنه فمن ذلك انه ارسل لعلي مرة يعظه (!) فقال في كتاب طويل : اني سمعت رسول الله يقول : **لو تمالأ اهل صنعاء وعدن على قتل رجل واحد من المسلمين لأكبهم الله على مناخرهم في النار** !!! فتأمل .. فلبني أمية ، كما قال علي ، مرود يجرون فيه . ولو قد اختلفوا فيما بينهم ثم كادتهم الضباع لغلبتهم .

والحصان اللذان نتكلم عنهما من سلالة واحدة . ولكن ليس بين الفخذين ، منذ القدم ، حب قرابي ، لانهما قد تشاطرتهما بيئات مختلفة فلم يبق فيهما شيء موحد سوى اللغة وبعض الصفات العامة التي يشترك فيها سائر الناس .. وقد كان معاوية يدرك هذه المفارقات دون غيره من معاصريه . فقد اجتمع عمرو بن العاص والوليد بن عقبة وعتبة بن ابي سفيان والمغيرة بن شعبة ، مرة وقالوا له : ان الحسن قد أحيا أباه وأحيا ذكره فقال فصُدق وأمر فأطيع وخفقت له النعال . وان ذلك لرافعه الى ما هو اعظم منه . ولا يزال يبلغنا عنه ما يسوءنا . فقال هم وما تريدون ؟ فاجابوا: ابعث عليه فليحضر لنسبّه ونسبّ أباه ونعيّره ونوبخه ونخبره ان أباه قتل عثمان ونقرره فلا يستطيع ان يغير علينا شيئاً من ذلك .. فقال معاوية بعد تمنّع منه وإلحاح منهم : لا تفعلوا . **فوالله ما رأيته قط جالساً عندي الا خفت مقامه وعيبه لي** ! ثم شددوا

الطلب فقال : ان بعثت اليه لأنصفنه منكم ولآمرنه ان يتكلم بلسانه كله .. وكرروا فتوعدهم محذراً : **اعلموا انهم اهل بيت لا يعيبهم العائب ولا يلصق بهم العار** ! .. ثم ارسل بطلبه نزولاً عند رغبتهم .

واذ جاء رسوله الحسنَ سأله عمن عند معاوية فأخبره عنهم فقال : ما لهم خرّ عليهم السقف من فوقهم وأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون .. وقال: يا جارية ابغيني ثيابي. وأتم : اللهم اني أعوذ بك من شرورهم وأدرأ بك في نحورهم ، واستعين بك عليهم فاكفنيهم كيف شئت وأني شئت بحول منك وقوة . ثم قام .. ودخل على معاوية فأعظمه وأجلسه الى جانبه مكرماً ، فارتادوا وخطروا خطران الفحول بغياً في نفوسهم وعلواً .. ثم قال معاوية : يا أبا محمد ، ان هؤلاء بعثوا اليك وعصوني . فقال الحسن : سبحان الله ! .. الدار دارك والأذن فيها اليك . والله ان كنت أجبتهم الى ما ارادوا والى ما في انفسهم ، فاني لأستحي لك من **الفحش** ، وان كانوا غلبوك على رأيك فاني لأستحي لك من **الضعف** . فأيهما تقرّ وأيهما تنكر ؟ . اما اني لو علمت بمكانهم جئت معي بمثلهم من بني عبد المطلب .. وما لي ان اكون مستوحشاً منك او منهم ؟ ! . **ان وليي الله** وهو يتولى الصالحين . فقال معاوية : اني كرهت ان ادعوك ولكن هؤلاء **حملوني** على ذلك مع كراهيتي له ، وان لك منهم النصف ومني . وانما دعوناك لنقررك ان عثمان قتل مظلوماً وان أباك قتله ، فاستمع منهم ثم

أجبهم ، ولا تمنعك وحدتك واجتماعهم ان تتكلم بكل لسانك ..

.. وتكلم عمرو بن العاص . وتبعه حفيد أبي معيط ، فعتبة فابن شعبة ، وذكروا معنى واحداً يدور حول قتل الخليفة الثالث واستعملوا شتائم نخجل من ذكرها ولا نرى ضرورة لنقلها اذ تلزمنا بالاطالة والخروج عن الموضوع على غير طائل .. ثم عقبهم الحسن فحمد الله وقال : أما بعد يا معاوية ، فما هؤلاء شتموني . ولكنك شتمتني انت فحشاً ألفته وسوء رأي عرفت به ،وخلقاً سيئاً ثبت عليه ، وبغياً علينا عداوة منك لمحمد وأهله .. ولكن اسمع يا معاوية واسمعوا فلأقولن فيك وفيهم ما هو دون ما فيكم. أنشدكم الله ايها الرهط اتعلمون ان الذي شتمتموه منذ اليوم صلى القبلتين كليهما وانت بالصلاة يا معاوية كافر تراها ضلالة وتعبد اللات والعزى غواية ؟! . أنشدكم الله هل تعلمون انه بايع البيعتين كليهما (بيعة الفتح وبيعة الرضوان) وانت يا معاوية باحداها كافر وبالاخرى ناكث ؟ وانشدكم الله هل تعلمون انه اول الناس إيماناً وانك يا معاوية من المؤلفة قلوبهم تسرون الكفر وتظهرون الايمان وتستالون بالاموال ؟! : انشدكم الله الستم تعلمون انه صاحب راية رسول الله يوم بدر ، وان راية المشركين كانت معك ومع ابيك ! ثم لقيكم يوم احد ويوم الاحزاب ومعه راية محمد ومعك ومع ابيك راية الشرك ! وفي كل ذلك يفتح الله له ، ويفلج حجته وينصر دعوته ويصدق حديثه ، ورسول الله في تلك المواطن كلها عنه راض وعليك

وعلى ابيك ساخط ! . وأنشدك الله يا معاوية ، أتذكر يوماً جاء فيه ابوك على جمل احمر وأنت تسوقه واخوك عتبة هذا يقوده فرآكم رسول الله فقال : **اللهم العن الراكب والقائد والسائق ؟ !** . أتنسى يا معاوية الشعر الذي كتبته الى أبيك لما همّ ان يسلم تنهاه عن ذلك قائلاً :

يا صخر لا تُسلمن يوماً فتفضحنا
بعد الذين ببدر اصبحوا مزّقا :
خالي وعمي ، وعم الأم ثالثهم
وحنظل الخير قد أهدى لنا الأرقا
لا تركننّ الى أمرٍ ! . تكلفنا
والراقصات ! . به في مكة الحرقا
فالموت أهون من قول العداة : لقد
حاد ابن حرب عن العزى اذاً فرّقا ؟

والله لما اخفيت من امرك اكبر مما ابديت ! . وأنشدكم الله ايها الرهط ، أتعلمون ان علياً حرم الشهوات على نفسه بين اصحاب رسول الله فأنزل فيه : يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحلّ الله ؟ وان رسول الله بعث اكابر الصحابة الى بني قريظة فنزلوا من حصنهم فهُزموا ، فبعث علياً بالراية فاستنزلهم على حكم الله وحكم رسوله ، وفعل في خيبر مثلها ؟ ! .

ثم قال : يا معاوية : أظنك لا تعلم اني اعلم ما دعا به عليك رسول الله لما اراد ان يكتب كتاباً الى بني خزيمة فبعث اليك

ونهتمك الى ان تموت .. أيها الرهط : نشدتكم الله ألا تعلمون ان رسول الله قد لعن أبا سفيان في سبعة مواطن لا تستطيعون ردها ؟ ! . (١) فهـذا لك يا معاوية ... ثم كال لهم جميعاً بمثل ما كالوا . وقام فنفض ثوبـه لينصرف فتعلق عمرو بن العاص به وقال : يا أمير المؤمنين قد شهدت قوله فيّ وقذفـه أمي بالزنى ، وانا مطالب له بحد القذف . فقال معاوية : خلِّ عنه لا جزاك الله خيراً . فتركه وانصرف فالتفت اليهم معاوية وقال : **قد انبأتكم انه ممن لا تطاق عارضته** ونهيتكم ان تسبّوه فعصيتموني . والله ما قام حتى أظلم عليّ البيت ! ! ! قوموا عني فقـــد فضحكم الله وأخزاكم بترككم الحزم وعدولكم عن رأي الناصح المشفق ..

هكذا كانت مجالسهم اذا ما خلوا ببعضهم . اما الحسن فيقول : من أتانا لم يعدم خصلة من اربع : آية محكمة ، او قضية عادلة ، او أخاً مستفاداً او مجالسة العلماء .

أما عمرو بن العاص فقد لقي الحسن بعدهـا في الطواف حول البيت فقال له : زعمت ان الدين لا يقوم الا بك وبأبيك ! فقد رأيت ان الله اقامه بمعاوية فجعله راسياً بعد ميله وبيّناً بعد خفائه . أفرضيَ الله بقتـل عثمان ؟ والله انه لألمّ للشعث وأسهل للوعث ان

---

(١) لعنه يوم خرج الى الطائف ليدعو ثقيفاً فلقيه في الطريق ، ويوم العير الذي جرّ الى وقعة بدر ، ويوم احد اذ كان ينادي : أعل هبل أعل هبل ! ويوم الأحزاب ، ويوم الحديبية ، ويوم الجمل الاحمر ، ويوم وقفوا لرسول الله في العقبة ليستنفروا ناقته !..

يوردك معاوية حياض ابيك ..

وإخال من سمع هذا القول يظن ان الحسن قد أرتج عليه لدى هذا البيان الفصيح . ولكن السبط اجاب باطمئنان : ان لاهل النار لعلامات يُعرفون بها إلحاداً لأولياء الله ، وموالاة لاعداء الله .. والله انك لتعلم ان علياً لم يرتَبْ في الدين ولم يشك في الله ساعة ولا طرفة عين قط . فاياك والتهجم عليّ فاني من قد عرفت ، لست بضعيف الغمزة ولا هش المشاشة ولا مريء المأكلة . واني من قريش كواسطة القلادة ، يُعرف حسبي ولا أدعى لغير ابي . وانت من تعلم ويعلم الناس تحاكمت فيك رجال قريش فغلب عليك جزارها ألأمها وأعظمها لؤماً . فاياك عني فانك رجس . فأفحم عمر وصغر في عين نفسه وانصرف ..

وقد كان أبوه احد المستهزئين برسول الله فنزلت فيه : ان شانئك هو الابتر ! . اما هو – أعني عمراً – فقد كان يؤذي النبي بمكة ويشتمه ويضع الحجارة في طريقه التي يسلكها ليلاً ليعثر بها !.

.. فمعاوية كما بينا سابقاً ، كان يفيض علينا البراهين التي تكسب رأيه بالامام وضوحاً . وكان يبذنا في اطراء خصمه ومعرفة قيمته ومعرفة منزلته من الامة. فدونك ما خاطبه به يوم تفاخرت قريش في مجلس لها اذ قال : يا أبا محمد ما لك لا تنطق ؟ **فوالله ما انت بمشوب الحسب ولا كليل اللسان** . فاجابه : ما ذكرت فضيلة الا ولي محضها ولبابها .. وهيهات ان يتهيب الحسن الافصاح اذا ما دعت الحاجة ! . وهيهات ان يتلكأ معاوية عن

مثل هذا الافصاح !.. فقد طلب زياد مرة رجلاً كان في الامان الذي طلبه الحسن لاصحابه ، فكتب الحسن اليه : اما بعد ، فقد علمت ما كنا أخذنا لاصحابنا . وقد ذكر لي فلان انك عرضت له. فأحب ان لا تعرض له الا بخير . فاجابه بسخط لانه لم ينسبه الى ابي سفيان : اما بعد ، أتاني كتابك في فاسق يؤويه الفساق من شيعتك وشيعة أبيك . وأيم الله لأطلبنهم ولو بين جلدك ولحمك ! وان أحبّ لحم اليّ آكله للحمٌ انت منه !.

ووصل الجواب فقرأه الحسن وارسل به الى معاوية واذ وصله قرأه و كتب الى زياد فوراً : ان الحسن بعث اليّ بكتابك اليه فاكثرت العجب منك . ولعمري انك الأولى بالفسق . فاما ان الحسن بدأ بنفسه ارتفاعاً عليك فان ذلك لا يضعك لو عقلت . واما تسلطه عليك بالامر فحق لمثل الحسن ان يتسلط .. وان لك رأيين : رأياً من أبي سفيان ورأياً من سمية ! فاما رأيك من ابي سفيان فحلم وحزم ، واما رأيك من سمية فكما يكون رأي مثلها !. واما تركك التشفيع في ما شفع فيه اليك فحظ دفعته عن نفسك الى من هو أولى به منك .. فاذا ورد كتابي فخلّ ما في يديك لابن ابي سرح — صاحب الحسن — وابنِ له داره واردد له ماله ولا تعرض له . وان الحسن ، ويحك ، من لا يرمى به الرجوان ! والى من وكلته لا ام لك ؟ ! . اما علمت انها فاطمة بنت رسول الله ؟ فذاك افخر له لو كنت تعلمه وتعقله . ثم ختم الكتاب بـ :

اما حسنٌ فابن الذي كان قبله اذا سار سار الموت حيث يسير
وهل يلد الرئبال الا نظيره فـذا حسنٌ شبهٌ له ونظير
ولكنه، لو يوزن الحلم والحجى بأمر ، لقالوا يذبلٌ وثبير !

بلى ، انه كان يفيض البراهين التي تكسب رأيه بالامام وآله وضوحاً . فقد رآه الوليد بن عقبة مكباً على كتاب عليٍّ لمحمد بن ابي بكر يوم ارسله اليه بعد توليته مصر ، ورآه جاداً في دراسته لانه دستور عظيم فقال له : مُرْ بهذه الاحاديث فلتحرق . فقال معاوية : مه لا رأي لك . فاجابه : أفمن الرأي ان يعلم الناس ان احاديث ابي تراب عندك تتعلم منها ؟ فقال : ويحك **أتأمرني ان احرق علماً مثل هذا ؟ والله ما سمعت بعلم هو اجمع منه ولا احكم !**.

واجتمع مرة بابن عباس فقال له : ان في نفسي منكم لحزازات يا بني هاشم ! . واني لخليق ان ادرك فيكم الثار وانفي العار . فان دماءنا قِبلكم وظلامتنا فيكم . فاجابه عبدالله : والله ان رمت ذلك يا معاوية لتثيرن عليك أسداً مخدرة وافاعي مطرقة لا يفثأها كثرة السلاح ولا تعضها نكاية الجراح . يضعون اسيافهم على عواتقهم ويضربون قدماً قدماً من ناوأهم . يهون عليهم نباح الكلاب وعواء الذئاب ، لا يفاتون بوتر ولا يسبقون الى كريم ذكر . قد وطنوا على الموت أنفسهم ، وسمت بهم الى العلياء هممهم . وهم كما قالت الأزدية :

قوم اذا شهدوا الهياج فلا ضربٌ ينهنهم ولا زجر
وكأنهم آساد غَينة غرثى وبلٌ متونها القطر

فلتكونن منهم بحيث اعددت ليلة الهرير للهرب فرسك ، وكان اكبر همك سلامة حشاشة نفسك ! . ولولا طغام من اهل الشام وقوك بانفسهم وبذلوا دونك مهجهم حتى اذا ذاقوا وخز الشفار وايقنوا بحلول الدمار ورفعوا المصاحف مستجيرين بها وعائذين بعصمتها لكنت شلواً مطروحاً بالعراء تسفي عليك رياحها ويعتورك ذبابها .

وما اقول هذا لاصرفك عن عزيمتك ، ولا لأزيلك عن معقود نيتك . ولكنها الرحم تعطف عليك ، والاواصر توجب صرف النصيحة اليك . فقال معاوية : لله درك يا ابن عباس ، ما تكشفت الايام منك الا عن سيف صقيل ورأي أصيل ! . وبالله لو لم يلد هاشم غيرك لما نقص عددهم ! . ولو لم يكن لأهلك سواك لكان الله قد كثرهم ! . ثم نهض ابن عباس وخرج ..

وتنطوي صفحات من التاريخ وصفحات ، بل تمرّ ازمان وازمان ، ورأي كل من الحسن ومعاوية بصاحبه يبقى متلألئاً ، ويظهر بحروف بارزة في كل سفر نقل شريط حياة الرجلين اللذين تحاجزا وتناجزا وما غيرا من رأيهما مقداراً تحتمل معه الظن او التخمين .

فقاتل الله الحكم الذي هو شهوة النفس البشرية ! لقد اطاح بعقيدة معاوية فجعل عقله وجميع حواسه في خدمة هذه الشهوة ،

في حين ان الحسن كان يسفح هذه الشهوة في خدمة عقيدته وعقله الى آخر لحظة من لحظات حياته .. فقد قال له سالم بن ابي الجعد في شكوه الاخير وهو يتنخم الدم . ما هذا يا ابن رسول الله ؟ اني لاراك وجعاً . فقال : أجل . دس الي هذا الطاغية من سقاني سماً فوقع على كبدي وهو يخرج قطعاً كما ترى . فقال له : ألا تتداوى ؟ فاجابه : قد سقاني مرتين وهذه الثالثة لا اجد لها دواء . وقد رقي الي انه كتب الى ملك الروم يسأله ان يوجه اليه من السم القتال شربة . فكتب اليه الملك : **انه لا يصلح لنا في ديننا ان نعين على قتل من لا يقاتلنا !.**

فانظر الى الدرك الذي هوى اليه **العربي** والى الذروة التي سما اليها **الرومي** !!! وأتم الحسن تخطيط الصورة بقوله : لقد حاقت شربته وبلغ أمنيته . **والله ما وفى بما وعد ولا صدق فيما قال .**

ومعاوية ايضاً لم ينس خصمه عند الموت فقد ذكره ساعة فراق دنياه الغالية وقال : ما آسى على شيء الا على ان أحج ماشياً ، فلقد حج الحسن بن علي خمساً وعشرين حجة ماشياً .. وما نفع الاماني يا أبا يزيد ، وانت الذي دفعت مائة اوقية تبراً ومثلها من اللجين وبعددهما من برود اليمن لمن يقتل العباس مثلاً ؟!!!

والغاية من هذه الالمامة الخاطفة بشهادة كل منهما ، هي للتدليل على ان بعضها او كلها يشهد بافضليـــة الحسن على كل معاصريه وينادي بحقـه السليب .. فمعاوية واحربا يحملنا بنفسه الى هذه

الاستنتاجات راضياً قانعاً ، بالرغم من تأول اعماله وحملها على الصحة لتبقى عدالته دون جرح !. فلم يبخل علينا هو ولا صاحبه، بل كفيانا المهم كله وحملانا الى الخروج بهـذه النتيجة الصريحة الصارخة. ومروان ايضاً ، وهو الذي كان يجرع الحسن غصصاً ، لم يبخل بالتصريح في مجلس خاص بالامويين فيقول : .. فبماذا نفاخرهم ، بالاسلام ام بالجاهلية ؟ فان كان بالاسلام فالفخر لهم بالنبوة . وان كان بالجاهلية فالملك فيه لليمن . فان قلنا قريش قالوا عبد المطلب! . اما والله لولا ما كان مني الى عليّ في ايام عثمان ومشهدي بالبصرة يوم الجمل لكان لي في علي رأي يكفي امرءاً ذا حسب ودين !. ولكن .. ولعل !.

فنحن نستغرب تجاهل الحسن وهو ممن طبقوا دستور العدل الذي يضمن سعادة البشر والذي اتاح للاعراب ان يدينوا الجزيرة فيدوّي صوتهم في الآفاق بعد ان كانت فكرة الجاهلية مختمرة في رؤوسهم تسيء من نياتهم وتقبح من اعمالهم ، وتضل عقولهم وتغوي مراتهم . فقد فسح المجال للدعوة فتمطت وصهرتهم ووثبت بهم الى اطراف آسية فأفريقية فأوربة لتزعزع اركان الضلالة ولتسلخ عن العيون اغشية العمى ، وليحق الحق فتنتظم الارض دولة الحكمُ فيها لله الواحد القهار !.

اي اننا ندهش من تناسي زارع تلك الغرسة ، ولا نعرف باباً للاعتذار عن تحدي تلك الجذوة ، المبدعين الذين وضعوا وزوّروا ليطفئوا نور الله . **فلم يكن لزاماً على الناس لوم الحسن**

على كل ما فعل وتبرير معاوية على كل ما ترك ؟ وليثق القارىء انا لا نلقي الكلام على عواهنه ، ولم نتورط ولا نقبنا عما يثقل كفة الواحد ويطير بكفة الثاني ، بل سرنا وأيم الله على رسلنا نأخذ من هنا وهناك فتيسر لنا الحصول على الصورتين واضحتين دون أي عناء ..

واما ما استغربناه ودهشنا له فاننا نقوله ونحن نزعم ان السبب قد نتج يومئذ عن انقسام المسلمين الى مؤمنين تياقون فهم ساكتون ، والى مارقين وشركاء للسلطان لا يهابون فهم يثرثرون ، والى متوقفين عن الجهر بالقول لاحقاق الحق او إبطال الباطل مترقبين فهم ملجمون ، وبالاخير الى معينين على الاثم والعدوان لضعف او لمآرب فهم متزلفون ، والى عاملين في مصنع الروايات لا ضمائر لهم فهم مأجورون ! . فضلاً عن ان معاوية كان يهتبل غرة الشاميين – وهم نسيج وحدهم – فيستثمر جهلهم لاحوال الحجازيين فيقيمهم ميزاناً يحكم بينه وبين خصومه بالقسطاس الاعوج .. فقد قال فيهم مرة : يا أهل الشام ، هل سمعتم قول الله تعالى : تبت يدا ابي لهب وتب ؟ . قالوا : نعم . قال : فان أبا لهب عم عليّ بن ابي طالب (وعقيل اخو علي جالس) ! . فارتاعوا لذلك وشتموا ابا لهب وشتموا علياً ! ! ! فعندها قال عقيل : فهل سمعتم قول الله عز وجل : وامرأته حمالة الحطب في جيدها حبل من مسد ؟ فقالوا : نعم . قال فانها عمة معاوية .. فقال معاوية : حسبنا ما لقينا من اخيك ..

وما هذه القضية سوى نموذج من محاكماته التي عود عليها شامييه فأعطت عندهم ثماراً طيبة توافق رغبته وهواه .. فهل لمن يسمع هذه المحاكمات ان يصدق انه كان يمدح الحسن او يثني على ابيه او يفوه بكلمة رضى على احد من الهاشميين ؟ ! ! فها هو ذا يكتب للحسن بعد وفاة ابيه قائلاً : لقد علمت بما حدث فلم افرح ولم أحزن ، ولم أشمت ولم آس . وان علياً أباك لكما قيل :

فأنت الجواد وانت الذي اذا ما القلوب ملأن الصدورا
جدير بطعنة يوم اللقا ء يضرب منها النساء النحورا
وما مزيد من خليج البحا ر يعلو الأكام ويعلو الجسورا
بأجود منه بما عنده فيعطي الالوف ويعطي البدورا .

في حين ان علياً والحسن لم يغيرا رأيهما فيه البتة .. فهذا علي يكتب لزياد يوم كان واليه ويوم كان معاوية يخادعه ليستنزله : قد عرفت ان معاوية كتب اليك يستنزل لبك فاحذره فانما هو شيطان رجيم . والشيطان يأتي المرء من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله ليقتحم غفلته ويستلب غرته ..

.. أما كيف حق الباطل وبطل الحق بوجه عام في نزاع الخصمين فأمر يصعب تفسيره باكثر مما فسرناه . كما ان السحر يغزو الحقائق العلمية عند العامة ويتفوق عليها . فسلطة العلم وسلطة الحق تفشلان امام الجماهير الضعيفة الوعي القومي ، لان هيمنتها تتركز على الاقناع الذي تنفر منه نفوس الحزبيين ولا تفسح له المجال حين ثورتها ونزوانها . فقد خطط الحسن ، مدة

اعوامه القليلة ، لبدء اعلان رأيه على شفتي أخيه الحسين . ثم فسح مجال تسعين عاماً تم فيها الاقتناع بالحق ، حقه الذي لا يدركه ولا يهيمن عليه الا العقل ، بخلاف قضية معاوية التي تتسلط عليها وتوجهها النفس التائقة الى المادة والجسد .

فلمَ لا نعدل عن هذه الخطة الجائرة ولمَ بقيت مزاعم الاول لنا سنة مقدسة لا تُنال ولا تُمس ؟ ولم رضينا بما وضعوا دون اية محاكمة عقلية ، فلبسنا ما نسجوا في عهد يسوّد صفحة ناصعة البياض من ماض كله تراث حميد ؟ : ولمَ لم نضرب ذلك ببعضه فنستخلص الحق ونعمد الى لمّ الشعث ورتق الفتق وردم الهوة السحيقة التي احتفرها جيل ضال فضلّت بها اجيال وباعدت بين اهواء كثير من فرق المسلمين ؟ ! .

وبظني ان حمَلة الدين وعقَلة الاحاديث وطلَبة الحق لا يستعصي عليهم ايجاد الحق بمقدار ما يصعب عليهم الجهر به . لانه ينادي على نفسه ، من اعماق الكتب الرثة ، ويتحدى السدود والقيود .. فالى يومنا هذا يظن بعض البلهاء ان الخصمين من طينة واحدة ، مع ان الطين ، بالحقيقة ، كثير المفارقة بمقدار ما فيه من المقاربة . فانهما وان لم يسبق احدهما بالنسب كما يتوهم المماحكون ، فالله لا يسأل عن الانساب بل يثيب ويجازي عن الاعمال .

فاذا كان الامر لا ينال الا بالمرجحات، **فقد اجتمعت المرجحات كلها على لسان الخصمين في الحسن بنسبة ما انعدمت على لسانيهما في معاوية : ففي الاول السابقة والاخلاص والعصبة من**

الرسول ، وفي الثاني الاجلاب والكيد والمكر للرسول ولدينه، اذا أردنا ان نقول ما في ضمائرنا دون خجل ..

واذا سئلت شخصياً فقد والله اقتنعت ، بعد هذا اليسير ، بان الزبدة قد انمخضت .. والا فما معنى ان **الحسن المخذول** لم يفه بكلمة واحدة في سره او في علنه تدل ، صراحة او تلميحاً ، على ان الحق في غيرهم ، او على غير قبوله بواقع محتم ؟ . وما معنى ان **معاوية المنتصر** ، لم يفه بكلمة واحدة في سره او في علنه تدل ، جهراً او كناية ، على كفره بحق الحسن وافضليته او على ان الحق المشروع في الامويين ؟ على الرغم من **الكبت** الشديد الذي منيت به دعوة الحسن القانع بما اصاب قضيته خدمة للدين والمتدينين ، وبله **الحرية الشاملة** التي بلغتها دعوة معاوية الذي طمح الى صنع دين جديد بيده !!!

فلمَ صار خليفة ؟ . وهل الخلافة بالسيف ؟ فنحن لا نعرف عنه الا ان عمر ولاه الشام وأقره عثمان بما في كلمة **ولاية الشام** من معنى . . فما معنى تسميته بالخلافة بعد الحكمين على الشكل المعروف وبالضغط المشهور ليعيش عشرين عاماً خليفة بعد ان عاش عشرين عاماً والياً متمرداً على مولاه !!!

وكيف رضي بخلافة ضد علي وبنيه بعد ان كان كاتباً للوحي(!) وبعد ان سمع من النبي قوله : نقلتُ من الاصلاب الزاكية الى الارحام الطاهرة ، وما افترقت فرقتان الا وكنت في خيرهما ؟ .

فمنذ عبد مناف افترق بنوه ، فكانت : **هاشم والمطلب** يداً ،

وعبد شمس ونوفل بدأ. وهذا قبل بعث النبي بتسعين سنة تقريباً . ثم كان في بني هاشم النبي وفي بني أمية أبو سفيان فمن خيرهما ؟ . وفي الهاشميين علي وبنوه وفي الامويين معاوية فمن هو خير الفئتين ؟ ! ! ففي بني هاشم الحمزة أسد الله ، وفي اولئك عتبة اسد الاحلاف ، ومن الاولين سيدة النساء ، ومن الآخرين حمالة الحطب ، وفي اولئك الشهداء كأبي تراب وذي الجناحين والعباس ، وفي هؤلاء الحاكي والمخلج والوزغ والطريدان ؟ ! . فمن خير هؤلاء ؟ .

وقد يخطر لقائل ان يتهمنا بوضع صاحب الرسالة في الميدان ذاك الذي يتضاءل بجانبه اي واحد في الخلق ، لننال من شأن الامويين ولنقلل من احترامهم .. والجواب ان هناك اشياء جوهرية كانت فارقاً ازلياً وتبقى فارقاً ابدياً ، فأشرف خصال قريش : في الجاهلية مثلاً : اللواء والندوة والسقاية والرفادة وزمزم والحجابة ، وهي كلها مقسومة بين بني هاشم وعبد الدار وعبد العزى دون بني عبد شمس ..

فليس لعبد شمس لقب كريم ، ولا اشتق له معاصروه ، ولا مناصروه ايضاً ، لقباً من صالح فعاله . ولا لابنه أمية من لقب . فلمَ نسي الوضاعون ذلك يا ترى ؟ . اما عبد المطلب فهو صاحب الايلاف المذكور في القرآن ، وصاحب حلف الفضول الذي لم يكن فيه لبني عبد شمس من نصيب . واما أمية فله شيء ، قاتل الله السهو ، اذ فعل ما لم يفعله عربي قبله ولن يفعله انس ولا جنّ

بعده ، وذلك بان زوج امرأته لابنه أبي عمرو في حياته فأولدها أبا معيط !!!

وقد أقر ابو جهل على نفسه وعلى رهطه من بني مخزوم حين قال : تحاربنا وبني هاشم حتى صرنا كهاتين فقالوا منا نبي ! اما أبو سفيان فلم يمنع الناس من قتله يوم الفتح الا تدخل العباس حين اردفه على بغلته وحمله الى رسول الله وسأله ان يشرفه وينوه به . فهل رعى معاوية اليد البيضاء والنعمة الغراء ؟ لعله رعاها يوم تعقب الهاشميين واصحابهم .. ولعل يزيد كان اوفى منه لقاء التنويه باسم جده يوم الفتح فقد قتل ، على يد ابن زياد ، تسعة من صلب علي وسبعة من صلب عقيل !! .

واذا تهنا في تعداد **القاتلين الظالمين** من بني أمية وتعداد **المقتولين المظلومين** من بني هاشم لطال بنا المقام ولعجز يراعنا عن ذلك ولوقفنا دون الرقمين حيارى مشدوهين ! . فمن الغريب أننا كلما استرسلنا في المقابلة نلاحظ ان الهاشمي أعرق الناس في الايمان ونجد الاموي أعرق الناس في التهتك : فمن اولئك الزهراء وابناها والسجاد ، ومن هؤلاء آكلة الاكباد والتابع وكهف النفاق مثلا ! . فلندع ذلك ، او لنعطه لعلي قبل ان ندعه ان يقول ملخصاً : بنو أمية أمكر وأنكر وأفجر ، ونحن أصبح وأنصح وأسمح . وهم اشدها حجراً وأطلبها للامر الذي لا ينال ، ونحن أطعم للطعام وأضرب للهام .. او لنعطه لمعاوية ليقول : **بنو هاشم اشرف واحداً ونحن اكثر عدداً . فما كان الا كلا**

وبلى حتى جاؤا بواحدة بذت الاولين والآخرين .. أو لنعطه اخيراً للنبي ليقول : والذي نفسي بيده لا ينفع عبداً عمله الا بمعرفة حقنا .. ألا من آذى قرابتي فقد آذاني، ومن آذاني فقد آذى الله . فأستوصي بأهل بيتي خيراً ، فاني أخاصمكم عنهم غداً ، ومن أكن خصيمه أخصمه ، ومن أخصمه دخل النار ، ومن حفظني في اهل بيتي فقد اتخذ عند الله عهداً .

واما بعد هذا القول لا نفقه من اجتهاد معاوية ولا من تجوزه قليلاً ولا كثيراً ، ولا نفقه شيئاً مما ذهب اليه حفظة الحديث في عصره من التحوير والتبديل اللذين أذهبا الامة بالافتراق والاختلاف الى يومنا هذا ! .

ولكن تجوز معاوية وتجوز من تجوز له لم يفسره احد بأحسن مما فسره به عمار بن ياسر الذي قال : **والله ما ارادوا الطلب بدم عثمان ، ولكنهم ذاقوا الدنيا واستحبوها وعلموا ان الحق اذا لزمهم حال بينهم وبين ما يتمرغون فيه منها ، ولم يكن لهم سابقة يستحقون بها طاعة الناس والولاية عليهم ، فخدعوا اتباعهم وقالوا : إمامنا قتل مظلوماً ليكونوا بذلك جبابرة ملوكاً ..**

ونعود لنكرر نهائياً ان للطبيعة والتقاليد وللعرف اصطلاحات وسنناً تأبى على الانسان الا ان يسير وفقها ، وان هو حاد عنها تعرض لانتقامها بنتيجة تفريطه .. وقد كان الحسن ، الكبير في نفسه ، في منجى عن انتقامها ، اذ لم يتأثر عنصره الأصيل ،

ولا تبدل جوهره الصافي ، بل كان الحق على لسانه وفي شفتيه وفي قلبه يملأ له كيانه ويسد عليه آفاق تفكيره . وكان معاوية يسيطر عليه حب الدنيا والرغبة في السلطان فاستصفى اعداء الله وألب على عباد الدنيا يوم ملأ حبها قلبه وكيانه وسد عليه آفاق تفكيره ! .

وألا فما معنى ان يحضر الناس في ميعادليقوم أبو مريم السلولي يوم استلحاق زياد ليشهد : ان أبا سفيان حضر عندي وطلب مني بغياً فقلت له : ليس عندي الا سمية فقال : ائتني بها على قذرها ووضرها . فأتيته بها فخلا معها ، ثم خرجت من عنده وان أسكتيها ليقطران منياً ؟ ! . فقال له زياد : مهلا يا أبا مريم ، انما **بعثت شاهداً ولم تبعث شاتماً ! ؟ .**

ثم ما معنى ان يأتي كوفيّ على بعير الى دمشق فيتعلق به دمشقي ويقول : هذه ناقتي ، ثم يرتفع امرهما الى معاوية فيحكم بالناقة ؟ ؟ ؟ للشامي ، ويقول بعد ان يطلعه الكوفيّ على انه جمل : **هذا حكم قد مضى ؟ ! !**

فلولا سد آفاق تفكيره لما نسخ الآية (أدعوهم لآبائهم) ، ولا رد الحديث (الولد للفراش وللعاهر الحجر) .. ولولا ذلك لما رضي ان يفتضح امر أبيه مع بغيّ في مجلس تقام فيه حدود الله ..

فما باله يمشي الهبلّى وهو يحكم ؟ وما لنا نوشك ان نتوسع في هذا الباب وبغيتنا ليست هناك ؟ .

- ٤ -

●

اللسان أحق الاشياء بالسجن . وقد جعله الله خلف الشفتين والاسنان ، ومع ذلك نراه يكسر القفل ويفتح الباب .

فالانسان كائن مقفل ، وليس أقدر منه على تصوير نفسه اذا انفتح بابه وانطلق سجينه . لانه يعبر عما لا يقع تحت حس الآخرين وما لا يحدده تخمين او تقدير ، ولذا تكون صورته صادقة لا مجال فيها للريب ، وكيف يجوز لنا ان نشكك فيها والمرء لا يتخرص حين يتكلم عن نفسه بل **يأخذها بالريشه** ؟ .

واني ، منذ شرعت بدراسة موضوعي ، كانت تدغدغ فكري رغبة في تصوير بطلي الثاني في الكتاب ، فوقفت بين مدّ وجزر ، وجزم وتوانٍ ، ثم خفت إطالة الشرح ، وعادت فحرضتني اسباب واسباب ، الى ان انتهى بي العزم الى الانسحاب عن المسرح ليرقاه أبو زيد فيمثل دوره بذاته ويصف نفسه بنفسه ليكفيني مؤنة الاطناب في البحث والتحليل .

.. **الغاية تبرر الوسيلة** . هذا شعاره ودستور حياته . ومن اجله أحلّ المساومة وأباح الدهاء فضحى كل شيء على مذبح أنانيته .. وهو القائل مرة : **لا نصل الى الحق الا بالخوض في كثير**

من الباطل ! . هذه خطة السياسي الذي لا يهمه الانحراف او المواربة ما زالت الطريق تقوده الى تحقيق غايته . وانها خطة جريئة وجريئة على الحق أية جرأة ! .

قد وقف مرة بين رجالات قريش وقال : اني ما وليتها بمحبة علمتها منكم ، ولا مسرة بولايتي . ولكني جالدتكم بسيفي هذا مجالدة ! . ولقد رضيت لكم نفسي على عمل ابن ابي قحافة ، واردتها على عمل عمر فنفرت من ذلك نفاراً شديداً ، واردتها على ثنيات عثمان فأبت علي" . فسلكت بها طريقاً لي ولكم فيه منفعة : مؤاكلة حسنة ومشاربة جميلة .. فان لم تجدوني خيركم فاني خير لكم ولاية .. فهو يعلن المنهج امام غطارفة قريش وليوثها متناسياً رخزات التاريخ ومطمئناً الى ان من يهزم النبل من الخلفاء الراشدين هم اقل ممن تستهويهم المؤاكلة الحسنة والمشاربة الجميلة .

فمنذ اول عهده اخذت تتكشف سريرته لأناس المقبل ُ على العهد منهم اكثر من المدبر ، والموافق الراضي أوفر من المُظاهر المنافس .. اما موبقات العهد كلها ، واما آثام من يتهافت على الدنيا ليقاسمه الغنم فيها ، وليشاطره المؤاكلة الحسنة والمشاربة الجميلة ، وليشترك معه في سنة تعارض سنة محمد وخلفائه ، اما ذلك كله فانه يتحمله وهو معتمد على عدل الله وعفوه (!) . ولذا زعم الزاعمون ان عهده عهد تماد ٍ ينذر بشر" مستطير . وأحس" هو بذلك اكثر ما أحس" به عند اهل الحجاز . فقصدهم وطمأنهم بان

خطب قائلا : **يا أهل المدينة اقبلونا بما فينا ، فان ما وراءنا شرّ لكم ! . وان معروف زماننا هذا منكر زمان قد مضى ، ومنكر زماننا معروف زمان لم يأتِ . ولو قد اتى فالرتق خير من الفتق ، وفي كل بلاغ ! .**

وانها لزوبة ، أية زوبة ، ان يعدهم باعتبار معروف زمانه منكر زمان قد مضى ، وان ينتظروا زمان ابنه حيث يصبح منكر زمانهم معروفاً عنده ومألوفاً !!! فتلقتّي يا شاشة التاريخ ، وخلدي **البيان الوزاري** ، والتقرير الذي اتسع بمقدار ما ضاقت عباراته عن حشو الكلام ، يفضي به الخليفة أمام الملأ من امة محمد ، لينال الثقة ويزيد في الائتلاف ! . على ان الملأ الواعي من الأمة قد قرأ في غضون كلامه عهداً سيئاً ، وتنبأ لخلفه بعهد أسوأ ، وقد صدّق يزيد قول ابيه فلوّث شرفاً ناصعاً لايام الاسلام البيض ، اذ ما زال ينتقل بالأمة من سيء الى أسوأ ويرميها ، اعتسافاً ، بما يضيق عليها الخناق ليحقق حدس والده الذي نطق به يوم لفظ **ارادته السنية** ، وليكون معروف زمانه منكر زمان ابيه كما كان معروف زمان ابيه منكراً في المنكر ! .

فما لمعاوية لا يكتم سره ، وهو كتوم للسر كما يقول ؟ . وما باله يتبغض الى قريش وهو أحب اليهم من غيره على ما يدعي ؟!.

فاستمع اليه يقول قبل ذلك بقليل جداً : **أعنت على عليّ باربع : كنت اكتم سري وكان رجلاً ظُهَرَة . وكنت في اطوع جند واصلحه وكان في أخبث جند وأعصاه ، وتركته واصحاب الجمل**

لت ان ظفروا به كانوا اهون عليّ منـــه ، وان ظفر بهم اعتددت بها عليه في دينـه ! . وكنت أحب الى قريش منه .. فيالك من جامع إليّ ومفرق عنه ، وعون لي وعون عليه ! .

لقد بدأ الرزية منذ بدأت الرواية بينه وبـين علي ، اذ لجأ الى المماكسة فاستحل ما حرم الدين وأباح لنفسه ما لم ينزل الله به من سلطان . وذلك حين ارسل علي جريراً بن عبدالله البجلي اليه ليأخذ البيعة عليـه ، فكان جدال وكانت مدافعة قال جرير في آخرها : ان المنافق لا يصلي حتى لا يجد من الصلاة بداً . فجاوبه معاوية : انها ليست بخدعة الصبي عند اللبن ! . انه امر لهما بعده ، فأبلعني ريقي . ثم استمهله وراسل عمرواً بن العاص فطـالت المراسلة وناظره فطالت المناظرة ، فألح عليه جرير باعطـاء الجواب فقال : ألقاك بالفصل في اول مجلس ان شاء الله . ثم كتب لعمرو بمصر طعمة له لئلا يكثر الأخذ والرد ، فاجتمع لمعاوية امره بعد ان ربح رأي هذا العفرية الزبنية الذي رينَ على قلبـه وغينَ ، فقام في مجلس يسمعه منه جرير ولا يراه وأنشد :

تطاول ليلي واعترتني وساوسي ۞ لآتٍ أتى بالترهات البسابس
أتاني جريرٌ والحوادث جمـة ۞ بتلك التي فيها اجتداع المعاطس
أكايده والسيف بيني وبينه ۞ ولست لأثواب الدنيّ بلابس
إنِ الشام اعطت بيعـة يمنية ۞ تواصفها أشياخها في المجالس
فان يفعلوا أصدم علياً بجبهة ۞ تفتّ عليه كل رطب ويابس
واني لأرجو خير ما نال نائل ۞ وما أنا من ملك العراق بيائس!

.. ثم ختم هذه الرزايا بطامة ليس لها لامة حين جاء جماعة من الانصار يشكون فقرهم فقالوا : لقد صدق رسول الله في قوله لنا : ستلقون بعدي أثرة وقد لقيناها . فسألهم معاوية : وما قال لكم ؟ فقالوا : قال لنا : اصبروا حتى تردوا عليَّ الحوض . فقال مستهزئاً : **فافعلوا ما امركم به عساكم تلاقونه عند الحوض كما اخبركم !!!**

وحرمهم ولم يعطهم شيئاً ، مع انه كان يغدق العطاء على من له عنده مأرب . أفهذا شأن من يتسلم ولاية المسلمين ليوزع الحقوق والفيء في امة محمد ؟ او هذا شأن العربي الكريم المحتد ؟ أو يقول ذلك عن ستالين من يحكم باسم ستالين ؟ ام يقوله عن الانكليز من يحكم باسم الانكليز ؟ .

ولنستمع الى مساجلته مع رجل من اهل الكتاب موصوف بالاطلاع على الكتب السماوية جميعها وفد عليه فقال له : **اتجد نعتي في شيء من كتب الله ؟ قال : اي والله ، لو كنت في امة لوضعت يدي عليك من بينهم** . قال : فكيف تجدني ؟ فقال له : **اجدك اول من يحوّل الخلافة ملكاً والخشنة ليناً** . قال : ثم يكون ماذا ؟ فأجابه : ثم يكون منك رجل شرّاب للخمر سفاك للدم ، يحتجن الاموال ويصطنع الرجال ويجنب الخيول ويبيح حرمة الرسول . قال : ثم ماذا ؟ قال : ثم تكون فتنة تتشعب باقوام حتى يفضي الامر بها الى رجل اعرف نعته ، يبيع الآخرة الدائمة بحظ من الدنيا مخسوس فيجتمع عليه آلك وليس منك ،

لا يزال لعدوه قاهراً ، وعلى من ناوأه ظاهراً ، ويكون له قرين مبين امين . فقال له : أفتعرفه ان رأيته ؟ قال : شدما .. فأراه من بالشام من بني أمية فقال ما اراه ههنا . فوجه به الى المدينة مع ثقات من رسله فاذا **عبد الملك** يسعى مؤتزراً وفي يده طائر فقال للرسل : ها هوذا ! . وقد نقل عن معاوية انه كان يكرم عبد الملك ليجعلها يداً بيضاء عنده يجازيه بها في مخالفاته ..

.. اما هو فما زال يطمع بالملك منذ قال له رسول الله : يا معاوية ، اذا ملكت فأحسن .. ومن إحسانه انه كان اذا دخل عليه الشاب من قريش وأغاظ له وهداه ، يقول له : يا ابن اخي ، **انهاك عن السلطان فانه يغضب غضب الصبي ويأخذ اخذ الاسد** .. ثم من إحسانه الذي شمل المسلمين وغيرهم انه كان ، اذا سمع ببطريك يظهر العداء للامويين ، يهدي اليـــه أنفس الهدايا ثم يكتب اليه كتاباً كأنه جواب كتاب أتاه منه يظهر فيه طاعته ، ويعلمه بانه قد وثق باخلاصه لعرش الشام وتصميمه على نصره على ملك الروم (!) ثم يأمر الرسول ان يتعرض في الطريق لمن يقرأ الكتاب من جيش الروم فيوصل الخبر لملك الروم (!) **فيكون نصيب البطريك المحاكمة والعذاب الذي بعضه الصلب !!!**

ومن أعجب العجيب ان يهدد بأخذ الاسد ، وهو انما ميزه جبنه الذي سنرى شيئاً عنه في هذا الفصل . فقد شهد عنده اعرابي بشيء كرهه فقال له : كذبت . فقال الاعرابي : الكاذب والله متزمل في ثيابك ! . فقال معاوية وهو يصطنع التبسم : **هذا جزاء من**

عجل .. وان نحتاج الى الوضع لانه ينقلنا من جو الى جو ومن مزية الى مزية ليكمل تخطيط الصورة بنفسه .. قال عدي بن حاتم الطائي يوماً : ما انصفك عليّ اذ قتل وبقيت بعده . والله ان قلوبنا التي أبغضناك بها لفي صدورنا ، وان اسيافنا التي حاربناك بها لعلى عواتقنا ، وان أدنيت الينا من الغدر فتراً لندنينّ اليك من الشر شبراً ! . وان حز الحلقوم وحشرجة الحيزوم لأهون علينا من ان نسمع المساءة في علي .. فشمله معاوية بنظرة واسعة فرأى في عينيه ناراً وشمل الجلساء فرأى في أعينهم جذوة ، فهل يقدم على شتمه ؟ وهل يأخذه بغضب الصبي وأخذ السلطان ؟ ام هل يحز حلقومه ؟ لم يفعل شيئاً من ذلك ، بل خاف فقال : **هذه كلمات حكم فاكتبوها** .. فهو لبق في تغيير مجرى الحديث ليخفف من حدة الخصم وسورة غضبه . فقد يطريه مثلاً ليأخذه من حواسه ولتتأثر مشاعره .. وهو ماهر يفتنّ في التخلص من المآزق ، ويطلق لبديهته الكلام فلا تنبو في المراوغة ، ولا تكبو في المحاولة ، اذ يعطي كل كلام جواباً مطاطاً فيه معنى الجواب وفيه معنى مسجل عليه وحده ، قد انفرد به كما انفرد الانكليز بالدهاء وبصنع الجوخ ! . ولكن الدهاء الانكليزي تضاءل امام الدولار . ولكن الجوخ الانكليزي من صنع فرنسا ! ! ! لقد انكشف كل شيء .

ومعاوية عبقري من الناحية السلبية ، اي من ناحية الفتل والدوران ، **يصدر بعبقريته عن روح انهزامية تحيد عن جوهر**

الموضوع اذا أحست بالقوة فتلجأ الى المداهنة حسب ما زعمه عبد الملك بن مروان ، وتلجأ الى مشترى الضمائر بالنقود في كل مناسبة (حتى لاتمام بيعة يزيد) على يد عملاء السوء ممن استخلصهم لنفسه واستعملهم لنفثه ، كالمغيرة بن شعبة الذي ارسل ابنه موسى ومعه عشرة رجال أتوا ليزينوا له امر البيعة فسأله معاوية : **بكم اشترى ابوك من هؤلاء دينهم** ؟ فقال : بثلاثين الفاً ! .

وقبل ان اسدل الستار عن معاوية الشجاع ، أورد قصصاً عقد عليها المؤرخون فصولاً ممتعة ، وبينوا مدى ثباته امام الحق وامام القوة .

منها : ان أسامة بن زيد وعمر بن عثمان قد تنازعا في ارض واحتكما فيها الى معاوية في مجلس عام ، كان هادئاً وصار هادراً وانقلب الى عصبية ثائرة قال اثناءها عمر متبجحاً بقربه من الخليفة: كأنك تنكرني ؟ فاجابه أسامة : ما يسرني نسبك بولائي .. فانتبه الحاضرون للانتساب الصاخب فقام مروان فجلس الى جانب الحسن وقام عبدالله بن عامر فجلس الى جانب أسامة ، ثم قام سعيد بن العاص فجلس الى جانب مروان ، وقام الحسين فجلس الى جانب اخيه ، وقام عبدالله بن العباس فجلس الى جانب سعيد ، وعبدالله بن جعفر جلس بجنب الحسين وعبدالرحمن بن الحكم جلس الى جانب ابن جعفر .. ثم شخبت الاوداج بالدم الهاشمي انتصاراً لأسامة .. وحملقت الأعين ! . فأحس معاوية بالشر فقال : **لا تعجلوا . الجلية عندي . انا كنت شاهداً اذ اقطعها رسول**

الله أسامة ! . فخرج الهاشميون ظاهرين . وقال الامويون لمعاوية على اثرها : هلا اذ كانت هذه القضية عندك بدأت بها قبل التحزب او أخرتها عن هذا المجلس ؟ ! فقال : **دعوني ، فوالله ما ذكرت عيون الهاشميين تحت المغافر يوم صفين الا لبُس على عقلي ! وان الحرب أولها نجوى واوسطها شكوى وآخرها بلوى.**

فهذه شهادة له نجيز لانفسنا ان نشك فيها ، ولكننا لا نردها عليه . اذ ما ذنبه اذا كان يخاف فشهد بعد ان ألبس على عقله حين رأى الجماعة يتميزون غيظاً ؟ ! . وما وزن القضية عنده اذا ربحها هاشمي" او عبشمي" ما زال يبقى في منجى عن الاصطدام والمشاكل ؟ فاللبيب لا يفكر بغير هذا الحل مثل ذلك المجلس ، وخصوصاً حين يدعو قوّته فتخونه .

ومنها : قوله لعمرو بن العاص بعد استقرار الخلافة : يا أبا عبدالله ، لا اراك الا ويغلبني الضحك ! قال : ولماذا ؟ قال: اذكر يوم حمل عليك ابو تراب في صفين فأذريت نفسك فرقاً من شبا سنانه ، وكشفت سوأتك له ! . فقال عمرو : انا منك اشد ضحكاً . لأذكر يوم دعاك الى البراز فانتفخ سحرك وربا لسانك في فمك وغصصت بريقك وارتعدت فرائصك وبدا منك ما اكره ذكره لك ! . فقال معاوية : وكيف يكون هذا كله ودوني عك" والاشعريون فقال عمرو : انك لتعلم ان الذي وصفتُ دون ما اصابك . وقد نزل بك ذلك ودونك عك والاشعريون ، فكيف كانت حالك لو جمعكما مأقط الحرب ؟ فقال معاوية : **خض بنا**

الهزل الى الجد . ان الجبن والفرار من علي لا عار على احد فيهما

وتفصيل المسألة ان علياً دعاه للمبارزة يوم صفين ليستريح الناس من الحرب بقتل احدهما ، وكرر النداء : يا معاوية . فسألوه عن شأنه فقال : أحب ان يظهر فأكلمه . فبرز معاوية ومعه عمرو بن العاص . فلما قارباه لم يلتفت الى عمرو بل قال لصاحبه : ويحك ، علامَ يقتتل الناس بيني وبينك . أبرز اليَّ فأينا يقتل صاحبه فالامر له . فالتفت معاوية الى عمر وقال : ما ترى يا أبا عبدالله ؟ فقال : قد انصفك الرجل . واعلم انك ان نكلت عنه لم يزل سبةٌ عليك وعلى عقبك ما بقي على ظهر الارض عربي ! فقال معاوية : يا ابن العاص ، **ليس مثلي يخدع عن نفسه ، والله ما بارز ابن ابي طالب شجاع قط الا وسقى الارض من دمه . ما غششتني منذ نصحتني الا اليوم ! . اتأمرني بمبارزة ابي الحسن وانت تعلم انه الشجاع المطرق ؟ اراك طمعتَ في امارة الشام من بعدي** ! . ثم انصرف لما أحسَّ بالشر يحدق به ، ولما شعر بسوء نية عمرو . واذ رأى عليّ ذلك منهما ضحك ورجع . ومذ جاسا وهدأ روع معاوية انشد :

يا عمرو انك قد قشرت لي العصا
برضاك لي وسط العجاج برازي
يا عمرو انك قد أشرت بظنة
حسب المبارز خطفة من بازي

ولقد ظننتك قلت مزحة مازح
والهزل يحمله مقال الهازي
فاذا الذي منتك نفسك حاكياً
قتلي .. جزاك بمـــا نويت الجازي
ولقـد كشفتَ قناعها مذمومة
ولقد لبست لها ثياب الخازي ؟ .

ثم اخذ يقرّعه كما تقرع الارامل اللواتي لا حيـلة لهنّ الا التقريع ، فاجابه عمرو كما نقل :

معاويَ : ان نكلت عن البراز وخفت .. فانها أم المخازي
معاوي: ما اجترحت اليك ذنباً ولا انا في الذي حدثت هازي

وما ذنبي بان نادى عليٌّ ؟ وكبش القوم يدعى للبراز
ولو بارزته بارزت ليثاً حديد الناب يخطف كل بازي
وتزعم انني أضمرت غشاً جزاني بالذي اضمرت جازي

وتكرر الغش من عمرو اذ شجع حريثاً مولى معاوية على مبارزة علي فنهاه سيده وأبدى له النكر ، ولكن ابن العاص شجعه فكان نصيبه ضربة قسمته الى نصفـين فجزع عليه معاوية وبكاه بقوله :

حريث ألم تعلم وجهلك ضائر بأن علياً للفوارس قاهر
وأن علياً لم يبارزه فارس من الناس الا أقصدته الأظافر
أمرتك امراً حازماً فعصيتني فجدك ،اذ لم تقبل النصح عاثر
وولاك عمرو،والحوادث جمة ، غروراً،وماجرت عليك المقادر

وظن حريث ان عمراً نصيحه   وقد يُهلك الانسان من لا يحاذر

ومن الطريف ان الامام استبدل لباسه يوماً وطلب معاوية باسم صاحب اللباس يقيناً ، واذ اقترب من معاوية انتبه لهجمة الغضنفر فغمز برجليه على جواده وعليّ وراءه حتى دخل في مصاف اهل الشام ، فرآه ابن العاص وقال : قد أعياني ان اعلم أجبان انت ام شجاع ، لاني اراك تتقدم حتى اقول اراد القتال ، ثم تتأخر حتى اقول اراد الفرار ! فأجابه : **والله ما اتقدم حتى ارى التقدم غنماً ، ولا اتأخر حتى ارى التأخر حزماً كما قال القطامي :**

شجاع اذا ما أمكنتني فرصة   وان لم تكن لي فرصة فجبان

ثم جاء النجاشي – في آخر زمان – لعمرو من معاوية فقال يصف رجوعه امام عليّ وهربه من المأزق الحرج :

ونجّى ابنَ حرب سابحٌ ذو علالة   أجشّ هزيم والرماح دواني
اذا قلت اطراف الرماح تناله   مرّته له الساقان والقدمان

وجاء ايضاً الحارث بن ظالم فنظم الابيات الآتية ليتمثل بها معاوية حين عاد مذعوراً قد ضاقت عليه الارض بما رحبت وهو يقول :

أبت لي عفتي وأبى بلائي   واقدامي على البطل المشيح
وإكراهي على المكروه نفسي   وأخذي الحمد بالثمن الربيح
وقولي كلما جشأت وجاشت   **مكانك تحمدي او تستريحي !**

حين انتخى مالك الاشتر ، صاحب عليّ ، وقال : اما والله

لأحملن على معـاوية حتى اقتله ، ثم ركب فرسـاً وضربه حتى قام على سنابكه ، ودفعه فلم ينهنهه شيء عن الوقوف عن رأس معاوية الذي هرب ودخل خباء فنزل مالك عن فرسه ودخل عليه فخرج معاوية من جانب الخباء فخرج مالك في اثره ، فاستصرخ معاوية الناس فاحاطوا به وحالوا بينهما . فصمم معاوية ان لا يعود لركوب فرسه بعدها ، وتلا الابيات ! .

ثم جاء الشعبي ليقول فيه : **كان معاوية كالجمل الطب اذا سُكت عنه تقدم ، واذا رُد تأخر** .. وقال هو نفسه لابنـــه يزيد : قد تبلغ بالوعيد ما لا تبلغ بالايقاع . واياك والقتل فان الله قاتل القتالين – وحجر واصحابه ! – وقال لجماعـة لاموه على سكوته عن رجل أغلظ له في مجلس عام : **انا لا نحول بين الناس والسنتهم ما لم يحولوا بيننا وبين سلطاننا** .

.. اما الخديعة الخالدة فقد فكر بها هو ووزير دولته فتمت وتم له ما اراد من التحكيم فقال لوزيره المذكور : **يا عمرو ان اهل العراق قد اكرهوا علياً على قبول ابي موسى ، وانا واهل الشام راضون بك . وقد ضُم اليهم رجل طويل اللسان ، قصير الرأي ، فأجد الحز وطبق المفصل ، ولا تلقه برأيك كله** .

فقد اشتهر لدى كل اصحابه بهذا الجبن المداهن . من اجل ذلك قال له عبدالله بن الزبـير يوم تنازع امراً مع مروان واستشم منه ريح الميل الى قريبه : أطع الله نطعك . فانه لا طاعة الك علينا الا في حق الله . ولا تطرق إطراق الافعوان في اصول السخبر ..

وأرجو ان لا يأخذ عليّ القارىء نعته بالمداهن ، اذ ذكره عبد الملك بهذا اللقب يوم خطب فقال : ما انا بالخليفة المستضعف (يعني عثمان) ولا بالخليفة المداهن (يقصد معاوية) ولا انا بالخليفة المأفون (يزيد) . فمن مداهنته انه كتب يعظ علياً في وقعة صفين : ان الله تعالى يقول في محكم كتابه : ولقد أوحي اليك والى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطنّ عملك ولتكوننّ من الخاسرين . واني احذرك الله ان تحبط عملك وسابقتك بشق عصا هذه الامة وتفريق جماعتها . فاتق الله ، واذكر موقف القيامة ، واقلع عما أسرفت فيه من الخوض في دماء المسلمين ه واني سمعت رسول الله يقول : لو تمالأ اهل صنعاء وعدن على قتل رجل واحد من المسلمين لأ كبهم الله على مناخرهم في النار . فكيف يكون حال من قتل اعلام المسلمين وسادات المهاجرين (كأن حجراً واصحابه كانوا من عبَدة النار ! ! !) بلهَ ماطحنت حربه من اهل القرآن وذوي العبادة والايمان من شيخ كبير وشاب غرير ، كلهم بالله تعالى مؤمن وله مخلص وبرسوله عارف . فان كنت أبا حسن انما تحارب على الامرة والخلافة فلعمري لو صحت خلافتك لكنت قريباً من ان تُعذر في أمر المسلمين ، ولكنها ما صحت لك . أنى بصحتها واهل الشام لم يدخلوا فيها ولم يرتضوا بها ؟ . فخفِ الله وسطواته واتّق بأسه ونكاله وأغمد سيفك عن الناس فقد والله أكلتهم الحرب فلم يبقَ منهم الا كالثمد في الغدير ، والله المستعان.

ان من البيان لسحراً ! وان من المواربة ما يأخذ باللب ! .

نقرأ هذا الكلام المنمق فنعتقد ان الجواب عليه كالرد على الله وعلى رسوله . وهل هو الا من القرآن والحديث ؟ فماذا عند عليّ ليجيب به ؟ إسمعه وقد اجاب بما أتى عليه فجعله هباء منثوراً .. قال له :

قد أتتني منك موعظة موصلة ، ورسالة محبرة نمقتها بضلالك وأمضيتها بسوء رأيك . وهي كتاب امريء ليس له بصر يهديه ولا قائد يرشده ، دعاه الهوى فأجابه وقاده الضلال فاتبعه ، فهجر لاغطاً وضلّ خابطاً .. **فأما امرك لي بالتقوى فارجو ان اكون من اهلها ، واستعيذ بالله من ان اكون من الذين اذا أمروا بها اخذتهم العزة بالاثم** . واما تحذيرك اياي ان يحبط عملي وسابقتي في الاسلام فلعمري لو كنت الباغي عليك لكان لك ان تحذّرني ذلك ، ولكني وجدت الله تعالى يقول : **فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء الى امر الله . فنظرنا الى الفئتين فوجدنا الفئة الباغية الفئة التي انت فيها ، لان بيعتي بالمدينة لزمتك وانت بالشام كما لزمتك بيعة عثان بالمدينة وانت امير لعمر على الشام ، وكما لزمت اخاك يزيد بيعة عمر وهو امير لأبي بكر على الشام** .. واما شق عصا هذه الامة فأنا أحق ان انهاك عنه . واما تخويفك لي من قتل اهل البغي فان رسول الله امرني بقتالهم وقتلهم ، وقال لاصحابه : **ان فيكم من يقاتل على تأويل القرآن كما قاتلت على تنزيله** ، وأشار اليّ وانا أولى من اتبع امره . واما قولك ان بيعتي لم تصح لان اهل الشام لم يدخلوا فيها ، **فكيف ؟ وانما هي بيعة واحدة تُلزم**

الحاضر والغائب ولا يستثنى فيها النظر ولا يستأنف فيها الخيار ؟
فاربع على ظلعك ، وانزع سربال غيك ، واترك ما لا جدوى له عليك . فليس لك عندي الا السيف حتى تفيء الى امر الله صاغراً او تدخل في البيعة راغماً ..

فهل في كتاب علي مداهنة ؟ وهل فيه تأويل ؟ وهل فيه صرف القرآن والحديث عن موضوعهما ؟ ام هل فيه بالنهاية شيء من : **رمتني بدائها وانسلت ؟ !!**

هذا كله شعور بالنقص ، وكله مظاهر لمن يتعلق بظاهر الآيات وظاهر الحديث ليمثل دور : (ابو لهب عم علي ! ! !)
وما لنا ، وقد امسكنا بجبنه ومداهنته ، لم نترك دوراً لغيره يظهر فيه للترفيه عن المستمعين ؟ وما لنا نعد ذلك عاراً عليه وقد اعترف بانه لا عار على من فر من وجه علي ؟ ولِمَ لا نمسك عمرواً وبُسر اللذين كشفا سوأتيهما لينجوا ، واضطرا الحرث بن نضر الخثعمي الى القول :

أفي كل يوم فارسٌ لك ينتهي وعورته وسط العجاجة باديه
يكف لها عنه عليٌّ سنانه ويضحك منها في الخلاء معاويه
بدت امس من عمرو تقنّع رأسه وعورة بُسر مثلها حذو حاذيه
فقولا لعمرو ثم بسر: ألا انظرا لنفسكما . لا تلقيا الليث ثانيه
ولا تحملا الا الحيا ، وخُصاكما. هما كانتا ، والله ، للنفس واقيه!!!

اما حق بني هاشم فأمر كان لا يجادل فيه . بل يعرفه لذويه ويحاج من يحاجه . ألا تذكر قوله لابنه يزيد عندما استكثر عطاءه للحسن والحسين: **يا بني ، ان الحق حقهم ، فمن أتاك منهم فاحث له ؟** ألم يعترف لاهل المدينة بأنه الملك المغتصب حين قال لهم : ما اختلف امر امة بعد نبيها الا ظهر اهل باطلها على اهل حقها ! . ثم انتبه فاردف : الا هذه الامة فانها وانها .. وتلعثم فنزل ؟ . ألم يعترف بعدم مشروعية حقه يوم قال لاهل الكوفة: **والله ما قاتلتكم لتصلوا ولا لتصوموا ولا لتحجوا ولا لتزكوا ! . انكم تفعلون ذلك . ولكني قاتلتكم لأتأمر عليكم ؟** . أو لم يقل يوم ذاك واني منيت الحسن ؟ لقد مناه ومنى غيره ولم يف له ولا وفى لغيره . فنعته اكثر المؤرخين بالغدر والمكر والتهتك والاستهتار بكل تراث في سبيل السلطان الذي ذاق حلاوته وطعم رغده .. نعم ذاق حلاوته وطعم رغده ، فقد قدم على عمر بن الخطاب من الشام وهو أبض الناس وألينهم لباساً فضربه عمر على عضده وقال : هذا والله لتشاغلك بالحمامات ، وذوو الحاجات تقطع انفسهم حسرات على بابك ! .

وها ان نفسي تراودني على الاسترسال في جمع هذه الصفحات المبعثرة من سيرته ، وعلى ان اطلق لقلمي العنان ، فأماطلها واتلكأ في جمع سيرة واسعة من المزالق ، ولكن المطرف بن المغيرة بن شعبة يأبى الا ان يروي قصته فيقول : كان من عادة ابي ان يأتي معاوية فيتحدث اليه ثم ينصرف ، فيذكره لي معجباً بذكائه

وعقله.. ثم جاءت ليلة أمسك أبي فيها عن العشاء . ورأيته مغتماً فظننت ان ذلك لأمر حدث فينا . فقلت : ما لي اراك مغتماً منذ الليلة ؟ فقال : **يابني ، جئت من عند اكفر الناس وأخبثهم** . قلت وما ذاك ؟ فأجاب : قلت لمعاوية وقد خلوت به : انك وقد بلغت سناً يا أمير المؤمنين ، فلو اظهرت عدلاً وبسطت خيراً .. وقد كبرت ، فلو نظرت الى اخوانك من بني هاشم فوصلت ارحامهم . ووالله ما عندهم اليوم شيء تخافه . وذلك مما يبقى لك ذكره وثوابه . فقال : **هيهات هيهات ، اي ذكر ارجو بقاءه ؟ ملك اخو تيم فعدل ، وفعل ما فعل ،فوالله ما غدا ان هلك فهلك ذكره الا ان يقول قائل: أبا بكر . ثم ملك اخو عديّ فاجتهد وشمر عشر سنين ، فوالله ما غدا ان هلك فهلك ذكره الا ان يقول قائل : عمر . ثم ملك اخونا عثمان ، فملك رجل لم يكن في مثل نسبه ، فعمل ما عمل ، وعُمل به ، فوالله ما غدا ان هلك فهلك ذكره وذكر ما فُعل به ..وان ابن ابي كبشة اخا هاشم – انه قاتله الله يريد النبي – يُصرخ ويُصاح به كل يوم خمس مرات : اشهد ان محمداً رسول الله ! فاي عمل يبقى واي ذكر يدوم بعد هذا لا أم لك ؟ ! ! والله الا دفناً دفناً ! !**

أرأيتم الى انه ما زال يتمطى الى اطفاء نور الله ؟ أرأيتم بماذا يحلم ؟ انه يريد ان نصرخ ونصيح عشر مرات في اليوم : اشهد ان معاوية وليّ الله ! . وغير ذلك لا يهز عظامه النخرة ، ولا يبرد أوام نفسه . فمن شاء فليؤمن برسالته ومن شاء فليكفر يا مغيرة !

وقد وصل هـذا الحديث الى سمع المأمون من بعض سماره ، فكتب الى الآفاق بلعن معاوية وببراءة الذمة ممن يذكره بخير ، لما رأى في قوله من الوثنية والجاهليـــة والالحاد في الله والكفر برسوله وبخلفائه .. فالحقد على الهاشميين كان ، الى جانب معرفته بحقهم الصريح ، يتأجج في صدره ويتأكل قلبـه ، وكذلك كرهَ محمد كان يسد عليه منافذ تنفسه ، ولكن كيف له بما قـد مضى فسبق في السيف العذل ؟ ! !

ولم تخفَ هذه الظاهرة عنده على احد فضلاً عن اصحابه . فقد زاره بعض الامويين في اواسط عهده فقالوا له : انك قد بلغت ما أملت فلو كففت عن لعن عليّ . فاجابهم قائلاً : **لا والله ، حتى يربو عليها الصغير ويهرم عليها الكبير ولا يذكر له ذاكر فضلاً.** أمنية لم تتحقق لك يا طاغية الشام ويا ملك الزمان، فقد ربا الصغير وهرم الكبير في كل عصر ومصر على تمجيـد سيرة عليّ ، وعلى ذم طرائق افتنانك في المكر والدهاء. وقد ابى الله الا ان يتم نوره ولو كرهت ..

وقال لبعضهم في مناسبة : **ان أبا بكر سلم من الدنيا وسلمت منه وعمر عالجها وعالجته ، وعثمان نال منها ونالت منه . اما أنا فقد تضجعتها ظهراً لبطن وانقطعت اليهـا فانقطعت اليّ** .. فهو يفتخر بانقطاعه الى الدنيا وباستسلامه لنزعاته ونزغاته . أو لم تسمع ما كان بينه وبين حزيم بن فاتك ؟ لقد دخل عليه هذا ومئزره مشمر ، وكان حسن الساقين فقال له : **لو كانت هاتان الساقان لامرأة !** فقال

حزيم : في مثل عجيزتك يا أمير المؤمنين ! فانظر الى المجون التي هوت بخلق خليفة المسلمين وانزلته الى درجة تمكن معها فرد من رعيته ان يجيبه ببذاءة تسكته دون ان ينبس ببنت شفة ! . أو لم تسمع بما كان بينه وبين ترب من اللهو الباطل ، اذ قال له : لو شئت ان امنيك وأخدعك لفعلت . فقال عمرو : لا لعمر الله ما مثلي يُخدع لاني أكيس من ذلك . فقال معاوية : أدنُ مني أسارّك . فدنا عمرو ، فعضّ معاوية اذنه وقال : هذه خدعة !.

غير انه - أستغفر الصدق - ما كان ليسلم من وخز الضمير بين الفينة والفينة . بل كانت تعاوده **فكرة الآخرة** ، وتراود نفسه لحظات من تفكير وتعقل فيسمح لشفتيه بان تنطلقا بقوله :

الا ليتني لم أعن بالملك ساعة ولم أك في اللذات اعشى النواظر
وكنت كذي طمرين عاش ببلغة ليالي حتى زار ضنك المقابر !.

وبان تهمسا :

يومي منك يا حجرُ طويل !!!

وقد كان عوتب على تقطيعه بحجر وباصحابه من السيدة عائشة حين قالت له : أين كان حلمك من حجر ؟ فقال : **لم يحضرني رشيد ..** كما عوتب من عبد الرحمن بن الحرث بقوله : أين غاب منك حلم ابي سفيان ؟ فاجابه : **حين غاب عني مثلك من حلماء قومي ، وحملني ابن سمية فاحتملت !** . . فلمَ صار زياد ابناً لسمية الآن ؟ ولمَ نسيت إثبات نسبه في ذلك المجلس المرذول الوضر ؟ ألم يخجل في مجلس إثبات نسبه من ابيك قليل الخجل والحياء ؟!!

وقد لام سعداً بن ابي وقاص اذ قعد عن نصرته يوم صفين . فقال له سعد : أتأمرني ان اقاتل رجلاً قال له رسول الله : **انت مني بمنزلة هرون من موسى ، الا انه لا نبي بعدي ؟** فقال معاوية : من سمع هذا الحديث معك ؟ فقال : فلان وفلان . فقال معاوية : **لو كنت سمعت هذا لما قاتلته** .. فلحظات الآخرة ووخز الضمير كثيراً ما كانت تعوده في آخر حياته ، اي يوم اخذت تتقطع اسبابه من الدنيا وترتبط بالآخرة . فقد قال لبناته لما يئس من نفسه اذ اشتد مرضه وأيقن بالهلاك : قلبنني . ففعلن . فقال: **انكن لتقلبنه حوّلاً قلّباً ان وُقي كبة النار !** . ثم التفت لابنة قرظة وقال : إبكيني زوجة ! . **هل الدنيا اجمع الا ما جربنا ورأينا ؟ أما والله قد استقبلنا زهرتها بجدتنا وباستلذاذنا بعيشنا ، فما لبثت الدنيا ان نقضت ذلك منا حالاً بعد حال وعروة بعد عروة . فاصبحتْ وقد وترتنا وأخلقتنا واستلأمت الينا . أفٍّ لها من دار ، ثم أفٍّ لها من دار ..**

وكان آخر ما قاله قبل الموت : ايها الناس ، **اني من زرع قد استحصد . واني قد وليتكم ولن يليكم احد من بعدي الا وهو شرٌّ مني ، كما كان من قبلي خيراً مني .. يا ليتني كنت رجلاً بذي طوى !!!** وهذا يتنافى مع قولك :

قد عشت في الدهر الواناً على خلق

شتى وقاسيت فيه الطين والطبعا

كلاّ لبست فلا النعماء تبطرني
ولا تعودت من مكروهها جزعا

فكيف ترضى نفسك على التسليم والندم عند ما كشر لك الموت عن نابه ؟ ألم تقل لصاحبك عمرو يوم سألك : ما بقي مما تستلذه : **اما النساء فلا أرب لي فيهن . واما الثياب فقد لبست من لينها وجيدها حتى وهى بها جلدي فما ادري أيها ألين . واما الطعام فقد اكلت من لذيذه وطيبه حتى ما ادري أيّه اطيب . واما الطيب فقد دخل الى خياشيمي منه حتى ما ادري أيّه اطيب . فما شيء ألذّ عندي من شراب بارد في يوم صائف ومن ان انظر لبنيّ وبني بنيّ يدورون حولي ؟ ! !**

أهكذا كان شأن خلفاء رسول الله ؟ أم هذا بعض شأن الرسول الذي لحق بربه ولم يضع لبنة على لبنة ولا قصبة على قصبة ؟ ! !

●

هذه بعض خطوط صورته الخلقية رسمها بيده . واما افعاله المجانبة للعدالة كلبسه للحرير وشربه في آنية الذهب وأكله في آنية الفضة ، فقد انكرها عليه كثيرون ، ومنهم ابو الدرداء الذي قال له يوماً : اني سمعت رسول الله يقول : ان الشارب فيها لتجرجر في جوفه نار جهنم . فقال معاوية : **اما انا فلا ارى بذلك بأساً !!**

فقال ابو الدرداء : **من عذيري من معاوية ؟ انا اخبره عن الرسول وهو يخبر عن رأيه ! لا أساكنك بأرض ابداً ..**

وكما ان ما مرّ سابقاً يقدح في عدالته فان اكثره يقدح في عقيدته ايضاً . لان الراد على الرسول كالراد على الله وهذا ليس بصحيح العقيدة . والا فما معنى استئثاره بالفيء وحدّه بمن لا حدّ عليه واسقاطه الحد عمن لا يستحقه ؟ وما معنى حكمه في رعية محمد وفي دين الله برأيه ؟ ! ! وقد فطن لذلك ابنه يزيد فقال له يوم بويع له بولاية العهـــد فجعل الناس يمدحونه ويقرّضونه : **يا امير المؤمنين انخدع ، الناس ام يخدعوننا** ؟ ! ! وقد كان الناس يومئذ يسلمون على معاوية ثم يميلون اليه . الى ان جاء رجل ففعل ذلك ثم رجع الى معاوية فقال : يا أمير المؤمنين ، اعلم انك لو لم تولّ هذا هذا امور المسلمين لأضعتها . وكان الأحنف جالساً فقال له معاوية : ما لك لا تقول يا أبا بحر ؟ فقال : **اخاف الله ان كذبت ، واخافكم ان صدقت** . فقال : جزاك الله عن الطاعة خيراً وأمر له بالوف .. ولما خرج الاحنف اقيه الرجل بالباب فقال له معتذراً عن تمدحه ليزيد وتزلفه لمعاوية : يا أبا بحر ، **اني لأعلم ان شر الناس من خلق الله هذا وابنه** . ولكنهم قد استوثقوا من هذه الاموال بالابواب والاقفال ، فلسنا نطمع باستخراجها الا بما سمعت . فقال الاحنف (وهو ابن قيس) : يا هـذا أمسك . **فان ذا الوجهين خليقٌ الا يكون عند الله وجيهاً ..**

فحوادث معاوية مع كافة ملازميه تغص بها بطون الكتب

ولن اتابع سردها مهما نزعت بي نفسي الى ذلك لانها يضيق بها صدر كتابي هذا . وقد كان عمرو وبقية الملازمين يبخبخون له في كل حوادثه . ونحن لا نستطيع ان نحكم بنصحهم او غشهم . غير انهم كانوا – على كل حال – يحملونه على المراكب الخشنة فكان يسايرهم عن عمد وعن غير عمد ، ثم يعترف بعد الفعلة ويحكم على نفسه بعد الزلة .

فيا أبا يزيد :

أشرق بريقك . فالحق ما قاله الامام الباقر :

ما لك من عيشك الا لذة تزدلف بك الى حمامك وتقربك من يومك . فأية أكلة ليس معها غصص ؟ او شربة ليس فيها شرق ؟

وماذا أقول لك بالنهاية ؟

سوف لا اقول الا الحق .. والحق : ان كل حركة قمت بها وكل حركة قام بها ابنك يزيد ، وكل خاطرة كانت تدور في نفسيكما كانت مجسدة في تسع كلمات :

لعبت هاشم بالملك فلا خبرٌ جاء ولا وحي نزل !!!

●

المصادر

●

اذ اشكر كل من يردني عن الخطأ ليقيلني العثرة ويقيني الزلة ، ارجو منه ان لا يتعجل في اتخاذ رأيه ، لان النقد الموضوعي سيكون لغواً اذا لم يراجع دفعة واحدة وبدون استثناء :

١ – شرح النهج لابن ابي الحديد المجلد الاول : ٤ ، ٧ ، ٦٨ ، ٨١ ، ٨٥ ، ١١١ ، ١١٢ ، ١٣٧ ، ١٦٢ ، ١٦٦ ، ١٦٧ ، ١٧٢ ، ١٨٨ ، ٢٥٧ ، ٢٨٣ ، ٢٨٩ ، ٣٤٨ ، ٣٥٦ ، ٣٦٤ ، ٤٦٣ ، ٤٦٤ ، ٤٨٧ ، ٤٩١ ، ٤٩٢ ، ٤٩٣ ، ٤٩٨ ، ٥٠١ ، و ٥٠٤ ..

٢ – المجلد الثاني منه : ٧ ، ١٣ ، ١٧ ، ٢٨ ، ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٨ ، ٥٣ ، ٦٠ ، ١٠٠ ، ١٠١ ، ١٠٤ ، ١٠٥ ، ١٠٦ ، ١٠٧ ، ١١١ ، و ٣٠١ ...

٣ – المجلد الثالث منه : ١٥ ، ١٦ ، ٢٣ ، ٢٦ ، ٣٥ ، ٤٠ ، ٤٣ ، ٥٩ ، ٦٦ ، ٨٢ ، ١٥٣ ، ١٥٤ ، ١٦٦ ، ٢٩٢ ، ٢٩٣ ، ٢٩٥ ، ٣٠٢ ، ٣٢٥ ، ٣٦٠ ، ٣٦٦ ، ٣٦٧ ، ٣٨٤ ، ٣٨٦ ، ٣٨٧ ، ٣٩٢ ، ٤٠٧ ، ٤١٠ ، ٤١١ ، ٤١٢ ، ٤١٧ ، ٤٣٣ ،

٤٥١ ، ٤٥٢ ، ٤٥٤ ، ٤٥٥ ، ٤٥٦ ، ٤٥٧ ، ٤٦٨ ، ٤٦٩ ،
٤٧٠ ، ٤٧١ ، ٤٧٢ ، ٤٧٤ ، ٤٧٨ ، ٤٨٤ ، و ٤٨٦ ...

٤ – المجلد الرابع منه : ٣ ، ٤ ، ٥ ، ٦ ، ٧ ، ومن ١٠
الى ١٨ ، ٢٤ ، ٥١ ، ٥٧ ، ٥٨ ، ٦٦ ، ٧٣ ، ١٤٩ ، ١٦٠ ،
١٩٢ ، ١٩٣ ، ١٩٩ ، ٢٠١ ، ٢٠٦ ، ٢١٨ ، ٢٥٩ ، ٣١٧ ،
٤٢٥ ، ٤٩١ ، و ٥٠٦ ...

٥ – الكامل في اللغة والادب لابي العباس المبرد . الجزء
الاول : ١١ ، ١٢ ، ٣٠ ، ٦٠ ، ٩٤ ، ١٢١ ، ١٣٨ ، ١٤٥ ،
١٥٦ ، ١٩٠ ، ١٩١ ، ١٩٤ ، ٢١٠ ، ٢٣٥ ، ٢٩٦ ، ٣٠٥ ،
٣٠٩ ، ٣٦٤ ، ٣٧٩ و ٣٩٢ ...

٦ – الجزء الثاني منه : ٦ ، ٦٣ ، ١٣١ ، ١٣٢ ، ١٤٦ ،
١٤٧ ، ١٥٠ ، ١٥٢ ، ٣٠١ ، ٣١٨ ، ٣١٩ ، ٣٢١ و٣٥٥ ...

٧ – الكامل لابن الاثير . الجزء الثالث : ٤٠ ، ٦١ ، ٦٧ ،
٦٨ ، ٧٠ ، ٧٩ ، ٨٦ ، ٨٧ ، ٩٠ ، ٩١ ، ١٠٣ ، ١٠٩ ، ١٢٠ ،
١٢٢ ، ١٢٩ ، ومن ١٦٠ الى ١٦٤ ، ١٩٣ و١٩٨ ...

٨ – الصواعق المحرقة . لابن حجر : ٨ ، ٧٠ ، ٨١ ، ٨٢ ،
٨٤ ، ١٠٥ ، ١٠٧ ، ١١٤ ، ١١٥ ، و٣٣١ ...

٩ – العقـد الفريد . الجزء الاول : ٥٣ ، ١٥٣ ، ١٩٣
و ٣٣٤ ...

١٠ – الجزء الثاني منه : ١٥٨ ، ٢١١ ، ٢٦٤ ، و ٣٧٤ ...

١١ – الاصابة في تمييز الصحابة . لابن حجر . الجزء الاول:

من ٣٢٨ الى ٣٣١ ...

١٢ – الجزء الثاني منه : ١٥ ...

١٣ – « الثالث منه : ٤٣٣ ...

١٤ – التاريخ الكبير . لابن عساكر الجزء الرابع : ٣٢١..

١٥ – البداية والنهاية . لابي الفداء . المجلد الثاني الجزء السابع : من ٢٣٣ الى ٢٤٠ ...

١٦ – المجلد الثاني الجزء الثامن منه : ١٤ ، ١٦ ، ١٧ ، ١٨ ، ٢٢ ، ومن ٣٣ الى ٤٢ ، ٧٥ ...

١٧ – المناقب . المجلد الرابع : ٤ ، ٦ ، ٨ ، ٢٥ ، ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٣ ، ٣٦ ، ٣٧ ، ٤٠ ، ٤١ ، ٤٧ ومن ٤٩ الى ٦٣ ...

١٨ – حلية الاولياء . للاصبهاني ، المجلد الاول : ٨٤ ...

١٩ – المجلد الثاني منه : ٣٥ ، ٣٧ و٥٣ ...

٢٠ – تاريخ الخلفاء للسيوطي : ٣١ ، ٦٢ ، ومن ٧٢ الى ٧٩ ...

٢١ – المستدرك على الصحيحين في الحديث . الجزء الثالث : من ١٦٤ الى ١٧٤ ...

٢٢ – الاغاني . الجزء الرابع : ١٧٦ ، ١٧٧ ، ١٧٩ و١٩٧

٢٣ – الجزء الرابع عشر منه : ١٥٧ و١٥٨ . .

٢٤ – الجزء السادس عشر منه : ٣٤ ...

٢٥ – الامامة والسياسة . الجزء الاول : ٣٨ ، ٤٥ ، ٤٩ ،

٦٧ ، ٧٢ ، ١٦٣ و ١٦٦ ...

٢٦ – مقاتل الطالبيين . المجلد الرابع : ٣٧ و٤٨ ...

٢٧ – الحسين . الكتاب الاول السيد جلال الحسني : من ٣٠ الى ٣٨ و٤٧ ...

٢٨ – البيان والتبيين . للجاحظ . الجزء الاول : ١٧٣ ، ١٨٣ ، ٢١٧ و٢٨٠ ..

٢٩ – الجزء الثاني منه : ٨٣ ، ٨٤ ، ٨٧ ، ١٠٤ ، ١١٧ ، ١٣٥ ، ٢١٣ ، ٢٣٧ و٢٤٨ ...

٣٠ – الجزء الثالث منه : ٧٣ ، ٩٩ ، ١١٧ ، ٢٢٢ ، ٢٢٣ ، ٢٢٩ ، ٢٩٣ ، و٣١٣ ...

٣١ – احياء العلوم للغزلي . الجزء الرابع: ١٦٧ و ٣٤٤ ..

٣٢ – مروج الذهب . للمسعودي الجزء الاول : ٣٢٨ ...

٣٣ – الجزء الثاني منه : ٥٠ ، ٥٢ ، ٥٥ ، ومن ٦٣ الى ٦٦ ، ٧٢ ، ٧٩ ، ٨٢ و ٣٤١ ...

٣٤ – وقعة صفين : ٨٣ و ٢١٢ ...

٣٥ – ينابيع المودة . الجزء الاول : ٣١ ، ٣٠٤ ، ٣٠٦ ، ٣٠٩ ، ٣١٠ ، ٣١١ ، ٢٧٢ ، ٢٧٣ و٢٧٦ ...

٣٦ – الجزء الثاني منه : ٢٩٢ ، ٣٠٧ ، و٣٦٨ ...

٣٧ – علي وبنوه . لطه حسين : ١٩٦ ، ٢٠٠ ، ٢٠١ ، و٢١٥ ...

٣٨ – ارشاد المفيد . الجزء الثاني : ١٥٣ ومن ١٩٢ الى

١٩٦ ...

٣٩ – تحفة الانام . للفاخوري : ٦٧ ...

٤٠ – عمدة الطالب : ٤٤ ، ٤٥ و٤٦ ...

٤١ – الايقاد : ٤٣ ...

٤٢ – علي بن ابي طالب . لعبد الفتاح عبد المقصود . الجزء الاول : ٩٠ و١٢٨ ...

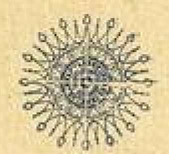
٤٣ – الجزء الثاني منه : ١٩٨

٤٤ – الجزء الثالث منه : ١٢٤ ، ١٣٣ ، ١٤٠ و١٥٠ ...

٤٥ – بحار الانوار . المجلد العاشر : ٢ ، ٩ ، ٢٢ ، ٢٥ ، ٥٢ ، ٥٣ ، ٥٨ ، ٦٦ و١٧٣ ..

فهرس

●



مطابع تميناد بيروت